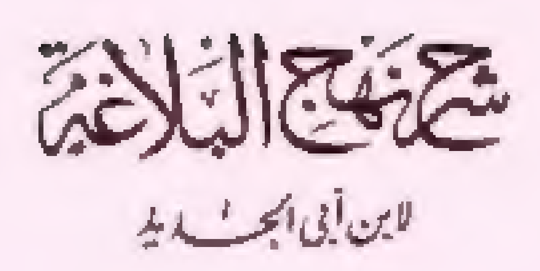


تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثالث عشر

مؤسسة اسماعيليان
للطباعة والنشر والتوزيع
قم ايران - تلفون ٢٥٢١٣


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

(٢٢٤)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في وصف بيعته بالخلافة ، وقد تقدم مثله بألفاظ مختلفة

وَبَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُهَا ، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا ، ثُمَّ تَدَاكَكْتُمْ عَلَيَّ تَدَاكَّ الإِبِلِ الْهِيمِ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وِرْدِهَا ، حَتَّى انْقَطَعَتِ النَّعْلُ ، وَسَقَطَ الرِّدَاءُ ، وَوُطِئَ الضَّعِيفُ ، وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّايَ أَنِ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ ، وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ ، وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا الْعَلِيلُ ، وَحَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكِعَابُ .

* * *

الشرح :

التداكّ : الازدحام الشديد . والإبل الهيم : العطاش .

وهدج إليها الكبير : مشى مشياً ضعيفاً مرتعشا ، والمضارع يهدج ، بالكسر .

وتحامل نحوها العليل : تكلّف المشي على مشقّة .

وحَسَرتْ إليها الكِعاب : كشفتْ عن وجهها حِرْصاً على حضور البيعة ، والكِعاب: الجارية التى قد نَهَدَ ثديُها ، كَعَبت تَكعُب ، بالضمّ .

قوله : « حتى انقطع النعل وسقط الرداء » ، شبيه بقوله فى الخطبة الشِّقشقية : « حتى لقد وُطِىء الحَسَنان وشُقّ عِطْفاىَ [1] » .

وقد تقدّم ذكر بيعتِه عليه السلام بعد قَتْلِ عثمان و إطباق الناس عليها ، وكيفيّة الحال فيها ، وشُرِح شرحاً يستغنى عن إعادته .



(١) الجزء الأول ص ٢٠٠ .

(٢٢٥)

الأَصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ ، وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ ، وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ ، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ ؛ بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ ، وَيَنْجُو الْهَارِبُ ، وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ .

فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُرْفَعُ ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ ، وَالدُّعَاءُ يُسْمَعُ ، وَالْحَالُ هَادِئَةٌ وَالأَقْلَامُ جَارِيَةٌ .

وَبَادِرُوا بِالأَعْمَالِ عُمُراً نَاكِساً ، أَوْ مَرَضاً حَابِساً ، أَوْ مَوْتاً خَالِساً ؛ فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمُ لَذَّاتِكُمْ ، وَمُكَدِّرُ شَهَوَاتِكُمْ ، وَمُبَاعِدُ طِيَّاتِكُمْ . زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ ، وَقِرْنٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ ، وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ ، قَدْ أَعْلَقَتْكُمْ حَبَائِلُهُ ، وَتَكَنَّفَتْكُمْ غَوَائِلُهُ ، وَأَقْصَدَتْكُمْ مَعَابِلُهُ ، وَعَظُمَتْ فِيكُمْ سَطْوَتُهُ ، وَتَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَدْوَتُهُ ، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ ، فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلَلِهِ ، وَاحْتِدَامُ عِلَلِهِ ، وَحَنَادِسُ غَمَرَاتِهِ ، وَغَوَاشِي سَكَرَاتِهِ ، وَأَلِيمُ إِرْهَاقِهِ ، وَدُجُوُّ إِطْبَاقِهِ ، وَخُشُونَةُ مَذَاقِهِ . فَكَأَنْ قَدْ أَتَاكُمْ بَغْتَةً فَأَسْكَتَ نَجِيَّكُمْ ، وَفَرَّقَ نَدِيَّكُمْ ، وَعَفَّى آثَارَكُمْ ، وَعَطَّلَ دِيَارَكُمْ ، وَبَعَثَ وُرَّاثَكُمْ ، يَقْتَسِمُونَ تُرَاثَكُمْ ، بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعْ ، وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعْ ، وَآخَرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعْ .

فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالاجْتِهَادِ ، وَالتَّأَهُّبِ وَالاسْتِعْدَادِ ، وَالتَّزَوُّدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ ، وَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ ، الَّذِينَ احْتَلَبُوا دِرَّتَهَا ، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا ، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا ، وَأَخْلَقُوا جِدَّتَهَا ،

وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ أَجْدَاثاً ، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثاً ، لَا يَعْرِفُونَ مَنْ أَتَاهُمْ ، وَلَا يَحْفِلُونَ مَنْ بَكَاهُمْ ، وَلَا يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ .

فَاحْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَدَّارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ ، مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ ، لَا يَدُومُ رَخَاؤُهَا ، وَلَا يَنْقَضِي عَنَاؤُهَا ، وَلَا يَرْكُدُ بَلَاؤُهَا .

* * *

الشَّرْحُ :

عِتق من كلّ ملَكة ، هو مثل قوله عليه السلام : « التوبة تجبّ ماقبلها » ، أى كلّ ذنب موبق يملك الشيطان فاعله ويستحوذ عليه ، فإنّ تقوى الله تعتق منه ، وتكفّر عقابه ، ومثله قوله : « ونجاةٌ من كلّ هلَكة » .

قوله عليه السلام : « والعمل ينفع » ، أى اعملوا فى دار التكليف ، فإنّ العمل يوم القيامة غير نافع .

قوله عليه السلام : « والحال هادئة » ، أى ساكنة ليس فيها ماف أحوال الموقف من تلك الحركات الفظيعة ، نحو تطاير الصحف ، ونطق الجوارح ، وعنف السياق إلى النار .

قوله عليه السلام : « والأقلام جارية » ، يعنى أنّ التكليف باقٍ ، وأنّ الملائكة الحفَظة تكتب أعمال العباد ، بخلاف يوم القيامة ، فإنه يبطل ذلك ، ويستغنى عن الحفظة لسقوط التكليف .

قوله : « عمراً ناكساً » ، يعنى الهرَم ، من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ [1] ، لرجوع الشيخ الهرِم إلى مثل حال الصبىّ الصغير فى ضعف العقل والبنية .

(١) سورة يس ٦٨ .

وللوت الخالس : المختطف . والطِّيَّات : جمع طِيَّة بالكسر ، وهى منزل السفر .

والواتر : القاتل ، والوِتْر ، بالكسر : الذَّحْل .

وأعلقتكم حبائله . جعلتكم معتلقين فيها ، ويروى : « قد عَلِقَتْكم » بغير همز .

وتكنفتكم غوائله : أحاطت بكم دواعيه ومصائبه . وأقصدتكم : أصابتكم .

والمعابل : نصال عِراض ، الواحدة مِعْبَلة ، بالكسر .

وعَدْوته ، بالفتح : ظُلْمه . ونَبْوَته : مصدر نَبَا السَّيف إذا لم يؤثِّر فى الضريبة .

ويوشِك ، بالكسر : يقرب . وتَغْشاكم : تحيط بكم .

والدَّواجى : الظُّلَم ، الواحدة داجية . والظُّلَل : جمع ظُلَّة ، وهى السحاب . والاحتدام : الاضطرام . والحنادس : الظلمات .

وإرهاقه : مصدر أرهقته أى أعجلته ، ويروى : « إزهاقه » بالزاى .

والأطباق : جمع طَبَق ، وهذا من باب الاستعارة ، أى تكاثف ظلماتها طبق فوق طبق .

ويروى « وجُشوبة مذاقه » بالجيم والباء ، وهى غلظ الطعام .

والنَّجِىّ : القوم يتناجون . والندىّ : القوم يجتمعون فى النادى .

واحتلبوا دِرّتها : فازوا بمنافعها ، كما يحتلب الإنسان اللَّبَن .

وهذه الخطبة من محاسن خطبه عليه السلام ، وفيها من صناعة البديع ما هو ظاهر للمتأمل .

* * *

الأصْلُ :

منها فى صفة الزهاد :

كَانُوا قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا ، فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا ،

عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ ، وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ ، تَقَلَّبُ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِ الْآخِرَةِ ، وَيَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا ، يُعَظِّمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَاماً لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ .

* * *

الشّرح :

بين ظهرانَيْ أهل الآخرة ، بفتح النون ، ولا يجوز كسرها ، ويجوز بين ظهرَيْ أهل الآخرة لو روى ، والمعنى فى وسطهم .

قوله عليه السلام : « كانوا قوما من أهل الدنيا وليسوا من أهلها » أى هم من أهلها فى ظاهر الأمر وفى مرأى العين وليسوا من أهلها ، لأنه لارغبة عندهم فى ملاذّها ونعيمها ، فكأنّهم خارجون عنها .

قوله : « عملوا فيها بما يبصرون » ، أى بما يرونه أصلح لهم ، ويجوز أن يريد أنّهم لشدّة اجتهادهم قد أبصروا المآل ، فعملوا فيها على حسب ما يشاهدونه من دار الجزاء وهذا كقوله عليه السلام : « لو كُشِف الغطاء ما ازددت يقينا » .

قوله عليه السلام : « وبادروا فيها ما يحذرون » ، أى سابقوه ، يعنى الموت .

قوله عليه السلام : « تقلب أبدانهم » ، هذا محمول تارة على الحقيقة ، وتارة على المجاز ، أما الأول فلأنّهم لا يخالطون إلّا أهلَ الدين ولا يجالسون أهل الدنيا ، وأمّا الثانى فلأنّهم لمّا استحقّوا الثواب كان الاستحقاق بمنزلة وصولهم إليه ، فأبدانُهم تتقلّب بين ظهرانَيْ أهل الآخرة ، أى بين ظهرانَيْ قوم هم بمنزلة أهل الآخرة ، لأنّ المستحقّ للشىء نظيرٌ لمن فعل به ذلك الشىء .

ثم قال : هؤلاء الزّهّاد يرون أهل الدنيا إنّما يستعظمون موت الأبدان ، وهم أشدُّ استعظاما لموت القلوب ، وقد تقدّم من كلامنا فى صفات الزهاد والعارفين مافيه كفاية .

(٢٣٦)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام خطبها بذى قار، وهو متوجه إلى البصرة، ذكرها الواقدىّ فى كتاب « الجمل » :

فَصَدَعَ بِما أُمِرَ بِهِ، وَبَلَّغَ رِسالاتِ رَبِّهِ، فَلَمَّ اللهُ بِهِ الصَّدْعَ، وَرَتَقَ بِهِ الفَتْقَ، وَأَلَّفَ بِهِ الشَّمْلَ بَيْنَ ذَوِى الأَرْحامِ بَعْدَ العَداوَةِ الوَاغِرَةِ فِى الصُّدُورِ، وَالضَّغائِنِ القَادِحَةِ فِى القُلُوبِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

ذو قار : اسم موضع قريب من البصرة ، وفيه كانت وقعة للعرب مع الفرس قبل الإسلام .

وصدع بما أمر به ، أى جهر ، وأصل الصّدْع الشقّ .

ولمّ به : جمع . ورتق : خاط وألحم .

والعداوة الواغرة : ذات الوغرة ، وهى شدة الحرّ .

والضغائن : الأحقاد .

والقادحة فى القلوب ؛ كأنها تقدح النار فيها كما تقدح النّار بالمِقْدَحة .

(٢٢٧)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام كلم به عبد الله بن زمعة ، وهو من شيعته ، وذلك أنه قدم عليه في خلافته يطلب منه مالا ، فقال عليه السلام :

إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ ، وَإِنَّمَا هُوَ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَجَلْبُ أَسْيَافِهِمْ ، فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ ، وَإِلَّا فَجَنَاةُ أَيْدِيهِمْ لَا تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ .

الشرح :

هو عبد الله بن زمْعة ، بفتح الميم لا كما ذكره الراوندي ، وهو عبد الله بن زَمَعة بن الأسود بن المطّلب بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَيّ .

كان الأسود من المستهزئين الّذين كفى الله رسوله أمرهم بالموت والقتل ، وابنه زَمَعة ابن الأسود ، قُتِل يوم بدر كافراً ، وكان يدعَى زاد الركب ، وقتل أخوه عقيل بن الأسود أيضاً كافرا يوم بَدْر ، وقتل الحارث بن زَمَعة أيضاً يوم بدر كافرا ، والأسود هو الذى سمع امرأة تبكى على بعير تضلّه بمكة بعد يوم بدر ، فقال :

أتبكِي أنْ يَضِلّ لها بعيرٌ ويمنعُها من النوم السُّجودُ [1]

---

(١) الأبيات فى ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقى ٢ : ٨٧٣ .

ولا تبكى على بَدْرٍ ولكنْ ... عَلَى بَدْرٍ قلعتْرتِ الجـدودُ
ألا قَدْ سادَ بعـدَهمُ أناسٌ ... ولولا يومُ بدرٍ لم يسودُوا

وكان عبد الله بن زَمْعة شيعةً لعلىّ عليه السلام . ومن أصحابه ؛ ومن ولد عبد الله هذا أبو البخترىّ القاضى ؛ وهو وهب بن وهب بن كبير بن عبد الله بن زمعة ، قاضى الرشيد هارون بن محمد المهدىّ ، وكان منحرفاً عن علىّ عليه السلام ، وهو الذى أفتى الرشيد ببطلان الأمان الذى كتبه ليحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب عليه السلام ، وأخذه بيده فمزّقه .

وقال أميّة بن أبى الصلت يرثى قتلى بدر ، ويذكر زَمْعة بن الأسود :

عَيْنِ بكّى لنوفلٍ ولعمرو ... ثم لا تبخَلِى على زَمْعَه [(١)]

نوفل بن خويلد من بنى أسد بن عبد العزى ، ويعرف بابن العدويّة ، قتله على عليه السلام ، وعمرو أبو جهل بن هشام ، قتله عوف بن عَفْراء ، وأجهز عليه عبد الله ابن مسعود .

قوله عليه السلام : « وجَلَب أسيافهم » أى ما جلبتْه أسيافهم وساقته إليهم ، والجَلَب : المال المجلوب . وجَنَاة الثمر ما يُجْتَنَى منه ، وهذه استعارة فصيحة .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٤٠٧ — بشرح الشيخ محمد محيى الدين ؛ ورواية البيت فيه :

عَيْنُ بَكِّى بالمسبلاتِ أبا الحا ... رثِ لا تَذْخَرِى عَلَى زَمْعَهْ

(٢٢٨)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام :

أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ ، وَلَا يُمْهِلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ ، وَإِنَّا لَأُمَرَاءُ الْكَلَامِ ، وَفِينَا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ ، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ .

وَاعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللهُ أَنَّكُمْ فِي زَمَانٍ الْقَائِلُ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ ، وَاللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ ، أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِصْيَانِ ، مُصْطَلِحُونَ عَلَى الْإِدْهَانِ ، فَتَاهُمْ عَارِمٌ ، وَشَائِبُهُمْ آثِمٌ ، وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ ، وَقَارِئُهُمْ مُمَاذِقٌ ، لَا يُعَظِّمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرَهُمْ ، وَلَا يَعُولُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ .

• • •

الشرح

بَضْعة من الإنسان قطعة منه ، والهاء في « يسعده » ترجع إلى اللسان .

والضمير في « امتنع » يرجع إلى الإنسان ، وكذلك الهاء في « لا يمهله » يرجع إلى اللّسان .

والضمير في « اتسع » يرجع إلى الإنسان ، وتقديره : فلا يُسعِد اللسان القول إذا امتنع الإنسان عن أن يقول ، ولا يمهل اللسان النطق إذا « اتّسع » للإنسان القول ، والمعنى : إن اللسان آلةٌ للإنسان ، فإذا صرفه صارفٌ عن الكلام ، لم يكن اللسان

ناطقاً ، وإذا دعاه داعٍ إلى الكلام نطق اللسان بما فى ضمير صاحبه .

وتنشبت عروقه ، أى علقت ، وروى « انتشبت » والرواية الأولى أدخل فى صناعة الكلام ، لأنها بإزاء تهدّلت ، والتهدّل التدلّى ، وقد أخذ هذه الألفاظ بعينها أبو مسلم الخراسانى ، فخطب بها فى خطبة مشهورة من خطبه .

• • •

[ذكر من أرتج عليهم أو حَصِروا عند الكلام]

واعلم أنّ هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام فى واقعة اقتضت أن يقوله ، وذلك أنه أمر ابن أخته جَعْدة بن هُبيرة المخزومىّ أن يخطب الناس يوما ، فصعد المنبر ، فحصِر ولم يستطع الكلام ، فقام أمير المؤمنين عليه السلام فتسنّم ذروة المنبر ، وخطب خطبة طويلة ، ذكر الرضىّ رحمه الله منها هذه الكلمات ، وروى شيخنا أبو عثمان فى كتاب "البيان والتبيين" ، أن عثمان صعد المنبر فأرتج عليه فقال : « إن أبا بكر وعمر كانا يعدّان لهذا المقام مقالاً ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وستأتيكم الخطبة على وجهها »[1] . ثم نزل .

قال أبو عثمان : وروى أبو الحسن المدائنىّ ، قال : صعد ابن لعدىّ[2] بن أرطاة المنبر فلمّا رأى الناس حَصِر فقال : « الحمد لله الذى يُطعم هؤلاء ويسقيهم »[3] .

وصعِد رَوْح بن حاتم المنبر ، فلمّا رأى الناس قد رشقوه[4] بأبصارهم ، وصرفوا أسماعهم

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ٢٥٠ .

(٢) كذا فى الأصول ؛ وفى البيان والتبيين : « صعد عدىّ بن أرطاة » .

(٣) البيان والتبيين ٢ : ٢٤٩ .

(٤) البيان : « شفنوا أبصارهم » ، والشفن : أن يرفع المرء طرفه ناظرا إلى الشىء كالمتعجب له .

نحوه ، قال : نكّسوا رءوسكم ، وغضّوا أبصاركم ، فإنّ أوّل مركب صعب ، فإذا يسّر الله عزّ وجلّ فتح قُفل تيسّر »[1] . ثم نزل .

وخطب مُصْعب بن حيّان أخو مقاتل بن حيّان خطبة نكاح فحصر ، فقال : « لقّنوا موتاكم لا إله إلا الله » ، فقالت أم الجارية : عجل الله موتك ، ألهذا دعوناك[2] !

وخطب مروان بن الحكم فحصر ، فقال : « اللهم إنّا نحمدك ونستعينك ولا نشرك بك » .

ولمّا حَصِر عبد الله بن عامر بن كُريز على المنبر بالبصرة — وكان خطيبا — شقّ عليه ذلك ، فقال له زياد بن أبيه ، وكان خليفته : أيها الأمير لا تجزع فلو أقمت على المنبر عامّة مَنْ ترى أصابهم أكثر مما أصابك . فلمّا كانت الجمعة تأخّر عبد الله بن عامر وقال زياد للناس : إنّ الأمير اليوم موعوك ، فقيل لرجل من وجوه أمراء القبائل : قم فاصعد المنبر ، فلما صعد حَصِر ، فقال : الحمد لله الذي يرزق هؤلاء ، وبقي ساكتا ، فأنزلوه ، وأصعدوا آخر من الوجوه ، فلمّا استوى قائما قابل بوجهه الناس ، فوقعت عينه على صَلَعة[3] رجل ، فقال: أيها الناس ، إنّ هذا الأصلع قد منعني الكلام ، اللهمّ فالعن هذه الصلعة . فأنزلوه . وقالوا لوازع اليشكري: قم إلى المنبر فتكلّم ، فلمّا صعد ورأى الناس قال : أيها الناس إني كنت اليوم كارها لحضور الجمعة ، ولكن امرأتي حملتني على إتيانها ، وأنا أشهدكم أنها طالق ثلاثا ، فأنزلوه ، فقال زياد لعبد الله بن عامر : كيف رأيت ؟ قم الآن فاخطب الناس[4] .

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ٢٤٩ .

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٢٥٠ .

(٣) الصلعة : موضع الصلع .

(٤) البيان والتبيين ٢ : ٢٥١

وقال سهل بن هارون : دخل قطرب النحوىّ على المخلوع (١) ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، كانت عِدتُك أرفع من جائزتك ـ وهو يتبسّم ـ فاغتاظ الفضل [بن الربيع] (٢) فقلت له : إنّ هذا من الحَصَر والضّعف ، وليس من الجَلَد والقوّة ، أما تراه يفتلُ أصابعَه ويَرْشح جبينه (٣) !

ودخل معبد بن طوق العنبرىّ على بعض الأمراء ، فتكلّم وهو قائم فأحسن ، فلمّا جلس تَلَهْيَع (٤) فى كلامه ، فقال له : ماأظرفك قائماً ، وأموقك (٥) قاعداً ! قال : إنّى إذا قُمت جَدَدْت ، وإذا قعدت هزَلت ، فقال : ماأحسن ماخرجت منها (٦) !

* * *

وكان عمرو بن الأهتم المِنقرىّ والزِّبرقان بن بدر عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، فسأل عليه السلام عَمْراً عن الزِّبرقان فقال : يارسولَ الله ؛ إنّه لمانعٌ لحوزته ، مطاعٌ فى أدانيه ، فقال الزِّبرقان : حسدنى يارسولَ الله ! فقال عمرو : يارسول الله ، إنّه لزِمر المروءة ، ضيّق العطن ، لئيم الخال ، فنظر رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى وَجْه عمرو ، فقال : يارسولَ الله ؛ رضيتُ فقلت أحسن ماعلمتُ ، وغضبتُ فقلت أقبحَ ماعلمتُ ، وما كذبتُ فى الأولى ، ولقد صدقتُ فى الأخرى . فقال عليه السلام : إنّ من البيان لسحراً .

وقال خالد بن صَفْوان : ما الإنسان لولا اللسان إلاّ صورة ممثّلة أو بهيمة مهملة .

---

(١) الخليفة المخلوع هو الأمين .
(٢) من البيان والتبيين (٣) البيان والتبيين ١ : ٣٤٦ .
(٤) تلهيع : أفرط ، وفى البيان « تتعتع » .
(٥) البيان : « أموقك » .
(٦) البيان والتبيين ١ : ٣٤٨ ، والعقد ١٠ : ٢٠٣

وقال ابن أبي الزّناد : كنت كاتباً لعمر بن عبد العزيز ، فكان يكتب إلى عبد الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب في المظالم فيراجعه ، فكتب إليه : إنّه يخيّل إليّ أنّي لو كتبت إليك أن تعطي رجلاً شاة لكتبت إليّ : أضأنا أم معزا ؟ فإذا كتبت إليك بأحدهما ، كتبت إليّ : أذكرا أم أنثى ! وإذا كتبت إليك بأحدهما ، كتبت إليّ : صغيراً أم كبيراً ! فإذا كتبتُ إليك في مظلمة ، فلا تراجعني والسلام [١] .

وأخذ المنصور هذا فكتب إلى سلْم بن قتيبة عامله بالبصرة يأمره بهدْم دور مَنْ خرج مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وعقْر نخلهم ، فكتب إليه : بأيّهما أبدأ [بالدّور أم بالنّخل] [٢] يا أمير المؤمنين ؟ فكتب إليه : لو قلت لك بالنّحل لكتبت إليّ بماذا أبدأ ؟ بالشّهريز أم بالبرْنيّ [٣] ؟ وعزله ، وولّى محمد بن سليمان [٤] .

● ● ●

وخطب عبد الله بن عامر مرّة فأرتج عليه ، وكان ذلك اليوم يوم الأضحى ، فقال : لا أجمع عليكم عيّاً ولؤماً : مَنْ أخذ شاة من السّوق فهي له وثمنها عليّ .

وخطب السّفاح أوّل يوم صعد فيه المنبر فأرْتج عليه ، فقام عمّه داود بن عليّ ، فقال : أيها الناس إنّ أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قولُه فيكم فعله ، ولأثر الأفعال أجدى عليكم من تشقيق المقال ، وحسبكم كتاب الله علماً فيكم ، وابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله خليفةً عليكم .

قال الشاعر :

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ٢٨٠ (٢) من البيان والتبيين .
(٣) الشهريز : ضرب من التمر ، والبرنيّ : ضرب من التمر أيضا أصفر مدور ؛ وهو أجود التمر
(٤) البيان والتبيين ٢ : ٢٨٣

وما خيرُ مَنْ لا ينفع الدّهرَ عيشُه ... وإن مات لم يحزَنْ عليه أقاربُهْ

كَهامٌ على الأقصى كليلٌ لسانُهُ ... وفى بَشَرِ الأدنى حديدٌ مخالبُهْ

وقال أُحَيحة بن الجُلاح :

والصمتُ أجملُ بالفتى ... مالم يكن عِيٌّ يَشينُهْ [1]

والقولُ ذو خَطَلٍ إذا ... مالم يكن لبٌّ يَزينُهْ

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٢٧٥ .

(٢٢٩)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

روى ذعلب اليماني عن أحمد بن قتيبة ، عن عبد الله بن يزيد عن مالك بن دحية ، قال : كنا عند أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال وقد ذكر عنده اختلاف الناس :

إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِئُ طِينِهِمْ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِلْقَةً مِنْ سَبَخِ أَرْضٍ وَعَذْبِهَا ، وَحَزْنِ تُرْبَةٍ وَسَهْلِهَا ، فَهُمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ ؛ وَعَلَى قَدْرِ اخْتِلَافِهَا يَتَفَاوَتُونَ ، فَتَامُّ الرُّوَاءِ نَاقِصُ الْعَقْلِ ، ومَادُّ الْقَامَةِ قَصِيرُ الْهِمَّةِ . وَزَاكِي الْعَمَلِ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ ، وَقَرِيبُ الْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ ، وَمَعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ مُنْكَرُ الْجَلِيبَةِ ، وتَائِهُ الْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللُّبِّ . وَطَلِيقُ اللِّسَانِ حَدِيدُ الْجَنَانِ .

• • •

الشَّرْحُ :

ذعلب وأحمد وعبد الله ومالك ، رجال من رجال الشيعة ومحدّثيهم . وهذا الفصل عندى لا يجوز أن يحمل على ظاهره ، وما يتسارع إلى أفهام العامة منه ، وذلك لأن قوله : « أنهم كانوا فِلْقة من سَبَخ أرض وعَذْبها » ؛ إمّا أن يريد به أنّ كلّ واحد من النّاس ركّب من طين ، وجعل صورة بشرية طينية برأس وبطن ويدين ورجلين ، ثم نفخت فيه الروح كما فعل بآدم ، أو يريد به أنّ الطّين الذى ركّبت منه صورة آدم فقط كان مختلطا من سَبَخ وعَذْب ، فإن أريد الأول فالواقع خلافه ، لأنّ البَشر الذين نشاهدهم ، والذين بلغتنا أخبارهم لم يخلقوا من الطين كما خلق آدم ، وإنّما خلقوا من نُطَفِ آبائهم . وليس لقائل أن يقول : لعلّ تلك النطف

افترقت لأنّها تولّدت من أغذية مختلفة المنبت من العذوبة والملوحة ، وذلك لأنّ النطفة لا تتولّد من غذاء بعينه ، بل من مجموع الأغذية ، وتلك الأغذية لا يمكن أن تكون كلّها من أرض سَبِخة محضة فى السبخيّة ، لأنّ هذا من الاتّفاقات التى يعلم عدم وقوعها ، كما يعلم أنّه لا يجوز أن يتفق أن يكون أهل بغداد فى وقت بعينه على كثرتهم لا يأكلون ذلك اليوم إلّا السكباج خاصة ، وأيضاً فإنّ الأرض السَّبِخة ، أو التى الغالب عليها السبخيّة ، لا تنبت الأقوات أصلا . وإن أريد الثانى ، وهو أن يكون طين آدم عليه السلام مختلطاً فى جوهره ، مختلفاً فى طبائعه ، فلِمَ كان زيدٌ الأحمق يتولّد من الجزء السبخىّ وعمرو العاقل يتولّد من الجزء العذبى ، أولى من العكس ؟ وكيف يؤثّر اختلاف طين آدم من ستّة آلاف سنة فى أقوام يتوالدون الآن .

والذى أراه أنّ لكلامه عليه السلام تأويلاً باطنا ، وهو أن يريد به اختلاف النفوس المدبّرة للأبدان ، وكنّى عنها بقوله : « مبادئ طينهم » ، وذلك أنّها لمّا كانت الماسكة للبدن من الانحلال ، العاصمة له من تفرّق العناصر ، صارت كالمبدأ وكالعلّة له من حيث إنّها كانت علّة فى بقاء امتزاجه واختلاط عناصره بعضها ببعض ، ولذلك إذا فارقت عند الموت افترقت العناصر ، وانحلّت الأجزاء ، فرجع اللطيف منها إلى الهواء ، والكثيف إلى الأرض .

وقوله : « كانوا فلقة من سبخ أرض وعذبها ، وحَزْن تربة وسهلها » تفسيره أنّ البارى جلّ جلاله لمّا خلق النفوس ، خلقها مختلفة فى ماهيّتها ، فمنها الزكيّة ومنها الخبيثة ، ومنها العفيفة ومنها الفاجرة ، ومنها القويّة ومنها الضعيفة ، ومنها الجريئة المقدِمة ، ومنها الفَشِلة الذليلة[1] ، إلى غير ذلك من أخلاق[2] النفوس المختلفة المتضادّة .

ثم فسّر عليه السلام وعلّل تساوى قوم فى الأخلاق وتفاوت آخرين فيها ، فقال :

---

(١) ساقطة من ا (٢) ا : « اختلاف » .

إنّ نفس زيد قد تكون مشابهةً أو قريبة من المشابهة لنفس عمرو، فإذاهما فى الأخلاق متساويتان، أو متقاربتان، ونفس خالد قد تكون مضادّة لنفس بكر أو قريبة من المضادّة، فإذاهما فى الأخلاق متباينتان أو قريبتان من المباينة.

والقول باختلاف النفوس فى ماهيّاتها هو مذهب أفلاطون، وقد اتّبعه عليه جماعة من أعيان الحكماء، وقال به كثير من مثبتى النفوس من متكلّمى الإسلام.

وأمّا أرسطو وأتباعه، فإنّهم لا يذهبون إلى اختلاف النفوس فى ماهيّتها. والقول الأوّل عندى أمثل.

ثم بيّن عليه السلام اختلاف آحاد الناس، فقال: منهم من هو تام الرّواء، لكنه ناقص العقل. والرّواء بالهمز والمدّ: المنظر الجميل، ومن أمثال العرب: «ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل».

وقال الشاعر:

عقله عقل طائرٍ وهو فى خِلقة الجمل

وقال أبو الطيب:

وما الحسنُ فى وجهِ الفتى شرفٌ له إذا لم يكن فى فعلِه والخلائقِ [1]

وقال الآخر:

وما ينفع الفتيانَ حُسْنُ وجوهِهِمْ إذا كانت الأخلاق غيرَ حِسانِ

فلا يغررنْك المرءُ راقَ رُواؤه فما كلّ مصقول الغِرارِ يمانى

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٢٠

ومن شعر الحماسة :

لَقَوْمِي أَرْعَى لِلْعُلَا مِنْ عِصَابَةٍ ... من النّاس ياحار بن عمرو تسودُها (١)

وأنتم سماء يُعجِب الناس رِزُّها ... بآبدةٍ تُنْحِي شديدٍ وئيدُها (٢)

تقطّع أطناب البيوت بحاصبٍ ... وأكذب شيء برقُها ورعودُها

فويل امّها خيلاً بهاء وشارة ... إذا لاقت الأعداء لولا صدودُها !

ومنه أيضا :

وكائنْ بسعدٍ إنّ سعدا كثيرةٌ ... ولا ترجُ من سَعْدٍ وفاء ولا نصْرا (٣)

يروعُكَ من سَعْدِ بن زيد جسومُها ... وتزهدُ فيها حين تقتلُها خُبْرا

* * *

قوله عليه السلام : « ومادّ القامة قصير الهمّة » : قريب من المعنى الأول ، إلّا أنه خالف بين الألفاظ ، فجعل الناقص بإزاء التامّ ، والقصير بإزاء المادّ . ويمكن أن يجعل المعنيان مختلفين ، وذلك لأنّه قد يكون الإنسان تامّ العقل ، إلّا أنّ همته قصيرة ، وقد رأينا كثيرا من النّاس كذلك ، فإذنْ هذا قسم آخر من الاختلاف غير الأوّل .

قوله عليه السلام : « وزاكى العمل قبيح المنظر » يريد بزكاء أعماله حسنَها وطهارتَها ، فيكون قد أوقع الحسَن بإزاء القبيح ، وهذا القسم موجود فاشٍ بين الناس .

قوله : « وقريب القعر بعيد السّبر » ، أى قد يكون الإنسان قصير القامة ، وهو مع ذلك داهية باقعة ، والمراد بقرب قعره تقارب ما بين طرفيه ، فليست بطنه بعيدة ولا مستطيلة ،

---

(١) لقراد بن حنش الصاردى — ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ٣ : ١٤٣٠ .

(٢) السماء هنا : السحاب . والرز والوئيد جميعا : الصوت . ومعنى : « تنحى » تقبل .

(٣) ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ٣ : ١٠٢٢ ، وهناك بعد هذا البيت :

وَلَا تَدْعُ سَعْدًا لِلْقِرَاعِ وَخَلِّهَا ... إِذَا أَمِنَتْ وَانْعَتْ لَهَا الْبَلَدَ الْقَفْرَا

وهى قعره ، وإذا سبرته واختبرت ماعنـــده وجدته لبيبا فَطِنا ، لا يوقَف على أسراره ، ولا يدرك باطنه ، ومن هذا المعنى قول الشاعر [١] :

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فتزدَرِيه وفى أثوابه أَسَـــدٌ مَزِيرُ [٢]

ويعجبُك الطَّرِيرُ فتبتليـــهِ فيخلف ظنَّك الرجلُ الطَّرِيرُ [٣]

وقيل لبعض الحكماء : ما بال القصارِ من الناس أدهى وأحذق ؟ قال : لقرْب قلوبهم من أدمغتهم .

ومن شعر الحماسة :

إلّا يكن عظمى طويـــلاً فإننى له بالخصال الصالحات وصولُ [٤]

ولا خيرَ فى حُسْنِ الجسوم وطولها [٥] إذا لم تزِنْ حسنَ الجُسوم عقولُ

ومن شعر الحماسة أيضا وهو تمام البيتين المتقدّم ذكرها :

فمـــا عِظَمُ الرجالِ لهم بفخرٍ ولـكن فخرُهُمْ كرم وخيرُ

ضِعاف الطـــير أطولُها جسوما ولم تَطُـــلِ البزاة ولا الصُّقُور

بُغاث الطـــير أكثرها فِراخا وأمّ الصقر مِقْلاتٌ نَزُور [٦]

لقـــد عَظُم البعير بغيرِ لُبٍّ فلم يَسْتَغْنِ بالعِظَم البعـــيرُ

* * *

قوله عليه السلام : « ومعروف الضريبة منكر الجليبة » ، الجليبة هى الخلُق الّذى

---

(١) للعباس بن مرداس ، ديوان الحماسة ــ بشرح المرزوق ٣ : ١١٥٣ .

(٢) المزير : الجلد الحفيف النافذ فى الأمور .

(٣) الطرير : الشاب الناعم .

(٤) ديوان الحماسة ٣ : ١١٨١ ــ بشرح المرزوقى ونسبه إلى بعض الفزاريين .

(٥) الحماسة : « ونبلها » .

(٦) المقلات ، من القلت وهو الهلاك . والنزور : القليلة الأولاد من النزر ، وهو القليل .

يتكلفه الإنسان ويستجلبه ، مثل أن يكون جباناً بالطبع فيتكلّف الشجاعة ، أو شحيحا بالطبع فيتكلف الجود ، وهذا القسم أيضا عام في النّاس .

ثم لما فرغ من الأخلاق المتضادة ذكر بعدها ذوى الأخلاق والطباع المتناسبة المتلائمة ، فقال : « وتائه القلب متفرق اللّب » ، وهذان الوصفان متناسبان لا متضادّان .

ثم قال : « وطليق اللّسان حديد الجَنان » ، وهذان الوصفان أيضا متناسبان ، وهما متضادان للوصفين قبلهما ، فالأولان ذمّ ، والآخران مدح .

(٢٣٠)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام : قاله وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وتجهيزه :

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَارَسُولَ اللهِ ! لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَالَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ . خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ ، وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً ، وَلَوْلَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ ، لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّؤُونِ ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً ، وَالْكَمَدُ مُحَالِفاً ، وَقَلَّا لَكَ ! وَلَكِنَّهُ مَالَا يُمْلَكُ رَدُّهُ ، وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ !

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ ، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ !

•••

الشرح :

بأبي أنت وأمي ! أي بأبي أنت مفدّى وأمي .

والإنباء : الإخبار ، مصدر أنبأ ينبيء ، وروى : « والأنباء » بفتح الهمزة جمع نبأ ، وهو الخبر . وأخبار السماء : الوحي .

قوله عليه السلام : « خصصت وعممت » ، أي خصت مصيبتك أهل بيتك حتى إنهم لا يكترثون بما يصيبهم بعدك من المصائب ، ولا بما أصابهم من قبل ، وعمت هذه

للمصيبة أيضا النّاس ، حتى استوى الخلائق كلّهم فيها ، فهي مصيبة خاصّة بالنسبة ، وعامّة بالنسبة .

* * *

ومثل قوله : « حتى صرت مسلّيا عن سواك » قول الشاعر :

رُزِئنا أبا عمرو ولا حيّ مثلُه ... فلله درّ الحادثات بمن تقعْ !

فإن تكُ قد فارقتنا وتركتنا ... ذوي خلّة ما في انسداد لها طمعْ

لقد جرّ نفعا فقدُنا لك أننا ... أمنّا على كلّ الرزايا من الجزَعْ

وقال آخر :

أقول للموتِ حين نازله ... والموت مِقْدامة على البهَمِ

اذهب بمن شئتَ إذ ظفرتَ به ... ما بعد يحيى للموت من ألمِ

ولي في هذا المعنى كتبته إلى صديق غاب عنّي من جملة أبيات :

وقد كنت أخشى من خطوبٍ غوائلٍ ... فلمّا نأى عني أمنتُ من الحذر

فأعجب لجسمٍ عاش بعد حياتِهِ ... وأعجب لنفعٍ حاصلٍ جرّه ضررْ

* * *

وقال إسحاق بن خلف يرثي بنتا له [1] :

أمست أميمة معمورا بها الرَّجمُ ... لقًا صعيدٍ عليها التّرب مرتكمُ [2]

ياشِقّة النّفْسِ إنّ النفس والهة ... حرّى عليك ، وإنّ الدّمع منسجمُ [3]

قد كنتُ أخشى عليها أن تُقدّمني ... إلى الحِمام فيبدي وجهها العدمُ

فالآن نمتُ ، فلا همٌّ يؤرّقني ... تهدا العيون إذا ما أودت الحرَمُ [4]

---

(١) الكامل ٤ : ٢٠

(٢) الرجم : القبر ، واللقى : الشيء الملقى .

(٣) الشقة : نصف الشيء .

(٤) أودت : هلكت .

فللموت عنـدى أيادٍ لست أكفرُها أحيا سروراً وبى مما أتى ألمُ

* * *

وقال آخر :

فلو أنها إحــــدى يدىّ رزيتُها ولكن يدى بانت على إثرها يدى

فآليتُ لا آسى على إثر هالكٍ قدِى الآن من حُزنٍ على هالكٍ قدِى

* * *

وقال آخر :

أجارىَ ما أزداد إلا صــبابة عليكَ ؛ وما تزداد إلا تنائيا

أجارىَ لو نفس فــدت نفسَ ميّتٍ فديتُــك مسرورا بنفسى ماليا

وقد كنت أرجو أن أملاك حقبــة فحالَ قضاه الله دونَ رجائيا

ألا فليمُتْ مَنْ شاء بعــدك إنما عليك من الأقدار كان حذاريا

* * *

وقال آخر :

لتغــدُ المنايا حيث شاءت فإنها محلّلة بعــد الفتى ابن عَقيلِ

فتى كان مولاه يحـلّ بنجوةٍ فحلّ الموالى بعــده بمسيلِ

* * *

قوله عليه السلام : « ولكان الداء مماطلا » : أى مماطلا بالبرء ، أى لا يجيب إلى الإقلاع .

والإبلال : الإفاقة .

* * *

[ذكر طرف من سيرة النبي عليه السلام عند موته]

فأما وفاةُ رسول الله صلى الله عليه وآله وما ذكره أرباب السيرة فيها فقد ذكرنا طرفا منه فيما تقدّم؛ ونذكرها هنا طرفا آخر مما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ في تاريخه.

قال أبو جعفر : روى أبو مويهبة [1] مولى رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال أرسل [2] إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله في جوف الليل ، فقال : « يا أبا مُوَيهبة ، إني قد أُمِرْتُ أن أستغفرَ لأهل البقيع، فانطلق معي » ، فانطلقت معه ، فلما وقف بين أظهرهم ، قال : « السّلام عليكم يا أهلَ المقابر ، ليهنِ لكم ما أصبحتُم فيه مما أصبح الناس فيه ! أقبلتِ الفِتَن كقِطَع الليل المظلم ، يتبع آخرُها أولَها ، الآخرة شرٌّ من الأولى » . ثم أقبل عليّ ، فقال : « يا أبا مُوَيهبة إني قد أُوتيت [3] مفاتيح خزائن الدُّنيا والخلد فيها والجنة [4] ، خُيِّرتُ بينها وبين الجنّة ، فاخترت الجنّة » ، فقلتُ : بأبي أنتَ وأمّي ! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها والجنّة جميعا ، فقال : « لا يا أبا مويهبة ، اخترت لقاء ربّي » ، ثم استغفر لأهل البقيع وانصرف ، فبدأ بوجعه الذي قبضه الله فيه [5] .

وروى محمدُ بن مسلم بن شهاب الزهريّ ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة ، عن عائشة ، قالت : رجع رسولُ الله صلى الله عليه وآله تلك الليلة من البقيع ، فوجدني وأنا أجدُ صُداعا في رأسي ، وأقول : وارأساه ! فقال : بل أنا وارأساه ! ثم قال : « ما ضرّكِ لو متِّ قبلي ، فقمت عليكِ فكفّنتكِ ، وصلّيت عليكِ ودفنتكِ » ! فقلت : والله لكأني

---

(١) ذكره الطبري ١ : ١٧٨٠ (طبع أوربا) . في موالي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « قيل إنه كان من مولدي مزينة ، فاشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه » .

(٢) الطبري : « بعثني » .
(٣) المصري : « أُتيت » .

(٤) الطبري : « ثم الجنة » .
(٥) تاريخ الطبري ١ : ١٧٩٩ ، ١٨٠٠

بلى لو كانَ ذلك رجعتَ إلى منزلي ، فأعرستَ ببعض نسائك ! فتبسّم عليه السلام ، وتتامّ به وجعُه ، وهو مع ذلك يدور على نسائه ، حتى استُعِزَّ[1] به ؛ وهو في بيت ميمونة ، فدعا نساءه فاستأذنهنّ أن يُمرَّض في بيتي ، فأذنّ له ، فخرج بين رجلين من أهله ، أحدهما الفضْل ابن العبّاس ورجل آخر ، تخطّ قدماه في الأرض ، عاصباً رأسه حتى دخل بيته .

قال عُبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة : فحدّثت عبد الله بن العباس بهذا الحديث ، فقال : أتدري مَن الرجل الآخر ؟ قلت : لا ، قال : عليّ بن أبي طالب ، لكنّها كانتْ لا تقدرُ أن تذكره بخير وهي تستطيع . قالت : ثم غُمِرَ[2] رسول الله صلى الله عليه وآله واشتدّ به الوجع ، فقال : « أهريقوا عليّ سبعَ قِرَب من آبار شتّى حتى أخرج إلى الناس ، فأعهد إليهم » ، قالت : فأقعدناه في مِخْضَب لحفصة بنت عمر ، وصببنا عليه الماء حتى طفق يقول بيده : « حسبُكم حسبكم[3] » .

قلت : المخضب : المِرْكَن[4] .

وروى عطاء ، عن الفضل بن عباس رحمه الله : قال : جاءني رسُول الله صلى الله عليه وآله حين بدأ به مرضُه ، فقال : اخرج ، فخرجت إليه ، فوجدته موعوكاً قد عصب رأسه ، فقال : خذ بيدي ، فأخذت بيده حتى جلس على المنبر ، ثم قال : نادِ في النّاس ، فصِحْتُ فيهم فاجتمعوا إليه ، فقال : « أيّها الناس ، إني أحمد إليكم الله ، إنّه قدْ دَنا منّي حقوق من بين أظهركم ؛ فمنْ كنتُ جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقِدْ منه ، ومَنْ كنت شتمت له عِرْضاً فهذا عِرْضي فليستقدْ منه ، ومن كنت أخذتُ له مالا فهذا مالي فليأخذْ منه ، ولا يقلْ : رجلٌ إني أخاف الشّحناء مِنْ قِبَل رسول الله . ألا وإنّ الشّحناء ليست من طبيعتي ولا من شأني ، ألا وإنّ أحبّكم إليّ مَنْ أخذ منّي حقّا

(١) استُعز به : اشتد عليه وجعه وغلبه على نفسه .
(٢) غمر : اشتد به الوجع
(٣) تاريخ الطبري ١ : ١٨٠٠ ، ١٨٠١ .
(٤) المركن : الإجانة التي تغسل فيها الثياب

إن كان له ، أو حقّني فلقيتُ الله وأنا طيّب النفس ، وقد أرانى أنّ هذا غيرُ مغنٍ عنى حتى أقوم فيكم به مرارا » . ثم نزل فصلّى الظهر . ثم رجعَ فجلس على المنبر ، فعاد لمقالته الأولى فى الشّحناء وغيرها ، فقام رجلٌ ، فقال : يارسولَ الله ، إنّ لى عندك ثلاثة دراهم ، فقال : إنّا لا نُكذّب قائلا ولا نستحلفه على يمين ، فيم كانتْ لك عندى ؟ قال : أتذكّر يارسولَ الله يوم مرّ بك المسكين ، فأمرتنى فأعطيته ثلاثة دراهم ؟ قال : أعطه يافضل ، فأمرتُه فجلس ، ثم قال : « أيها الناس مَنْ كان عنده شىء فليؤدّه ولا يقلْ : فضُوح الدّنيا ؛ فإن فضوح الدنيا أهونُ من فضُوح الآخرة » . فقام رجل فقال : يارسولَ الله ، عندى ثلاثة دراهم غللتُها فى سبيل الله ، قال : ولِمَ غللتَها ؟ قال : كنت محتاجا إليها ، قال : خذْها منه يافضل . ثم قال : « أيها النّاس ، مَنْ خشىَ من نفسه شيئا فليقم أدعو له » ، فقام رجلٌ فقال : يارسولَ الله ، إنى لكذّاب ، وإنى لفاحش ، وإنى لنئوم. فقال : « اللهم ارزقه صِدْقا وصلاحا[1] ، وأذهب عنه النوم إذا أراد » . ثم قام رجل ، فقال : يارسولَ الله ، إنّى لكذّابٌ ، وإنى لمنافق ، وما شىء — أو قال: وإن من شىء — إلا وقد جنيته[2] . فقام عمر بن الخطاب فقال : فضحتَ نفسك أيها الرجل ! فقال النبى صلى الله عليه وآله : « يابنَ الخطّاب : فضُوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة ، اللهم ارزقه صدقا وإيمانا وصيّر أمرَه إلى خير »[3] .

وروى عبد الله بن مسعود ، قال : نعَى إلينا نبيّنا وحبيبُنا نفسَه قبل موته بشهر ، جمعنا فى بيت أمنا عائشة فنظر إلينا [وشدّد][4] ودمعت عينه ، وقال : مرحبا بكم ! حيّاكم الله ، رحمكم الله ، آواكم الله ، حفظكم الله ، رفعكم الله ، نفعكم الله ،

---

(١) الطبرى : « وإيمانا » . (٢) الطبرى : « جنيته » .

(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٠١ — ١٨٠٣ ، وبقية الخبر : « فقال عمر : كلمة ، فضحك رسول الله ، ثم قال : عمر معى وأنا مع عمر ، والحق بعدى مع عمر حيث كان » .

(٤) من تاريخ الطبرى .

وفقكم الله ، رزقكم الله ، هداكم الله ، نصركم الله ، سلمكم الله ، تقبلكم الله ! أوصيكم بتقوى الله ، وأوصى الله بكم ، وأستخلفه عليكم ، إنى لكم منه نذير وبشير ، ألا تعلوا على الله فى عباده وبلاده ، فإنه قال لى ولكم : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [1] . قلنا : يارسول الله ، فمتى أجلك ؟ قال : «قد دنا الفراق ، والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى ، والرفيق الأعلى وجنة المأوى والعيش المهنا» ، قلنا : فمن يغسلك يارسول الله ؟ قال : « أهل الأدنى فالأدنى » ، قلنا : ففيم نكفنك ؟ قال : «فى ثيابى هذه إن شئتم ، أو فى بياض مصر ، أو حلة يمنية » ، قلنا : فمن يصلى عليك ؟ فقال : « إذا غسلتمونى وكفنتمونى فضعونى على سريرى فى بيتى هذا ، على شفير قبرى ، ثم اخرجوا عنى ساعة ، فإن أول من يصلى على جليسى وحبيبى وخليلى جبرئيل ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم ملك الموت مع جنوده من الملائكة ، ثم ادخلوا على فوجا فوجا فصلوا على وسلموا ولا تؤذونى بتزكية ولا صيحة ولا رنة ، وليبدأ بالصلاة على رجال أهل بيتى ثم نساؤهم ، ثم أنتم بعد ، وأقرئوا أنفسكم منى السلام ، ومن غاب من أهلى فأقرئوه منى السلام ، ومن تابعكم بعدى على دينى فأقرئوه منى السلام ، فإنى أشهدكم أنى قد سلمت على من بايعنى على دينى من اليوم إلى يوم القيامة » . قلنا : فمن يدخلك قبرك يارسول الله ؟ قال : «أهلى مع ملائكة كثيرة يرونكم ولا ترونهم» [2] .

قلت : العجب لهم كيف لم يقولوا له فى تلك الساعة : فمن يلى أمورنا بعدك ! لأن ولاية الأمر أهم من السؤال عن الدفن ، وعن كيفية الصلاة عليه ، وما أعلم ما أقول فى هذا المقام !

قال أبو جعفر الطبرى : وروى سعيد بن جبير ، قال : كان ابن عباس رحمه الله يقول :

---

(١) سورة القصص ٨٣ . (٢) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٠٤ — ١٨٠٦ .

يومُ الخميس وما يومُ الخميس ! ثم يبكى حتى تبلّ دموعُه الحصْباء ، فقلنا له : وما يوم الخميس؟ قال : يوم اشتدّ برسول الله صلى الله عليه وآله وجعُه ، فقال : « ائتونى باللّوح والدّواة – أو قال : بالكتِف والدواة – أكتب لكم مالا تضلّون بعدى » ، فتنازعوا ، فقال : اخرجُوا ولا ينبغى عند نبىّ أن يتنازع ، قالوا : ماشأنه ، أهَجَر [1] ؟ استفهموه ، فذهبوا يُعيدون عليه ، فقال : « دعونى فما أنا فيه خير مما تدعوننى إليه » ، ثم ، أوصى بثلاث ؛ قال : « أخرجوا المشركينَ من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفدَ بنحوٍ مما كنت أجيزهم » ، وسكت عن الثالثة عَمْدا ، أو قالها ونسيتها [2] .

وروى أبو جعفر ، عن ابن عباس . قال : خرج علىّ بن أبى طالب عليه السلام من عندِ رسول صلى الله عليه وآله فى وَجَعِه الذى تُوفّىَ فيه ، فقال له الناس : ياأبا الحسن ، كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قال : أصبح بحمد الله بارئا . فأخذ العباس بيده ، وقال : ألا ترَى أنك بعد ثلاث عبدُ العصا ! إنى لأعرف الموت فى وجوه بنى عبد المطلب ، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسَلْه فيمن يكون هذا الأمر ، فإن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان فى غيرنا وصّى بنا ، فقال علىّ : أخشى أن أسأله فيمنعناها فلا يعطيناها الناسُ أبدا [3] .

وروت عائشة قالت : أُغمىَ على رسول الله صلى الله عليه وآله والدّار مملوءةٌ من النّساء : أمّ سلمة ، وميمونة ، وأسماء بنت عُميس ، وعندنا عمّه العبّاس بن عبد المطلب ، فأجمعوا على أن يلدُّوه ، فقال العباس : لا ألدّه ، فلدّوه ، فلما أفاق قال : مَنْ صنع بى هذا ؟ قالوا : عمّك قال لنا : هذا دواء جاءنا من نحو هذه الأرض – وأشار إلى أرض الحبشة – قال : فلم فعلتمْ ذلك ؟ فقال العبّاس : خشينا يارسول الله ، أن يكون بك ذات الجَنب ، فقال : « إنّ ذلك

---

(١) هجر ، أى اختلف كلامه .

(٢) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٠٦ .

(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٠٧ .

الدواء ما كان الله ليقذفني به ، لا يبقى أحدٌ في البيت إلا لُدّ إلا عمّي » . قال : فلقد لُدّت ميمونة وإنها لصائمة لقَسَم رسول الله صلى الله عليه وآله عقوبة لهم بما صنعوا .

قال أبو جعفر : وقد وردت رواية أخرى عن عائشة ، قالت : لَدَدْنا رسولَ الله صلى الله عليه وآله في مرضه ، فقال : لا تلدّوني، فقلنا : كراهية المريض للدواء ؛ فلما أفاق قال : لا يبقى أحدٌ إلا لُدّ غير العبّاس عمّي فإنه لم يشهدكم .

قال أبو جعفر : والّذي تولّى اللَّدُود[1] بيده أسماء بنت عُميس .

قلت : العَجَب من تناقُض هذه الروايات ! في إحداها أن العبّاس لم يشهد اللّدود ، فلذلك أعفاه رسول الله صلى الله عليه وآله من أن يُلَدّ ولُدّ مَنْ كان حاضراً ، وفي إحداها أنّ العبّاس حضر لدّه عليه السلام، وفي هذه الرواية التي تتضمّن حضور العباس في لَدّه كلام مختلف ، فيها أنّ العباس قال : لا ألدّه ، ثم قال : لدّوه فأفاق ، فقال : مَنْ صنع بي هذا ؟ قالوا : عمّك ، إنه قال : هذا دواء جاءنا مِنْ أرض الحبشة لذات الجَنْب ؛ فكيف يقول : لا ألدّه ، ثم يكون هو الذي أشار بأن يلدّ ، وقال : هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة لكذا !

وسألت النّقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد البصريّ عن حديث اللّدود ، فقلت : أَلُدّ عليّ بن أبي طالب ذلك اليوم ؟ فقال : معاذ الله ! لو كان لُدّ لذكرتْ عائشة ذلك فيما تذكره وتنعاه عليه . قال : وقد كانت فاطمة حاضرةً في الدار ، وابناها معها ، أفتراها لُدّت أيضا ، ولدّ الحسنُ والحسين ! كلّا ، وهذا أمر لم يكن ، وإنما هو حديث ولّده مَنْ ولّده تقربا إلى بعض الناس ، والذي كان أنّ أسماء بنت عُميس أشارت بأنْ يُلدّ ، وقالت : هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة جاء به جعفر بن أبي طالب ، وكان بعلها ،

---

(١) اللدود ، بالفتح من الأدوية : مايسقاه المريض في أحد شق الفم .

(٢) تاريخ الطبري ١ : ١٨٠٨ ، ١٨٠٩ .

وساعدتْها على تصويب ذلك والإشارة به ميمونة بنت الحارث، فلُدَّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، فلما أفاق أنكره ، وسأل عنه فذكر له كلام أسماء ، وموافقة ميمونة لها ، فأمر أن تُلَدَّ الامرأتان لا غير ، فلُدَّتا ولم يجرِ غير ذلك . والباطل لا يكاد يخفى على مستبصر .

وروت عائشة ، قالت : كثيراً ما كنتُ أسمع رسول الله يقول : إن الله لم يقبض نبيًّا حتى يخيّره ، فلما احتضر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كان آخر كلمة سمعتُها منه : « بل الرفيق الأعلى » ، فقلت : إذاً والله لا يختارنا ، وعلمتُ أنّ ذلك ما كان يقوله من قبل [(١)] .

وروى الأرقم بن شُرَحبيل ، قال : سألتُ ابنَ عباس رحمه الله : هل أوصى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : لا ، قلت : فكيف كان ؟ فقال : إنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم قال في مرضه : « ابعثوا إلى عليّ فادعوه » ، فقالت عائشة : لو بعثتَ إلى أبي بكر ! وقالت حفصة : لو بعثتَ إلى عمر ! فاجتمعوا عنده جميعاً ـ هكذا لفظ الخبر على ما أورده الطبريّ في التاريخ ، ولم يقل : « فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله إليهما » ـ قال ابن عباس : فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : « انصرفوا ، فإن تكن لي حاجة أبعثْ إليكم » ، فانصرفوا . وقيل لرسول الله : الصلاة ! فقال : « مروا أبا بكر أن يصلّيَ بالناس » ، فقالت عائشة : إنّ أبا بكر رجل رقيق فمر عمر ، فقال . مروا عمر ، فقال عمر : ما كنت لأتقدّم وأبو بكر شاهد ، فتقدّم أبو بكر ، فوجد رسولُ الله صلّى الله عليه وآله خفّة ، فخرج ، فلمّا سمع أبو بكر حركتَهُ تأخّر ، فجذب رسول الله صلى الله عليه وآله ثوبه فأقامه مكانه ، وقعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقرأ من حيث انتهى أبو بكر [(٢)] .

قلت : عندي في هذه الواقعة كلام ، ويعترضني فيها شكوك واشتباه ؛ إذا كان قد

(١) تاريخ الطبري ١ : ١٨١٠ .

(٢) تاريخ الطبري : ١٨١١ ، ١٨١٢ .

أراد أن يبعث إلى علىّ ليوصِىَ إليـه ، فنفِسَتْ عائشة عليـه ، فسألت أن يحضُر أبوها ، ونفّست حفصة عليه فسألت أن يحضر أبوها ، ثم حضرا ولم يُطْلبا ، فلا شبهة أنّ ابنتيهما طلبتاهُما . هذا هو الظاهر ، وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وقد اجتمعوا كلّهم عنده : « انصرفوا فإنْ تـكن لى حاجة بعثت إليـكم » ، قول مَنْ عنده ضَجَر وغضب باطن لحضورهما ، وتُهمة للنّساء فى استدعائهما ، فـكيف يطابق هذا الفعل وهـذا القول ما روِىَ من أنّ عائشة قالت لمـا عيّن على أبيها فى الصلاة : إنّ أبى رجلٌ رقيـق ، فرْ عمر ! وأين ذلك الحرص من هذا الاستعفاء والاستقالة ! وهذا يُوهم صحّة ماتقوله الشّيعة من أنّ صلاة أبى بكر كانت عن أمرِ عائشة ، وإن كنت لا أقول بذلك ، ولا أذهب إليه ، إلا أنّ تأمّل هذا الخبر ولَمْحَ مضمونه يُوهِم ذلك ، فلعلّ هذا الخبر غير صحيح . وأيضا ففى الخبر مالا يجيزه أهلُ العدل ، وهو أن يقول : « مروا أبا بكر » ، ثم يقول عَقيبه : « مروا عمر » ، لأنّ هذا نسخُ الشىء قبل مضىّ وقت فعله .

فإن قلتَ : قد مضى من الزّمان مقدارٌ ما يمكّن الحاضرين فيه أن يأمروا أبا بكر ، وليس فى الخبر إلا أنه أمرهم أن يأمروه ، ويكفى فى صحة ذلك مضىّ زمان يسير جدا يمكن فيه أن يقال : يا أبا بكر صلّ بالناس .

قلتُ : الإشكالُ ماشئ من هذا الأمر ، بل من كون أبى بكر مأموراً بالصلاة ، وإن كان بواسطة ، ثم نُسِخ عنه الأمر بالصلاة قبل مضىّ وقت يمكن فيه أن يفعل الصلاة .

فإن قلتَ : لم قلتَ فى صدر كلامك هذا : إنه أراد أن يبعث إلى علىّ ليوصِىَ إليه ؟ ولم لا يجوز أن يكون بعث إليه لحاجة له ؟

قلت : لأنّ مخرج كلام ابن عباس هـذا المخرج ، ألا ترى أنّ الأرقم بن شُرحبيل الراوى لهذا الخبر قال : سألتُ ابن عباس : هلْ أوصَى رسولُ الله صلّى الله عليـه وآله ؟ فقال : لا ، فقلت : فـكيف كان ؟ فقال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال فى مرضه :

«ابعثوا إلى علىّ فادعُوه» ، فسألته المرأة أن يبعث إلى أبيها ، وسألته الأخرى أن يبعث إلى أبيها ، فلولا أنّ ابنَ عباس فَهِم من قوله صلى الله عليه وآله : «ابعثوا إلى علىّ فادعوه» أنه يريد الوصيّة إليه ، لما كان لإخبار الأرقم بذلك متصلا بسؤاله عن الوصية معنى .

وروى القاسم بن محمد بن أبى بكر ، عن عائشة ، قالت : رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يموت وعنده قَدَحٌ فيه ماء يُدخل يده فى القدَح ثم يمسح وجهه بالماء ، ويقول : « اللهم أعنّى على سَكْرة الموت »[1] .

وروى عُروة عن عائشة ، قالت : اضطجع رسولُ الله صلى الله عليه وآله يوم موته فى حِجْرى ، فدخل علىّ رجلٌ من آل أبى بكر ، فى يده سواكٌ أخضر ، فنظر رسولُ الله صلى الله عليه وآله إليه نظراً عرفت أنه يريده ، فقلت له : أتحبّ أن أعطيك هذا السواك ؟ قال : نعم ، فأخذته فمضغتُه حتى ألنته ثم أعطيته إياه ، فاستنّ به كأشدّ ما رأيته يستنّ بسواك قبله ، ثم وضعه ، ووجدتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يثقُل فى حِجْرى،فذهبت أنظر فى وجهه ، فإذا بصرُه قد شخص ، وهو يقول : «بل الرفيق الأعلى من الجنة» ! فقلت : لقد خُيِّرتَ فاخترت والذى بعثك بالحقّ ! وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] .

قال الطّبرىّ : وقد وقع الاتّفاق على أنه كان يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ، واختلف فى أىّ الأثانين كان ؟ فقيل : لليلتين خلَتا من الشهر ، وقيل : لاثنتىْ عشرة[3] خَلَتْ من الشهر . واختلف فى تجهيزه أىّ يوم كان ! فقيل: يوم الثلاثاء الغد من وفاته ، وقيل : إنما دفن بعد وفاته بثلاثة أيام ، اشتغل القوم عنه بأمر البيعة .

وقد روى الطبرىّ مايدلّ عَلَى ذلك عن زياد بن كُلَيب ، عن إبراهيم النَّخَعِىّ أنّ

---

(١) تاريخ الطبرى ١ : ١٨١٢ .
(٢) تاريخ الطبرى ١ : ١٨١٤
(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٨١٥ .

أبا بكرٍ جاء بعد ثلاث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد اربدّ بطنُه ، فكشف عن وجهه ، وقبّل عينيه ، وقال : بأبي أنت وأمّي ! طبت حيًّا وطبت ميّتا[1] !

قلت : وأنا أعجبُ من هذا ! هبْ أنّ أبا بكر ومَنْ معه اشتغلوا بأمر البيعة ، فعليّ بن أبي طالب والعبّاس وأهل البيت بماذا اشتغلُوا حتى يبقَى النبيّ صلى الله عليه وآله مسجًّى بينهم ثلاثة أيامٍ بلياليهنّ لا يغسلونه ولا يمسّونه !

فإن قلت : الرواية الّتي رواها الطبريّ في حديث الأيام الثلاثة ، إنّما كانت قبل البيعة ؛ لأن لفظ الخبر عن إبراهيم ، وأنّه لما قبض النبيّ صلى الله عليه وآله كان أبو بكر غائبًا فجاء بعد ثلاث ، ولم يجترئ أحدٌ أن يكشفَ عن وجهه عليه السلام حتى اربدّ بطنه ، فكشف عن وجهه وقبّل عينيه ، وقال : بأبي أنت وأمّي ! طبت حيًّا وطبت ميّتا ، ثم خرج إلى الناس ، فقال : مَنْ كان يعبدُ محمداً فإنّ محمدا قد مات ... الحديث بطوله .

قلت : لعمري ، إنّ الرواية هكذا أوردها ، ولكنها مستحيلة ، لأن أبا بكرٍ فارق رسولَ الله صلى الله عليه وآله وهو حيّ ، ومضى إلى منزله بالسُّنْح في يوم الاثنين ، وهو اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنّه رآه بارئا صالح الحال . هكذا روى الطبريّ في كتابه ، وبين السُّنْح وبين المدينة نصف فرسخ ، بل هو طائفة من المدينة ، فكيف يبقَى رسولُ الله صلى الله عليه وآله ميّتًا يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء لا يعلم به أبو بكر ، وبينهما غَلْوة ثلاثة أسهم ! وكيف يبقى طريحًا بين أهله ثلاثة أيام لا يجترئ أحدٌ منهم أنْ يكشف عن وجهه ، وفيهم عليّ بن أبي طالب وهو رُوحه بين جنبيه ، والعبّاس عمّه القائم مقام أبيه ، وابنا فاطمة ، وهما كولديه ، وفيهم فاطمة بَضْعة منه ، أفما كان في هؤلاء مَنْ يكشف عن وجهه ، ولا مَنْ يفكّر في جهازه ، ولا مَنْ يأنف له من

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ١٨١٧ .

انتفاخ بطنه واخضرارها ويخطر بذلك حضورَ أبي بكر ليكشفَ عن وجهه !

أنا لا أصدّق ذلك ، ولا يسكنُ قلبي إليه . والصحيح أنّ دخول أبي بكر إليه وكشفه عن وجهه ، وقوله ما قال ، إنما كان بعد الفراغ من البيعة ، وأنهم كانوا مشتغلين بها كما ذكر في الرواية الأخرى .

وبقي الإشكال في قعود عليّ عليه السلام عن تجهيزه ، إذا كان أولئك مشتغلين بالبيعة ، فما الذي شغله هو ؟

فأقول : يغلب على ظني - إنْ صحّ ذلك - أن يكون قد فعله شناعة على أبي بكر وأصحابه ، حيث فاته الأمر ، واستُؤثر عليه به ، فأراد أن يتركه صلى الله عليه وآله بحاله لا يحدث في جهازه أمراً ليثبت عند الناس أنّ الدنيا شغلتهم عن نبيّهم ثلاثة أيام ، حتى آل أمره إلى ما ترون ؛ وقد كان عليه السلام يتطلّب الحيلة في تهجين أمر أبي بكر حيث وقع في السقيفة ما وقع بكلّ طريق ، ويتعلّق بأدنى سبب من أمورٍ كان يعتمدها ، وأقوالٍ كان يقولها ، فلعلّ هذا من جُملة ذلك ، أو لعلّه إن صحّ ذلك ، [1] فإنما تركه صلى الله عليه وآله بوصيّة منه إليه وسرٍّ كانا يعلمانه في ذلك .

فإن قلت : فلم لا يجوز أن يقال - إنْ صحّ ذلك : إنه [1] أخّر جهازه ليجتمع رأيه ورأي المهاجرين على كيفيّة غسله وتكفينه ، ونحو ذلك من أموره ؟

قلت : لأنّ الرواية الأولى تبطل هذا الاحتمال ، وهي قوله صلى الله عليه وآله لهم قبل موته : « يغسلني أهل الأدنى منهم فالأدنى ، وأكفّن في ثيابي أو في بياض مصر أو في حلّة يمنيّة » .

قال أبو جعفر : فأمّا الذين تولوا غَسْله فعليّ بن أبي طالب ، والعبّاس بن عبد المطلب ، والفضل بن العباس ، وقُثَم بن العبّاس ، وأسامة بن زيد ، وشُقْران مولى رسول الله صلى الله

(١-١) ساقط من ب ، وأثبته من ا

عليه وآله ، وحضر أوس بن خولىّ أحد الخزرج ، فقال لعلىّ بن أبي طالب : أنشدك الله ياعلىّ وحظّنا من رسول الله ! وكان أوس من أصحاب بدر ، فقال له : ادخل، فدخل فحضر غسله عليه الصلاة والسلام ، وصبّ الماء عليه أسامة وشُقران ، وكان علىّ عليه السلام يغسله وقد أسنده إلى صدره ، وعليه قيصُه يدلُكه من ورائه ، لا يفضِى بيده إلى بدن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان العباس وابناه الفضل وقُثَم يساعدونه على قَلْبه من جانب إلى جانب [1].

قال أبو جعفر : وروت عائشة أنّهم اختلفوا فى غَسْله: هل يجرّد [2] أم لا ؟ فألقى الله عليهم السِّنة حتى مامنهم رجل إلّا وذقنه على صدره ، ثم كلّمهم متكلّم من ناحية البيت لا يدرَى مَنْ هو : غسّلوا النبىّ وعليه ثيابه . فقاموا إليه فغسلوه ، وعليه قيصه فكانت عائشة تقول : لو استقبلت من أمرى ما استدبرتُ ماغسله إلا نساؤه [3].

قلت : حضرتُ عند محمد بن معد العلوى فى داره ببغداد ، وعنده حسن بن معالى الحِلّى المعروف بابن الباقلاوىّ وهما يقرآن هذا الخبر ، وهذه الأحاديث من تاريخ الطبرى ، فقال محمد بن معدّ لحسن بن معالى : ماتراها قصدَتْ بهذا القول ؟ قال : حسدت أباك على ما كان يفتخر به من غَسْل رسول الله صلّى الله عليه وآله ! فضحك محمد ، فقال : هبْها استطاعت أن تزاحمه فى الغسل ، هل تستطيع أن تزاحمه فى غيره من خصائصه !

قال أبو جعفر الطبرىّ : ثم كُفّن عليه الصلاة والسلام فى ثلاثة أثواب : ثوبين صُحاريّين [4] وبُرْد حبرة [5] . أدرج [6] فيهما إدراجاً ، ولُحد له على عادة أهل المدينة ، فلمّا فرغوا منه وضعوه على سريره [7].

* * *

(١) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٠ ، ١٨٣٣ .
(٢) الطبرى : « أنجرد » .
(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣١ .
(٤) صحاريان : منسوبان إلى صحار ، قرية باليمن.
(٥) حبرة بوزن عنبة ، أى مخطط ، وهو برد يمان أيضا على الوصف أو الإضافه
(٦) أى لفّ فيه .
(٧) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣١ .

واختلفوا فى دَفْنه ، فقال قائل : ندفنه فى مسجده ، وقال قائل : ندفنه فى البقيع مع أصحابه ، وقال أبو بكر : سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول : «ماقُبِض نبىٌّ إلا ودُفن حيث قُبِض» ، فرفع فراش رسول الله الذى تُوفِّىَ فيه ، فحفِرَ له تحته .

قلت : كيف اختلفوا فى موضع دفنه ، وقد قال لهم : «فضعونى على سريرى فى بيتى هذا ، على شفير قبرى» ، وهذا تصريح بأنّه يُدفن فى البيت الذى جمعهم فيه ، وهو بيت عائشة ؛ فإمّا أن يكونَ ذلك الخبر غيرَ صحيح ، أو يكون الحديث الذى تضمّن أنّهم اختلفوا فى موضع دفنه ، وأنّ أبا بكر رَوَى لهم أنه قال : «الأنبياء يدفنون حيث يموتون» غيرَ صحيح ، لأنّ الجمع بين هذين الخبرين لا يمكن .

وأيضاً ، فهذا الخبر ينافى ماوَرَد فى موت جماعةٍ من الأنبياء نُقِلوا من موضع موتهم إلى مواضع أُخَر ، وقد ذكر الطّبرىّ بعضهم فى أخبار أنبياء بنى إسرائيل .

وأيضاً فلو صحّ هذا الخبر لم يكن مقتضياً إيجاب دفن النبىّ صلّى الله عليه وآله حيث قُبِض ، لأنّه ليس بأمرٍ بل هو إخبار محض ، اللهمّ إلا أن يكونوا فهمُوا من مخرج لفظه عليه السلام ومن مقصده أنّه أراد الوصيّة لهم بذلك ، والأمر بدفنه حيث يقبض .

قال أبو جعفر : ثم دخل[1] النّاس فصلّوا عليه أرسالاً ، حتى إذا فرغ الرّجال أدخل النساء ، حتى إذا فرغ النّساء أدخل الصبيان ، ثم أدخِل العبيد ، ولم يؤمّهم[2] إمام ، ثم دفن عليه السلام وَسَط الّليل من ليلة الأربعاء[3] .

قال أبو جعفر : وقد روت عَمْرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زُرارة ، عن عائشة قالت : ما علمْنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلّم حتى سمعنا صوت المساحى فى جَوْف الليل ، ليلةَ الأربعاء[4] .

(١) الطبرى : « ودخل » .
(٢) الطبرى : « ولم يؤم الناس » .
(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٢ .
(٤) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٣

قلت : وهـذا أيضا من العجائب ، لأنه إذا مات يوم الاثنين وقتَ ارتفاع الضُّحَى – كما ذكر فى الرواية – ودفن ليلة الأربعاء وسَط الليل ، فلم يمض عليه ثلاثة أيام كما ورد فى تلك الرواية .

وأيضا فمن العجَب كون عائشة، وهو فى بيتها لاتعلم بدفنه حتى سمعتْ صوتَ المساحى، أتراها أين كانت ! وقد سألتُ عن هـذا جماعة ، فقالوا : لعلّها كانت فى بيت يجاور بيتها عندها نساء كما جرت عادة أهل الميّت ؛ وتكون قد اعتزلت بيتَها وسكنت ذلك البيت ، لأنّ بيتَها مملوء بالرجال من أهل رسول الله صلى الله عليه وآله وغيرهم من الصحابة ، وهذا قريب ، ويحتمل أن يكون .

قال الطبرىّ : ونزل فى قبر رسول الله صلى الله عليـه وآله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، والفضل بن عباس ، وقُثَم أخوه ، وشُقْران مولاهم . وقال أوس بن خولىّ لعلى عليه السلام : أنشدُك الله ياعلىّ وحظّنا من رسول الله صلى الله عليه وآله ! فقال له : انزل ، فنزل مع القوم ، وأخذ شُقْران قَطيفة كان رسول الله صلى الله عليه وآله يلبسها ، فقذفها معه فى القبر ، وقال : لا يلبَسُها أحد بعده [1] .

قلت : مَنْ تأمّل هذه الأخبار ، علم أنّ عليا عليه السلام كان الأصل والجملة والتفصيل فى أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وجهازه ، ألا ترى أنّ أوسَ بن خولىّ لا يخاطب أحداً من الجماعة غيرَه ، ولا يسأل غيره فى حضور الغسل والنّزول فى القبر ! ثم انظر إلى كرم علىّ عليه السلام وسَجاحة أخلاقه وطهارة شيمته ، كيف لم يضنّ بمثل هذه المقامات الشريفة عن أوس ؛ وهو رجل غريب من الأنصار ، فعرف له حقّه وأطلبه [2] بما طلبه ! فكم بين هذه السجيّة الشريفة ، وبين قول مَنْ قال : لو استقبلتُ من أمرى ما استدبرت

(١) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٣ .

(٢) أطلبه : أجابه إلى ما طلب .

ما غسل رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلّا سوءه ! ولو كان فى ذلك المقام غيره من أولى الطباع الخشنة ، وأرباب الفظاظة والفظة ، وقد سأل أوس ذلك ـ لزجر وانتهر ورجع خائباً !

قال الطبرى : وكان المغيرة بن شعبة يدّعى أنّه أحدثُ النّاس عهداً برسول الله صلى الله عليه وآله ، ويقول للناس : إنى أخذت خاتمى فألقيته فى القبر ، وقلت : إنّ خاتمى قد سقط منّى ، وإنّما طرحته عمداً ؛ لأمسّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأكون آخر الناس به عهدا [١] .

قال الطبرى : وروى عبد الله بن الحارث بن نوفل ، قال : اعتمرتُ مع علىّ بن أبى طالب عليه السلام فى زمان عمر ـ أو عثمان ـ فنزل على أخته أمّ هانئ بنت أبى طالب ، فلمّا فرغ من عُمرته رجع وقد سكب له غسل ، فلما فرغ من غسله دخل عليه نفرٌ من أهل العراق ، فقالوا : يا أبا الحسن ، جئناك نسألك عن أمر نحبّ أن تخبرنا به ! فقال : أظنّ المغيرة يحدّثكم أنّه أحدثُ الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وآله ! قالوا : أجل ، عن ذا جئنا نسألك ! قال : كذب ! أحدثُ النّاس عهداً برسول الله صلى الله عليه وآله قُثَم بن العباس ، كان آخر ما خروجاً من قبره [٢] .

قلت : بحقّ ما عاب أصحابنا رحمهم الله المغيرة وذمّوه وانتقصوه ! فإنه كان على طريقة غير محمودة ، وأبى الله إلّا أن يكونَ كاذباً على كلّ حال ، لأنّه إن لم يكن أحدثهم بالنبىّ عهداً ، فقد كذب فى دعواه أنّه أحدثهم به عهداً ، وإن كان أحدثهم به عهداً كما يزعم فقد اعترف بأنّه كذب فى قوله لهم : « سقط خاتمى منّى » ؛ وإنما ألقاه عمداً ، وأين المغيرةُ ورسول الله صلى الله عليه وآله ليدّعى القرب منه ، وأنّه أحدث الناس عهدا به !

(١) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٣ . (٢) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٣ ، ١٨٣٤ .

موقد علم الله تعالى والمسلمون أنه لولا الحدَثُ الذى أحدث ، والقوم الذين صحبهم فقتلهم غَدْراً ، واتخذ أموالهم ؛ ثم التجأ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ليعصِمَه لم يُسلِم ، ولا وطئ حصا للدية .

* * *

قال الطبرى : وقد اختلف فى سن رسول الله صلى الله عليه وآله، فالأكثرون أنه كان ابنَ ثلاث وستين سنة ، وقال قوم . ابن خمس وستين سنة ، وقال قوم : ابن ستين .

فهذا ما ذكره الطبرى فى تاريخه (١) .

وروى محمد بن حبيب فى " أماليه " قال : تولّى غسل النبىّ صلى الله عليه وآله على عليه السلام والعباس رضى الله عنه .

وكان علىّ عليه السلام يقول بعد ذلك : ما شممت أطيبَ من ريحه ، ولا رأيت أضوأ من وجهه حينئذ ، ولم أره يعتاد فاه ما يعتاد أفواه الموتى .

قال محمد بن حبيب : فلمّا كشف الإزار عن وجهه بعد غَسْله انحنى عليه فقبّله مرارا ؛ وبكى طويلا : وقال بأبى أنت وأمى ! طبت حيا وطبت ميتًا ! انقطع بموتك مالم ينقطِعْ بموت أحد سواك من النبوّة والأنباء وأخبار السماء ! خصّصت حتى صرت مسلّيا عن سواك ؛ وعمّمت حتى صارت المصيبة فيك سواء ! ولولا أنك أمرت بالصبر ، ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشئون ؛ ولكن أتى مالا يُدفَع ! أشكو إليك كمداً وإدبارا مخالفين وداء الفتنة ، فإنها قد استعرت نارها وداؤها الداء الأعظم ! بأبى أنت وأمى اذكرنا عند ربّك ، واجعلنا من بالك وهمّك !

ثم نظر إلى قَذَاة فى عينه فلفظها بلسانه ، ثم ردّ الإزار على وجهه .

---

(١) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٤ ، ١٨٣٥ .

وقد روى كثير من الناس ندبة فاطمة عليها السلام أباها يوم موته وبعد ذلك اليوم ، وهي ألفاظ معدودة مشهورة ، منها: «يا أبتاه ! جنة الخلد مثواه ، يا أبتا ! عند ذى العرش مأواه ! يا أبتاه ! كان جبرائيل يغشاه ! يا أبتاه لست بعد اليوم أراه ! ».

ومن الناس من يذكر أنها كانت تشوب هذه الندبة بنوع من التظلم والتألم لأمر يغلبها . والله أعلم بصحة ذلك .

والشيعة تروى أن قوماً من الصحابة أنكروا بكاءها الطويل، ونهوها عنه ، وأمروها بالتنحى عن مجاورة المسجد إلى طرف من أطرف المدينة .

وأنا أستبعد ذلك ، والحديث يدخله الزيادة والنقصان ، ويتطرق إليه التحريف والافتعال ، ولا أقول أنا فى أعلام المهاجرين إلا خيراً !

(٢٣١)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاظِرُ ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ ؛ الدَّالِّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وُجُودِهِ ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ .

الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ ، وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ ، مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ ، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ .

وَاحِدٌ لَا بِعَدَدٍ ، وَدَائِمٌ لَا بِأَمَدٍ ، وَقَائِمٌ لَا بِعَمَدٍ .

تَتَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ لَا بِمُشَاعَرَةٍ ، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي لَا بِمُحَاضَرَةٍ . لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهَامُ ، بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا . وَبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا ، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا .

لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ امْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً ، وَلَا بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيدًا ، بَلْ كَبُرَ شَأْنًا وَعَظُمَ سُلْطَانًا .

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ ، وَأَمِينُهُ الرَّضِيُّ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ ، وَظُهُورِ الْفَلَجِ ، وَإِيضَاحِ الْمَنْهَجِ ؛ فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ صَادِعًا بِهَا ، وَحَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دَالًّا عَلَيْهَا ، وَأَقَامَ أَعْلَامَ الِاهْتِدَاءِ ، وَمَنَارَ الضِّيَاءِ ، وَجَعَلَ أَمْرَاسَ الْإِسْلَامِ مَتِينَةً ، وَعُرَا الْإِيمَانِ وَثِيقَةً .

* * *

الشرح

الشواهد هاهنا ، يريد بها الحواس ، وسمّاها «شواهد» إما لحضورها ؛ شهد فلان كذا أى حضره ، أو لأنها تشهد على ماتدركه وتثبته عند العقل ، كما يشهد الشاهد بالشئ ويثبته عند الحاكم .

والمشاهد هاهنا : المجالس والنوادى ، يقال : حضرت مشهد بنى فلان ، أى ناديهم ومجتمعهم .

ثم فسّر اللفظة الأولى وأبان عن مراده بها بقوله : « ولا تراه النواظر » ،وفسّر اللفظة الثانية وأبان عن مرادها ، فقال : « ولا تحجبه السواتر » .

ثم قال : «الدّال على قِدَمه بحدُوث خلقه ، وبحدوث خلقه على وجوده» ؛هذا مشكل، لأن لقائلٍ أن يقول : إذا دلّ على قِدَمه بحدوث خلقه ، فقد دخل فى جملة المدلول كونُه موجوداً ، لأنّ القديم هو الموجود ولم يزل ، فأىّ حاجة إلى أن يعود فيقول : وبحدوث خَلْقِه على وجوده !

والمجيب أن يجيب على طريقة شيوخنا أصحاب أبى هاشم ، فيقول : لا يلزم من الاستدلال بحدوث الأجسام على أنّه لا بدّ من محدِث قديم كونه موجودا ؛ لأنّ عندهم أنّ الذات المعدومة قد تتّصف بصفات ذاتيّة ، وهى معدومة ، فلا يلزم من كون صانع العالم عندهم عالماً قادرا حيًّا أن يكون موجوداً ، بل لا بدّ من دلالة زائدة ، على أنّ له صفة الوجود وهى والدلالة التى يذكرونها ، من أنّ كونه قادرا عالماً تقتضى تعلّقه بالمقدور والمعلوم ، وكل ذاتٍ متعلقة ، فإن عدمها يخرجها عن التعلّق كالإرادة ، فلو كان تعالى معدوماً لم يجز أن يكون متعلقا ، فحدوث الأجسام إذاً قد دلّ على أمرين من وجهين مختلفين :

أحدهما أنّه لا بدّ من صانع له ، وهذا هو المعنىُّ بقدمه .

والثانى أنّ هذا الصانع له صفة ، لأجلها يصحّ على ذاته أن تكون قادرة عالمة ، وهذا هو المعنىّ بوجوده .

فإن قلت : أيقول أصحابُ شيخكم أبى هاشم إنّ الذات المعدومة التى لا أوّل لها تسمّى قديمة ؟

قلت : لا ، والبحث فى هذا بحث فى اللفظ لا فى المعنى .

والمراد بقوله عليه السلام : « الدالّ بحدوث الأشياء على قدمه » ، أى على كونه ذاتاً لم يجعلها جاعل ، وليس المراد بالقدم هاهنا الوجود لم يزل ، بل مجرد الذاتيّة لم يزل .

ثم يستدلّ بعد ذلك بحدوث الأشياء على أنّ له صفة أخرى لم تزل زائدة على مجرّد الذاتيّة ، وتلك الصفة هى وجوده ، فقد اتّضح المراد الآن .

فإن قلت : فهل لهذا الكلام مساغٌ على مذهب البغداديين ؟ قلت : نعم ، إذا حمل على منهج التأويل بأن يريد بقوله : « وبحدوث خلقه على وجوده » ، أى على صحّة إيجاده له فيما بعد ، أى إعادته بعد العدَم يوم القيامة ، لأنه إذا صحّ منه تعالى إحداثه ابتداء صحّ منه إيجاده ثانيا على وجه الإعادة ، لأنّ الماهيّة قابلة للوجود والعدم ، والقادر قادرٌ لذاته ، فأمّا من روى بحدوث خلقه على جوده ، فإنه قد سقطت عنه هذه الكلف كلّها . والمعنى على هذا ظاهر لأنه تعالى دلّ المكلفين بحدوث خلقه على أنه جواد منعم ، ومذهب أكثر المتكلّمين أنه خلق العالم جوداً وإنعاما وإحسانا إليهم .

قوله عليه السلام : « وباشتباههم على أن لا شبه له » هذا دليل صحيح ، وذلك لأنّه إذا ثبت أن جسماما محدَث ، ثبت أنّ سائر الأجسام محدَثة ؛ لأن الأجسام متماثلة ، وكلّ ماصحّ على الشئ صحّ على مثله ، وكذلك إذا ثبت أنّ سواداً ما أو بياضاً مّا محدَث ، ثبت أن سائر السوادات والبياضات محدثة ، لأن حكم الشيء حكم مثله ، والسّواد فى معنى

كونه سوادا غير مختلف ، وكذلك البياض ، فصارت الدلالة هكذا القوات التي حددناها يشبه بعضها بعضاً ، وهي محدثة ؛ فلو كان البارى سبحانه يشبه شيئاً منها لكان مثلها ، ولكان محدثا لأن حكم الشيء حكم مثله ، لكنه تعالى ليس بمحدث ، فليس بمشابه لشيء منها ، فقد صح إذاً قوله عليه السلام : « وباشتباههم على أن لا شبه له » .

قوله عليه السلام : « الذى صدق فى ميعاده » ، لا يجوز ألا يصدق ، لأن الكذب قبيح عقلا ، والبارى تعالى يستحيل منه من جهة الداعى والصارف أن يفعل القبيح .

قوله عليه السلام : « وارتفع من ظلم عباده » ، هذا هو مذهب أصحابنا المعتزلة ، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أخذوه ؛ وهو أستاذهم وشيخهم فى العدل والتوحيد ، فأما الأشعرية ، فإنها وإن كانت تمتنع عن إطلاق القول بأن الله تعالى يظلم العباد إلا أنها تعطى للمعنى فى الحقيقة ؛ لأن الله عندهم يكلف العباد مالا يطيقونه ، بل هو سبحانه عندهم لا يكلفهم إلا مالا يطيقونه ، بل هو سبحانه عندهم لا يقدر على أن يكلفهم مايطيقونه ، وذلك لأن القدرة عندهم مع الفعل ، فالقاعد غير قادر على القيام ، وإنما يكون قادراً على القيام عند حصول القيام ، ويستحيل عندهم أن يوصف البارى تعالى بإقدار العبد القاعد على القيام ، وهو مع ذلك مكلف له أن يقوم ، وهذا غاية مايكون من الظلم سواء أطلقوا هذه اللفظة عليه أو لم يطلقوها .

ثم أعاد الكلام الأول فى التوحيد تأكيدا ، فقال : حدوث الأشياء دليل على قدمه ، وكونها عاجزة عن كثير من الأفعال دليل على قدرته ، وكونها فانية دليل على بقائه .

فإن قلت : أما الاستدلال بحدوث الأشياء على قدمه فملوم ، فكيف يكون الاستدلال على الأمرين الأخيرين !

قلت : إذا شاركه سبحانه بعض الموجودات فى كونه موجودا ، وافترقا فى أنّ أحدهما لا يصح منه فعل الجسم ، ولا السكون ، ولا الحياة ، ولا الوجود المحدَث — ويصحّ ذلك من الموجودات القديمة — دلّ على افتراقهما فى أمرٍ لأجله صحّ من القديم ذلك ، وتعذّر ذلك على المحدَث ، وذلك الأمر هو الذى يسمّى من كان عليه قادرا ، وينبغى أن تحمل لفظة «العجز» هاهنا على المفهوم اللغوىّ ، وهو تعذّر الإيجاد ، لا على المفهوم الكلامىّ .

وأما الاستدلال الثانى ، فينبغى أن يحمل الفناء هاهنا على المفهوم اللغوىّ ، وهو تغير الصفات وزوالها ، لا على المفهوم الكلامىّ ، فيصير تقدير الكلام : لمّا كانت الأشياء التى نراها تتغيّر وتتحوّل وتنتقل من حالٍ إلى حال ، وعلمنا أنّ العلّة المصحّحة لذلك كونها محدثة ، علمنا أنّه سبحانه لا يصحّ عليه التنقّل والتغيّر ، لأنه ليس بمحدَث .

ثم قال : « واحد لا بعددٍ » لأنّ وحدته ذاتية ، وليست صفة زائدة عليه ، وهذا من الأبحاث الدقيقة فى علم الحكمة ، وليس هذا الكتاب موضوعا لبسط القول فى أمثاله .

ثم قال : « دائم لا بأمَد » ، لأنه تعالى ليس زمانيّ ولا داخل تحت الحركة والزمان ، وهذا أيضاً من دقائق العلم الإلهىّ ، والعرب دون أن تفهم هذا أو تنطق به ، ولكن هذا الرجل كان ممنوحاً من الله تعالى بالفيض المقدّس والأنوار الربانية .

ثم قال : « قائم لا بعمد » ، لأنّه لمّا كان فى الشاهد كلّ قائم فله عماد يعتمد عليه ، أبان عليه السلام تنزيهه تعالى عن المكان ، وعمّا يتوهمه الجهلاء من أنه مستقرّ على عرشه بهذه اللفظة . ومعنى القائم هاهنا ليس ما يسبق إلى الذهن من أنه المنتصب؟ بل ما تفهمه من قولك : فلان قائم بتدبير البلد ، وقائم بالقسط .

ثم قال : « تتلقاه الأذهان لا بمشاعرة » ، أى تتلقاه تلقياً عقليا ، ليس كما يتلقى الجسم الجسمَ بمشاعره وحواسّه وجوارحه ، وذلك لأن تعقّل الأشياء وهو حصول صورها

فى العقل بريئة من المادة ، والمراد بتلقّيه سبحانه ههنا تلقى صفاته ، لا تلقى ذاته تعالى ، لأنّ ذاته تعالى لا تتصوّرها العقول ، وسيأتى إيضاح أنّ هذا مذهبه عليه السلام .

ثم قال : « وتشهد له المرائى لا بمُحاضرة » ، المرائى : جمع مرئىّ ، وهو الشىء المدرَك بالبصر ، يقول : المرئيّات تشهدُ بوجود البارى ، لأنه لولا وجوده لما وُجدت ، ولو لم توجد لم تكن مرئيّات ، وهى شاهدة بوجوده لا كشهادتها بوجود الأبصار ، لأنّها شهدت بوجود الأبصار لحضورها فيها . وأمّا شهادتها بوجود البارى فليستْ بهذه الطريق ، بل بما ذكرناه . والأولى أن يكون «المرائى» هاهنا جمع «مَرْآة» بفتح الميم ، من قولهم : هو حسن فى مَرْآة عينى ، يقول : إنّ جنس الرؤية يشهد بوجود البارى من غير محاضرة منه للحواس .

قوله عليه السلام : « لم تُحط به الأوهام » إلى قوله عليه السلام « وإليها حاكمها » ، هذا الكلام دقيق ولطيف ، والأوهام هاهنا هى العقول ، يقول : إنّه سبحانه لم تحط به العقول ، أى لم تتصور كُنهَ ذاته ، ولكنه تجلّى للعقول بالعقول ، وتجلّيه هاهنا هو كشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من صفاته الإضافية والسلبيّة لا غير ، وكشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من أسرار مخلوقاته ؛ فأمّا غير ذلك فلا ؛ وذلك لأنّ البحث النظرىّ قد دلّ على أنّا لم نعلم منه سبحانه إلا الإضافة والسلب ، أما الإضافة فكقولنا : عالم قادر ، وأمّا السّلب فكقولنا : ليس بجسم ولا عرَض ولا يُرى ، فأمّا حقيقة الذات المقدسة المخصوصة من حيث هى هى ، فإنّ العقل لا يتصوّرها ، وهذا مذهب الحكماء وبعض المتكلّمين من أصحابنا ومن غيرهم .

ثم قال : « وبالعقول امتنع من العقول » ، أى وبالعقول وبالنظر ، علمنا أنه تعالى يمتنع أن تدركه العقول .

ثم قال : « وإلى العقول حاكمَ العقول » ، أى جعل العقول المدعية أنّها أحاطت

به وأدركته كالخصم له سبحانه ، ثم حاكمها إلى العقول السليمة الصحيحة النظر ، فحكمت له سبحانه على العقول المدّعية لما ليست أهلاً له .

واعلم أنّ القول بالحيرة فى جلال ذات البارى والوقوف عند حدّ محدود لا يتجاوزه العقل قولٌ مازال فضلاء العقلاء قائلين به .

* * *

[من أشعار الشارح فى المناجاة]

ومن شعرى الذى أسلك فيه مسلك المناجاة عند خلواتى وانقطاعى بالقلب إليه سبحانه قولى :

والله لا موسى ولا عيـ ـسى المسيحُ ولا محمّدْ
علِمُوا ولا جـبريل وهْـ ـو إلى محلّ القدس يصعَدْ
كلاّ ولا النفس البسيـ ـطة ، لا ولا العقل المجرّدْ
من كُنْه ذاتك غير أنـ ـك واحديّ الذات سرمَدْ
وَجَدُوا إضافاتٍ وسلْـ ـباً والحقيقة ليس توجَدْ
ورأوا وجوداً واجبـاً يَفْنَى الزّمان وليس ينفَدْ
فلتخسإِ الحُكماء عَنْ جِرْمٍ له الأفلاك تَسْجُدْ
مَنْ أنت يارِسْطو ومَنْ أفلاطُ قبلك يامبلّدْ !
ومَن ابنُ سينا حين قرّر ما بيت له وشيّـدْ
هل أنتمُ إلا الفَرا ش رأى الشّهابَ وقد توقّدْ
فدنا فأحرق نفسَهُ ولو اهتدى رُشْداً لأبعَدْ

* * *

ومما قلته أيضا فى قصور العقل عن معرفته سبحانه وتعالى :

فيكَ يا أعجوبةَ الكونِ غدا الفكرُ كليلَا
أنت حيّرتَ ذوى اللُّبِّ وبلبلتَ العقولَا
كلّما أقدم فِكْرِى فيك شبراً فرّ ميلا
ناكصاً يخبط فى عَمْياءَ لا يُهدَى السَّبيلا

• • •

ولى فى هذا المعنى :

فيك يا أغلوطةَ الفكرِ تاه عقلِى وانقضى عُمُرِى
سافرتْ فيك العقولُ فما رَبحتْ إلا أذَى السَّفرِ
رجعتْ حَسْرَى وما وقفتْ لا على عينٍ ولا أثرِ
فلحَى اللهُ الأُلَى زعموا أنّك المعلومُ بالنَّظرِ
كذبوا إنّ الذِى طلبُوا خارجٌ عن قوّةِ البَشَرِ

• • •

وقلت أيضا فى المعنى :

أفنيت خمسين عاما معمِلًا نظرِى فيه ؛ فلم أدرِ ما آتى وما أذرُ
مَنْ كانَ فوق عقولِ القايسين فما ذا يدرك الفكر أو ما يبلغ النظرُ

• • •

ولى أيضا

حبيبى أنت لا زيدٌ وعمرٌو وإن حَيّرتَنِى وفتنْتَ دِينِى
طلبتك جاهداً خمسين عاما فلم أحصُلْ على بردِ اليقينِ

فهل بعد الممات بك اتصالٌ فأعلمُ غامض السرّ المصونِ !
نوّى قُذُفٌ وكم قد مات قبلي بحسرته عليك من القرونِ !

* * *

ومن شعري أيضاً في المعنى ، وكنت أنادي به ليلاً في مواضع مقفرة خالية من الناس ، بصوت رفيع ، وأجدح فيي أيام كنت مالكاً أمري ، مطلقاً من قيود الأهل والولد وعلائق الدنيا :

يامدهش الألباب والفِطَنِ ومحيِّرَ التقوالقِ اللَّسِنِ
أفنيتُ فيك العمرَ أنفقُهُ والمال مجانا بلا ثمنِ
أتتبّع العلماء أسألهمْ وأجولُ في الآفاق والمُدُنِ
وأخالطُ المِلَلَ التي اختلفت في الدّين حتى عابدَ الوثَنِ
وظننتُ أني بالغٌ غرضي لما اجتهدت ومبرئٌ شجني
ومطهِّرٌ من كلّ رجس هوى قلبي لذاك ، وعاسِلٌ درَني
فإذا الذي استكثرت منه هو الـ جاني عليّ عظائمَ المحنِ
فضللتُ في تيهٍ بلا علَمٍ وغرقت في يمٍّ بلا سُفُنِ
ورجعت صِفرَ الكف مكتئباً حيرانَ ذا همٍّ وذا حزَنِ
أبكي وأسكت في الثرى بيدي طوراً وأدعم تارةً ذقَني
وأصيح يامَنْ ليس يعرفُه أحدٌ مدى الأحقاب والزمنِ !
يامَنْ له عَنَتِ الوجوهُ ومَنْ قرنت له الأعناق في قرَنِ
أَفتيت ياجِذرَ الأصمّ من الـ أعداد بل يافتنة الفِتَنِ
أن ليس تدركك العيون وأنـ ـتَ الرأى ذو أذُنٍ وذو عَيَنِ

والكلّ أنت فكيف يدركه ... بعضٌ وأنت السرّ فى العلَن !

* * *

ومما قلته فى المعنى :

ناجيته ودعوته اكشف عن ... عشا قلبى وعن بصرى وأنت النورُ

وارفعْ حجابا قد سَدَلتَ ستورَه ... دونى ، وهل دون الحبّ ستور !

فأجابنى : صهْ ياضعيف فعص ذَا ... قد رامه موسى فـدُكّ الطّور

أعجبنى هذا المعنى ، فنقلته إلى لفظ آخر فقلت :

حَبيبى أنتَ مِنْ دُونِ البرايا ... وإن لم أحظَ منك بمـا أريدُ

قنعت من الوصال بكشف حال ... فقيل ارجعْ فطلبهـا بعيدُ

ألم تسمعْ جوابَ سؤال موسى ... وبيس على مكانتـه مزيدُ

تعرّض للـذى حاوَلتَه يوماً ... فدُكّ الصخر واصطلم الصّعيـدُ

ولى فى هذا المعنى أيضاً :

قد حار فى النّفس جميعُ الورى ... والفكر فيهـا قد غدا ضائعا

وبَرْهَنَ الكلّ على ما ادّعَوْا ... وَلَيْسَ بُرْهانُهـم قاطِعَا

مَنْ جَهِـلَ الصّنْعَةَ عجزاً فما ... أجدرهُ أن يجهـل الصّانِعَا !

* * *

ولى أيضاً فى الردّ على الفلاسفة الذين علّلوا حركة الفلَك بأنه أراد استخراج الوضع أولا ؛ ليتشبه بالعقل المجرّد فى كماله ، وأنّ كلّ ماله بالقوة فهو خارج إلى الفعل :

تحـيّر أربابُ النُّهَى وتعجّبُوا ... من الفَلَكِ الأقصى لماذا تحرّكا

فقيل بطبعٍ كالثقيـل إذا هَوَى ... وقيل اختياراً والمحقق شكّكا

فردّ حديث الطبع إذ كان دائراً ... وليس على تحتٍ قويمٍ فيسلكا

وقيل لمن قال اختيارا فما الذي دعاه إلى أن دار ركضاً فأوشكا
فقالوا لوضع حادث يستجده يعاقب منه مطلباً ثم متركا
فقيل لهم : هذا الجنون بعينه ولو رامه منا امرؤ كان أعفكا[1]
ولو أن إنسانا غدا ليس قصده سوى الوضع واستخراجه عدّ مضحكا

* * *

ولى أيضاً فى الردّ على مَنْ زعم أنّ النبى صلى الله عليه وآله رأى الله سبحانه بالعين ، وهو الذى أنكرته عائشة ، والعجب لقوم من أرباب النظر جهلوا ما أدركته امرأة من نساء العرب :

عجبتُ لقوم يزعمون نبيَّهم رأى ربَّهُ بالعين ، تبًّا لهمْ تبًّا !
وهل تُدرِكُ الأبصارُ غيرَ مكيَّفٍ وكيف تبيحُ العينُ ما يمنعُ القلبا !
إذا كان طرف القلبِ عن كنهه نبا حسيراً ، فطرف العين عن كنهه أنبَى !

والمقطّعات التى نظمتها فى إجلال البارى سبحانه عن أن تحيط به العقول كثيرة ، موجودة فى كتبى ومصنّفاتى ، فلتُمح من مظانّها ، وغرضنا بإيراد بعضها أن لهاهنا تشييدا لما قاله أمير المؤمنين عليه السلام علىٌّ فى هذا الباب .

* * *

قوله عليه السلام : « ليس بذى كِبَرٍ » إلى قوله « وعظُم سلطانا » ، معناه أنه تعالى يطلق عليه من أسمائه الكبير والعظيم ، وقد ورد بهما القرآن العزيز ، وليس المراد بهما ما يستعمله الجمهور من قولهم : هذا الجسم أعظم وأكبر مقداراً من هذا الجسم ، بل المراد عِظمُ شأنه وجلالة سلطانه .

والفَلَج : النُّصرة ، وأصله سكون اللام ، وإنما حرّكه ليوازن بين الألفاظ ، وذلك

---

(١) الأعفك : الذى لا يحسن العمل .

لأن الماضى، منه فَلَج الرجلُ على خصمه بالفتح ، ومصدره الفَلْج بالسكون ، فأما من روى : « وظهور الفُلُج » بضمتين فقد سقط عنه التأويل ، لأن الاسم من هذا اللفظ : « الفُلج » بضم أول الكلمة ، فإذا استعملها الكاتب أو الخطيب جاز له ضم الحرف الثانى .

وصادعاً بهما : مظهراً مجاهداً ، وأصله الشق .

والأمراس : الحبال ، والواحد مَرَس ؛ بفتح الميم والراء .

• • •

الأصْــلُ :

منها فى صفة عجيب خلق أصناف من الحيوان :

وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ ٱلْقُدْرَةِ ، وَجَسِيمِ ٱلنِّعْمَةِ ، لَرَجَعُوا إِلَى ٱلطَّرِيقِ ، وَخَافُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ، وَلٰكِنِ ٱلْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ ، وَٱلْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ . أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ ، وَأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ ، وَفَلَقَ لَهُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ ، وَسَوَّى لَهُ ٱلْعَظْمَ وَٱلْبَشَرَ !

انْظُرُوا إِلَى ٱلنَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا ، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا ، لَا تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ ٱلْبَصَرِ ، وَلَا بِمُسْتَدْرَكِ ٱلْفِكَرِ ؛ كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا ، وَصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا ، تَنْقُلُ ٱلْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا ، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا ، تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا ، وَفِي وِرْدِهَا لِصَدَرِهَا ؛ مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا ، مَرْزُوقَةٌ بِوِفْقِهَا ؛ لَا يُغْفِلُهَا ٱلْمَنَّانُ ، وَلَا يَحْرِمُهَا ٱلدَّيَّانُ ، وَلَوْ فِي ٱلصَّفَا ٱلْيَابِسِ ، وَٱلْحَجَرِ ٱلْجَامِسِ !

وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أُكْلِهَا ، وَفِي عُلْوِهَا وَسُفْلِهَا ، وَمَا فِي ٱلْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا ، وَمَا فِي ٱلرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا ، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً ، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً !

فَتَعَالَى ٱلَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا ، وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا ! لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ ، وَلَمْ يُعِنْهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ .

وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ ، مَا دَلَّتْكَ ٱلدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ ٱلنَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ ٱلنَّخْلَةِ ؛ لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ ، وَغَامِضِ ٱخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ .

وَمَا ٱلْجَلِيلُ وَٱللَّطِيفُ ، وَٱلثَّقِيلُ وَٱلْخَفِيفُ ، وَٱلْقَوِيُّ وَٱلضَّعِيفُ فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءٌ .

وَكَذَلِكَ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْهَوَاءُ ، وَٱلرِّيَاحُ وَٱلْمَاءُ . فَٱنْظُرْ إِلَى ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ ، وَٱلنَّبَاتِ وَٱلشَّجَرِ ، وَٱلْمَاءِ وَٱلْحَجَرِ ، وَٱخْتِلَافِ هَذَا ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ، وَتَفَجُّرِ هَذِهِ ٱلْبِحَارِ ، وَكَثْرَةِ هَذِهِ ٱلْجِبَالِ ، وَطُولِ هَذِهِ ٱلْقِلَالِ ، وَتَفَرُّقِ هَذِهِ ٱللُّغَاتِ ، وَٱلْأَلْسُنِ ٱلْمُخْتَلِفَاتِ .

فَٱلْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ ٱلْمُقَدِّرَ ، وَجَحَدَ ٱلْمُدَبِّرَ !

زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ ، وَلَا لِٱخْتِلَافِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ ؛ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ٱدَّعَوْا ، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا وَعَوْا ، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ ، أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ !

* * *

الشرح :

مدخولة : معيبة . وفتَق : شقّ وحق . والبَشَر : ظاهر الجلد .

قوله عليه السلام : « وصُبّت على رزقها » ، قيل : هو على العكس ، أي وصبّ رزقها عليها ، والكلام صحيح ولا حاجة فيه إلى هذا ، والمراد : كيف همّت حتى انصبّت على رزقها انصباباً ؛ أي انحطت عليه . ويروى : « وضنّت على رزقها » بالضاد المعجمة والنون ، أي بخلت . وجُحْرها : بيتها .

قوله عليه السلام : « وفى وِرْدِها لصَدَرها » ، أى تجمع فى أيام التمكّن من الحركة لأيام العجز عنها ، وذلك لأنّ النمل يظهر صيفا ويخفى فى شدّة الشتاء لعجزه عن ملاقاة البرد .

قوله عليه السلام : « رزقُها وفقُها[1] » ، أى بقدر كفايتها ، ويروى « مكفول برزقها، مرزوقة بوفقها » .

والمنّان : من أسماء الله تعالى العائد إلى صفاته الفعلية ، أى هو كثير المنّ والإنعام على عباده .

والديّان : المجازى للعباد على أفعالهم ، قال تعالى : ﴿ إنّا لَمَدِينُونَ ﴾[2] أى مجزيّون .

والحجَر الجامس : الجامد . والشراسيف : أطراف الأضلاع المشرفة على البطن .

* * *

[فصل فى ذكر أحوال الذرّة وعجائب النملة]

واعلم أن شيخنا أبا عثمان قد أورد فى كتاب " الحيوان " فى باب النملة والذرّة — وهى الصغيرة جدًّا من النمل — كلامًا يصلح أن يكون كلام أمير المؤمنين عليه السلام أصله ، ولكنّ أبا عثمان قد فرّع عليه .

قال : الذرّة تدّخر فى الصيف للشتاء ، وتتقدّم فى حال المهلة ، ولا تُضيع أوقات إمكان الحزم ، ثم يبلغ من تفقّدها وصحّة تمييزها[3] ، والنظر فى عواقب أمورها[4] ؛ أنّها تخاف على الحبوب التى ادّخرتها للشتاء [فى الصيف][5] ، أن تعفن وتسوّس فى بطن الأرض

---

(١) كذا فى ا ، ب ؛ وما ورد فى أصل النهج يوافق ما فى الرواية الثانية .
(٢) سورة الصافات ٥٣
(٣) الحيوان : « وحسن خبرها » . (٤) الحيوان : « أمرها » .
(٥) من الحيوان .

فتخرجها إلى ظهرها لتنشرها[1] وتعيد إليها جفوفها ، ويضربها النسيم فينفى عنها العفن والفساد .

ثم ربما – بل فى الأكثر – تختار ذلك العمل ليلا ، لأن ذلك أخفى ، وفى القمر لأنها فيه أبصر ، فإن كان مكانها نديا وخافت أن تنبت الحبة نقرت موضع القِطْمير[2] من وسطها ؛ لعلمها أنها من ذلك الموضع تنبت ، وربما فلقت الحبة نصفين . فأما إن كان الحب من حب الكُزْبَرة فإنها تفلقه أرباعاً ، لأن أنصاف حب الكزبرة تنبت من بين جميع الحبوب، فهى من هذا الوجه مجاوزة لفطنة جميع الحيوانات ، حتى ربما كانت فى ذلك أحزم من كثير من الناس،ولها مع لطافة شخصها وخفة وزنها فى الشم والاسترواح ماليس لشىء، فربما أكل الإنسان الجراد أو بعض مايشبه الجراد ، فيسقط من يده الواحدة أو صدر واحدة،وليس بقربه ذرة ولا له عهد بالذر فى ذلك المنزل ، فلا يلبث أن تقبل ذرة قاصدة إلى تلك الجرادة ، فترومها وتحاول قلبها وجرها إلى جحرها ، فإذا أعجزتها بعد أن تبلى عُذْراً مضت إلى جحرها راجعة ، فلا يلبث ذلك الإنسان أن يجدها قد أقبلت وخلفها كالخيط الأسود الممدود ، حتى يتعاون عليها فيحملنها . فاعجب من صدق الشم لما لا يشمه الإنسان الجائع ! ثم انظر إلى بعد الهمة والجرأة على محاولة نقل شىء فى وزن جسمها مائة مرة، وأكثر من مائة مرة ، بل أضعاف أضعاف المائة ، وليس شىء من الحيوان يحمل ما يكون أضعاف وزنه مرارا كثيرة غيرها .

فإن قال قائل[3] : ومن أين علمتم أن التى حاولت نقل الجرادة فعجزت هى التى أخبرت صواحباتها من الذر ، وأنها التى كانت على مقدمتهن ؟

قيل له : لطول التجربة ، ولأنا لم نر قط ذرة حاولت جر جرادة فعجزت عنها ، ثم

---

(١) الحيوان : « لتيبسها » .

(٢) القطمير : شق النواة .

(٣) الحيوان : « فإن قلت » .

رأيناها راجعة إلا رأينا معها مثل ذلك ، وإن كنّا لا نفصل فى مرأى العين بينها وبين أخواتها ، فإنّه ليس يقع فى القلب غير الذى قلنا ، فدلّنا ذلك على أنّها فى رُجوعها عن الجرادة أنّها إنما كانت لأشباهها كالرائد الذى لا يكذب أهله .

قال أبو عثمان : ولا يُنكر قولَنا : إنّ الذرّة توحى إلى أخواتها بما أشرنا إليه إلا من يكذّب القرآن ، فإنه تعالى قال فى قصّة سليمان : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ • فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا ﴾[١] ، فهل بعد هذا ريب أو شكٌّ فى أن لها قولا وبيانا وتمييزا !

فإن قلت : فلعلّها مكلّفة ، ومأمورة ومنهيّة ، ومطيعة وعاصية !

قيل : هذا سؤال جاهل ، وذلك أنّه لا يلزم أن يكون كلّ ذى حسٍّ ، وتمييز مكلَّفا مأمورا منهيًّا ، مطيعا عاصيا ، لأنّ الإنسان غير البالغ الحلم قد يحفظ القرآن وكثيرا من الآثار ، وضروبا من الأخبار ، ويشترى ويبيع ، ويخدع الرجالَ ويسخَر بالمعلّمين ، وهو غير مكلَّف ولا مأمور ، لا منهيٌّ ولا عاصٍ ولا مطيع ؛ فلا يلزم مما قلناه فى الذرّة أن تكون مكلّفة[٢] .

قال أبو عثمان : ومن عجيب ما سمعتُه من أمر النملة ، ما حدّثنى به بعضُ المهندسين عن رجل معروف بصنعة الإسطرلابات[٣] ، أنه أخرج طَوْقًا من صُفر — أو قال من حديد — من الكير ، وقد أحماه ، فرمَى به على الأرض ليبرد ، فاشتمل الطَّوْق على نملة ، فأرادت أن تفر يمنةً فلقيها وهجُ النار ، فأخذت يَسْرةً فلقيها وهجُ النّار ، فمضت قدُما فكذلك ، فرجعت إلى خلفها فكذلك ، فرجعت إلى وسط الدائرة ، فوجدها قد ماتت فى موضع رجل البِرْكار[٤] من الدائرة ، وهذا من العجائب .

قال أبو عثمان: وحدّثنى أبو عبيد الله الأفوه ، وما كنت أقدّم عليه فى زمانه من مشايخ

---

(١) سورة النمل ١٨ ، ١٩ .
(٢) الحيوان ٤ : ٥ وما بعدها .
(٣) الأسطرلابات : جمع أسطرلاب ، وهى آلة يعرف بها الوقت انظر شفاء الغليل للخفاجى ١٠ .
(٤) البركار : اسم آلة معروفة . قال صاحب شفاء الغليل : هو معرب «برگار» . وقال : إنه لم يرد فى شعر قديم .

المنزلة إلا القليل ، قال : قد كنت ألقى من الذرّ والنمل فى الرُّطَب يكون عندى وفى الطعام عنتا كثيرا ، وذلك لأنى كنت لا أستقذر النملة ولا الذرة ، ثم وجدت الواحدة منهما إذا وقعت فى قارورة بانٍ أو زنبق أو خِيرِيّ ، فسد ذلك الدّهن وزنخ ، فقذرتها ونفرت منها ، وقلت : أخلِقْ بطبيعتها أن تكون فاسدة خبيثة ، وكنت أرى لها عضًّا منكرا ، فأقول: إنها من ذوات السّموم ، ولو أنّ بدَن النملة زيد فى أجزائه حتى يلحَق ببدن العقرب ، ثم عضّت إنسانا لكانت عضّتُها أضرّ عليه من لَسْعَةِ العقرب .

قال : فاتخذت عند ذلك لطعامى منملة وقيّرتُها ، وصببت فى خندقها الماء ، ووضعت سلّة الطعام على رأسها ، فمرت أياما أكشف رأس السلّة بعد ذلك ، وفيها ذرٌّ كثير ، ووجدت الماء فى الخندق على حاله ، فقلت : عسى أن يكون بعض الصبيان أنزلها ، وأكل مما فيها ! وطال مكثها فى الأرض ، وقد دخلها الذرّ ثم أعيدت على تلك الحال ، وتكلمتُ فى ذلك وتعرّفت الحال فيه ، فعرفت البراءة فى عذرهم ، والصّدق فى خبرهم ، فاشتد تعجّبى ، وذهبتْ بى الظّنون والخواطر كلّ مذهب ، فعزمت على أن أرصدها وأحرسها ، وأتثبت فى أمرى ، وأتعرّف شأنى ، فإذا هى بعد أن رامت الخندق فامتنع عليها تركته جانبا ، وصعدت فى الحائط ، ثم مرّت على جِذع السقف ، فلما صارت محادية للسّلّة أرسلت نفسها فقلت فى نفسى : انظر كيف اهتدتْ إلى هذه الحيلة ولم تعلم أنها تبقى محصورة ! ثم قلت : وما عليها أنْ تبقى محصورة ؟ بل أىّ حصار على ذرّةٍ وقد وجدت ماتشتهى .

قال أبو عثمان : ومن أعاجيب الذّرة أنّها لا تعرض لجُعَلٍ ولا لجرادة ولا لخُنفساء ولا لبنت وَرْدان ، مالم يكن بها حبل أو عقر أو قطع رجل أو يد ، فإن وجدت بها من ذلك أدنى علّة ، وثبتْ عليها ، حتى لو أن حيّة بها ضربة أو خَرْق أو خدش ، ثم كانت من

ثمانين مِصْر ، لوثب عليها الذرّ حتى يأكلها ، ولا تكاد الحيّة تسلَمُ من الذرّ إذا كان بها أدنى عقر .

قال أبو عثمان: وقد عذّب الله بالذرّ والنّمل أمما وأمما ، وأخرج أهل قرًى من قرام ، وأهل دُروبٍ من دروبهم .

وحدّثني بعضُ مَنْ أصدّق خبره ، قال : سألتُ رجلًا كان ينزل بغداد فى بعض الدروب التى فى ناحية باب الكوفة التى جلا أهلها عنها ، لغَلَبة النّمل والذرّ عليها ، فسألته عن ذلك ، فقال : وما تصنعُ بالحديث ! امضِ معى إلى دارى التى أخرجنى منها النّمل .

قال : فدخلتُها معه فبعث غلامَه ، فاشترى رءوسا من الرأسين ليتغدى بها ، فانتقلنا هربا من النمل فى أكثر من عشرين مكانا ، ثم دعا بطَسْتٍ ضخمة ، وصبّ فيها ماء صالحا ، ثم فرّق عظام الرءوس فى الدّار ، ومعه غلامه، فكان كلّما اسودّ منها عظم لكثرة النمل واجتماعه عليه — وذلك فى أسرع الأوقات — أخذه الغلام فغرّقه فى الطّست فنفض ما عليه فى جوف الطّست ، فما لبثنا مقدار ساعة من النّهار حتى فاضت الطست نملاً ، فقال: كم تظنّ أنى فتلت مثل هذا قبل الجلاء طمعا فى أن أقطع أصلها ! فما رأيت عددها إمّا زائدا ، وإما ثابتا ، وجاءنا ما لا يصبر عليه أحد ، ولا يمكن معه مقام ، خرجت عنها .

قال أبو عثمان : وعذّب عمرُ بن هُبيرة سعيدَ بن عمرو الحَرَشيّ بأنواع العذاب ، فقيل له : إن أردت ألّا يفلح أبدا فمرهم فسفعوا فى دُبره النّمل ، ففعلوا فلم يفلح بعدها [1] .

---

(١) الحيوان ٤ : ٢٣

قال أبو عثمان : ومن الحيوان أجناسٌ يشبه الإنسان فى العقل والروية والنظر فى العواقب والفكر فى الأمور ، مثل النمل ، والذر ، والفأر ، والجرذان ، والعنكبوت ، والنحل ، إلا أن النحل لا يدخر من الطعم إلا جنسا واحدا وهو العسل [1] .

قال : وزعم البقطرى أنك لو أدخلت نملة فى جحر ذر لأكلتها حتى تأتى على عامتها ، وذكر أنه قد جرب ذلك .

قال : وزعم صاحب المنطق أن الضبع تأكل النمل أكلا ذريعا ، لأنها تأتى قرية النمل وقت اجتماع النمل على باب القرية ، فتحس بذلك النمل كله بلسانها ، بشهوة شديدة وإرادة قوية .

قال : وربما أفسدت الأرضة على أهل القرى منازلهم ، وأكلت كل شىء لهم ، فلا تزال كذلك حتى ينشأ فى تلك القرى النمل ، فيسلط الله عز وجل ذلك النمل على تلك الأرضة ، حتى تأتى على آخرها ، على أن النمل بعد ذلك سيكون له أذى ، إلا أنه دون أذى الأرضة بعيدا ، وما أكثر ما يذهب النمل أيضا من تلك القرى ، حتى يتم لأهلها السلامة من النوعين جميعا .

قال : وقد زعم بعضهم أن تلك الأرضة بأعيانها تستحيل نملا ، وليس فناؤها لأكل النمل لها ، ولكن الأرضة نفسها تستحيل نملا ، فعلى قدر ما يستحيل منها يرى الناس النقصان فى عددها ومضرتها على الأيام [2] .

قال أبو عثمان : وكان ثمامة يرى أن الذر صغار النمل ، ونحن نراه نوعا آخر كالبقر والجواميس .

قال : ومن أسباب هلاك النمل نبات أجنحته ، وقال الشاعر :

وإذا استوت للنمل أجنحةٌ ... حتى يطير فقد دنا عطبُهْ

---

(١) الحيوان ٤ : ٣٤

(٢) الحيوان ٤ : ٣٤ ، ٣٥

وكان فى كتاب عبد الحميد إلى أبى مسلم : لو أراد الله بالنملة صلاحاً، لما أنبت لها جناحا ، فيقال : إن أبا مسلم لما قرأ هذا الكلام فى أول الكتاب لم يتمّ قراءته وألقاه فى النار ، وقال : أخاف إن قرأته أن يغضب قلبى .

قال أبو عثمان : ويُقتل النمل بأن يصبّ فى أفواه بيوتها القَطِران والكِبْريت الأصفر ، وأن يدسّ فى أفواهها الشَّعر ، على أنا قد جرّبنا ذلك فوجدناه باطلاً .

فأما الحكماء ، فإنهم لا يثبتون للنمل شَراسيف ولا أضلاعاً ، ويجب إن صحّ قولهم أن يحمَل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام عَلَى اعتقاد الجمهور ومخاطبة العرب بما تتخيّله وتتوهّمه حقًّا ، وكذلك لا يثبت الحكماء للنمل آذاناً بارزة عن سطوح رءوسها ، ويجب إنْ صحّ ذلك أن نحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام عَلَى قوّة الإحساس بالأصوات ، فإنه لا يمكن الحكماء إنكار وجود هذه القوة للنمل ، ولهذا إذا صيح عليهنّ هربن .

ويذكر الحكماء من عجائب النمل أشياء ، منها أنّه لا جلد له ، وكذلك كلّ الحيوان المحزّز .

ومنها أنه لا يوجد فى صقليّة نمل كبار أصلا .

ومنها أنّ النمل بعضه ماشٍ وبعضه طائر .

ومنها أن حراقة النمل إذا أضيف إليها شىء من قشور البيض وريش هدهد وعلقت عَلَى العضُد منعت من النوم .

* * *

قوله عليه السلام : « ولو ضربت فى مذاهب فكرك لتبلغ غاياته » ، أى غايات فكرك ، وضربت بمعنى سرت ، والمذاهب : الطرق . قال تعالى : « وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي

ٱلْأَرْضِ »(١) وهذا الكلام استعارة .

قال : لو أمعنتَ النظرَ لعلمتَ أنّ خالق النملة الحقيرة هو خالق النخلة الطويلة لأن كلّ شيء من الأشياء تفصيل جسمه وهيئته تفصيل دقيق ، واختلاف تلك الأجسام في أشكالها وألوانها ومقاديرها اختلافٌ غامض السبب ، فلا بدّ للكلّ من مدبّر يحكم بذلك الاختلاف ويفعله ، على حسب ما يعلمه من المصلحة .

ثم قال : وما الجليل والدقيق في خلقه إلا سواء ! لأنه تعالى قادر لذاته ، لا يعجزه شيء من الممكنات .

ثم قال : « فانظر إلى الشمس والقمر » إلى قوله : « والألسن المختلفات » ، هذا هو الاستدلال بإمكان الأعراض على ثبوت الصانع . والطرق إليه أربعة :

أحدها الاستدلال بحدوث الأجسام .

والثاني الاستدلال بإمكان الأعراض والأجسام .

والثالث الاستدلال بحدوث الأعراض

والرابع الاستدلال بإمكان الأعراض .

وصورة الاستدلال هو أنّ كلّ جسم يقبل ـ للجسمية المشتركة بينه وبين سائر الأجسام ـ ما يقبله غيره من الأجسام ، فإذا اختصت الأجسام في الأعراض فلابدّ من مخصّص خصّص هذا الجسم بهذا العرَض دون أن يكون هذا العرَض لجسم آخر ، ويكون لهذا الجسم عرَض غير هذا العرَض ، لأن الممكن لابدّ لها من مرجّح يرجّح أحد طرفيها على الآخر ، فهذا هو معنى قوله : « فانظر إلى الشمس والقمر ، والنبات والشجر ، والماء والحجر ، واختلاف هذا الليل والنهار ، وتفجّر هذه البحار ، وكثرة هذه الجبال ، وطول هذه القلال ، وتفرّق هذه اللغات ، والألسن المختلفات » ، أي أنه يمكن أن تكون هيئة

(١) سورة النساء ١٠١

الشمس وضوءها ومقدارها حاصلًا لِجِرْم القمر ، ويمكن أن يكون النبات الذى لاساقَ له شجرا ، والشجر ذو الساق نباتا ، ويمكن أن يكون الماء صُلْبا والحجر مائعا ، ويمكن أن يكون زمان الليل مضيئا وزمان النهار مظلما ، ويمكن ألّا تكون هذه البحار متفجّرة بل تكون جبالا ، ويمكن ألّا تكون هذه الجبال الكبيرة كبيرةً ، ويمكن ألّا تكون هذه التلال طويلة . وكذلك القول فى الفئات واختلافها . وإذا كان كل هذا ممكنا فاختصاصُ الجسم المخصوص بالصفات والأعراض والصوَر المخصوصة لا يمكن أن يكون لمجرد الجسميّة لتماثل الأجسام فيها ، فلابدّ من أمرٍ زائد ، وذلك الأمر الزائد هو المعنىّ بقولنا : صانع العالم .

ثم سفّه آراء المعطّلة ، وقال : « إنهم لم يعتصموا بحجّة ، ولم يحقّقوا ما وعوه » أى لم يرتّبوا العلوم الضروريّة ترتيبا صحيحا يفضى بهم إلى النتيجة التى هى حق .

ثم أخذ فى الردّ عليهم من طريق أخرى ، وهى دعوى الضّرُورة ، وقد اعتمد عليها كثيرٌ من المتكلّمين ، فقال : نعلم ضرورةً أنّ البناء لابدّ له من بانٍ .

ثم قال : « والجناية لابدّ لها من جانٍ » ، وهذه كلمة ساقته إليها القرينة ، والمراد عموم الفعليّة لاخصوص الجناية ، أى مستحيل أن يكون الفعلُ من غير فاعل ، والذين ادّعوا الضرورة فى هذه المسألة من المتكلّمين استغنوا عن الطرق الأربع التى ذكرناها ، وأمير المؤمنين عليه السلام اعتمد أوّلا على طريق واحدة ، ثم جنح ثانيا إلى دعوى الضرورة ، وكلا الطريقين صحيح .

* * *

الأصْلُ

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرَادَةِ إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ ، وَأَسْرَجَ لَهَا

حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ ؛ وَجَعَلَ لَهَا ٱلسَّمْعَ ٱلْخَفِيَّ ، وَفَتَحَ لَهَا ٱلْفَمَ ٱلسَّوِيَّ ، وَجَعَلَ لَهَا ٱلْحِسَّ ٱلْقَوِيَّ ؛ وَنَابَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ ، وَمِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ ، يَرْهَبُهَا ٱلزُّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ ، حَتَّى تَرِدَ ٱلْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا ، وَتَقْضِيَ مِنْهُ شَهَوَاتِهَا ؛ وَخَلْقُهَا كُلُّهُ لَا يُكَوِّنُ إِصْبَعًا مُسْتَدِقَّةً .

فَتَبَارَكَ ٱلَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ، وَيُعَفِّرُ لَهُ خَدًّا وَوَجْهًا ؛ وَيُلْقِي بِالطَّاعَةِ إِلَيْهِ سِلْمًا وَضَعْفًا ، وَيُعْطِي لَهُ ٱلْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفًا !

فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِأَمْرِهِ ، أَحْصَى عَدَدَ ٱلرِّيشِ مِنْهَا وَالنَّفَسِ ، وَأَرْسَى قَوَائِمَهَا عَلَى ٱلنَّدَى وَٱلْيَبَسِ ؛ وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا ، وَأَحْصَى أَجْنَاسَهَا ؛ فَهَذَا غُرَابٌ ، وَهَذَا عُقَابٌ ؛ وَهَذَا حَمَامٌ ، وَهَذَا نَعَامٌ ؛ دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ ، وَكَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ .

وَأَنْشَأَ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ فَأَهْطَلَ دِيَمَهَا ، وَعَدَّدَ قِسَمَهَا ، فَبَلَّ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا ، وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا .

* * *

الشَّرْحُ :

قوله : « وأسْرَجَ لها حَدَقتين » أى جعلهما مضيئتين كما يضيء السراج ، ويقال : حدقة قمراء أى منيرة ، كما يقال : ليلة قمراء أى نيرة بضوء القمر .

و « بهما تَقرِض » أى تقطع ، والراء مكسورة .

والمنجلان : رجلاها ؛ شبّههما بالمناجل لعوجهما وخشونتهما .

ويَرْهبها : يخافها . ونزواتها : وثباتها . والجدْب : المحل .

* * *

[ذكر غرائب الجرادة وما احتوت عليه من صنوف الصنعة]

قال شيخنا أبو عثمان فى كتاب "الحيوان": من عجائب الجرادة التماسُها لبيضها الموضعَ الصلد، والصخور الملس، ثقةً منها أنها إذا ضربتْ بأذنابها فيها، انفرجت لها، ومعلوم أنّ ذَنَبَ الجرادة ليس فى خلقة المنشار[1] ولا طرف ذنبه كحدّ السنان، ولا لهـا من قوة الأسْر، ولا لذَنَبها من الصّلابة ما إذا اعتمدتْ به على الـكُدْيَة[2] خرج[3] فيها، كيف وهى تتعدّى إلى ماهو أصلبُ من ذلك، وليس فى طرفها كإبرة العقرب.

وعلى أنّ العرصةَ ليس تخرِقُ القُمْقُم[4] من حدِّ الأيد وقوّة البدن، بل إنّما ينفرج لها لطبع مجعول هناك، وكذلك انفراج الصّخور لأذناب الجراد.

ولو أنّ عُقابًا أرادت أن تخرِق جلد الجاموس لما انخرق لها إلّا بالتكلّف الشديد، والعُقاب هى التى تنكدر[5] على الذّئب [الأطلس][6] فتقدّ بدابرتها مابين صَلاهُ إلى موضع الـكاهل[7].

وإذا غرّزت[8] الجرادة، وألقت بيضها، وانصمّت عليها تلك الأخاديد التى هى أحدثتها، وصارت كالأفاحيص لها صارت حاضنةً لها ومربّية، وحافظة وصائنة وواقية، حتى إذا جاء وقت دبيب الروح فيها حدث عَجَب آخر، وذلك لأنه يخرج من بيضه أصهب إلى

---

(١) الحيوان: «المسمار».

(٢) الـكدية: الصفاة العظيمة. وفى الحيوان: «الـكدية والـكذانة»، واحدة الـكذان: وهى حجارة كأنها المدر فيها رخاوة.

(٣) الحيوان: «جرح».

(٤) القمقم: ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره، ويكون ضيق الرأس.

(٥) تنكدر: تنقض.

(٦) من الحيوان.

(٧) تقدّ: تقطع. والدابرة: الإصبع التى من وراء رجلها. والصـلا بالفتح: وسط الظهر. والـكاهل: مقدّم أعلى الظهر.

(٨) غرّزت الجرادة: أثبتت ذنبها فى الأرض لتبيض.

البياض ، ثم يصفرّ وتتلون فيه خطوط إلى السواد ، ثم يصير فيه خطوط سودٌ وبيض ، ثم يبدو حَجْم جناحه ، ثم يستقلّ فيموجُ بعضه فى بعض[1] .

قال أبو عثمان ، ويزعمُ قوم أنّ الجرَاد[2] قد يريد الخضرة ودونه النهر الجارى ، فيصير بعضه جسرا لبعض حتى يعبر إلى الخضرة ، وأن ذلك حيلة منها .

وليس كما زعموا ، ولكن الزحف الأول من الدَّبا يريد الخضرة فلا يستطيعُها إلا بالعبور إليها ، فإذا صارت تلك القطعة فوق الماء طافيةً صارت لعمرى أرضاً للزحف الثانى الذى يريد الخضرة ، فإن سمّوا ذلك جسرا استقام ، فأما أن يكون الزّحف الأول مهّد للثانى ومكّن له وآثره [بالكفاية] فهذا مالا يعرف ، ولو أنّ الزحفين جميعا أشرفا على النّهر ، وأمسك أحدهما عن تكلّف العبور حتى يمهّد له الآخر لكان لما قالوه وجه[3] .

قال أبو عثمان : ولعاب الجراد سمٌّ على الأشجار لا يقع على شىء إلا أحرقه .

فأما الحكماء فيذكرون فى كتبهم أنّ أرجل الجراد تقلع الثآليل ، وأنه [إذا] أخذت منه اثنتا عشرة جرادة ونزعت رءوسها وأطرافها ، وجعل معها قليل آس يابس ، وشربت للاستسقاء كما هى ، نفعت نفعا بيّنا ؛ وأن التبخّر بالجراد ينفع من عسر البول ، وخاصّة فى النساء ، وأن أكله ينفع من تقطيره ، وقد يبخّر به للبواسير ، وينفع أكله من لسْعة العقرب .

ويقال : إن الجراد الطوال إذا عُلّق على مَنْ به حُمّى الرِّبْع نفعه .

---

(١) الحيوان ٥ : ٥٤٩ ، ٥٥٠ . (٢) الحيوان : « الدبا » .

(٣) الحيوان ٥ : ٥٦٢ .

(٢٣٢)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام : في التوحيد ، وتجمع هذه الخطبة من أصول العلم مالا تجمعه خطبة غيرها :

ما وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أصابَ مَنْ مَثَّلَهُ ، ولا إيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ ، ولا صَمَدَهُ مَنْ أشارَ إليْهِ وَتَوَهَّمَهُ . كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ ، وَكُلُّ قائِمٍ في سِوَاهُ مَعْلُولٌ .

فاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ ، مُقَدِّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ ؛ غَنِيٌّ لَا بِاسْتِفَادَةٍ ؛ لَا تَصْحَبُهُ الأوْقاتُ ؛ ولا تَرْفِدُهُ الأدَوَاتُ ، سَبَقَ الأوْقاتَ كَوْنُهُ ، والعَدَمَ وُجُودُهُ ، والابْتِدَاءَ أزَلُهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا الفصل يشتمل على مباحثَ متعدّدة :

أولها قوله : « ما وحَّدَهُ مَنْ كَيَّفه » ، وهذا حقٌّ لأنه إذا جعله مكيَّفاً جعله ذا هيئة وشكل ، أوذا لونٍ وضوء ، إلى غيرهما من أقسام الكيف ، ومتى كان كذلك كان جسما ولم يكن واحدا ، لأنَّ كلَّ جسم قابل للانقسام، والواحد حقا لا يقبل الانقسام ، فقد ثبت أنه ماوحّده مَنْ كيَّفه .

وثانيها قوله : « ولا حقيقته أصاب مَنْ مثّله » وهذا حقٌّ ، لأنّه تعالى لامثل له ، وقد دلّت الأدلّة الكلاميّة والحُكْميّة على ذلك ، فمَن أثبت له مثلا ، فإنه لم يصب

حقيقته تعالى ، والسّجعة الأخرى تعطى هـذا المعنى أيضاً من غير زيادة عليه ، وهى قوله عليه السلام : ولا إيّاه عَنَى مَنْ شبّهه » ولهـذا قال شيوخنا : إنّ المشبِّـه لا يعرف الله ، ولا تتوجّه عاداتُه وصلواته إلى الله تعالى ؛ لأنّه يعبد شيئاً يعتقده جسما ، أو يعتقده مشابها لبعض هذه الذوات المحدَثة ، والعبادة تنصرف إلى المعبود بالقصد ، فإذا قُصِد بها غيرُالله تعالى لم يكن قد عبدَ الله سبحانه ولا عرفه ، وإنّما يتخيّل ويتوهّم أنه قد عرفه وعبده ، وليس الأمر كما تخيّل وتوهّم .

وثالثها قوله عليه السلام : « ولا صَمَده مَنْ أشار إليه » أى أثبته فى جهة ، كما تقول الكرّامية . الصَّمَد فى اللغة العربيـة : السّيد . والصمَد أيضاً الذى لاجوف له ، وصار التصميد فى الاصطلاح العرفىّ عبارة عن التنزيه ، والذى قال عليه السـلام حقّ ، لأنّ مَنْ أشار إليه — أى أثبته فى جهة كما تقوله الكرّامية — فإنه ما صَمَده ، لأنّه ما نزّهه عن الجهات ، بل حكم عليه بما هو من خواصّ الأجسام ، وكذلك مَنْ توهّمه سبحانه ، أى مَنْ تخيّل له فى نفسه صورة أوهيئة أو شـكلا ، فإنّه لم ينزهه عمّا يجب تنزيهه عنه .

ورابعها قوله : « كلّ معروف بنفسه مصنوع » ، هذا الكلام يجب أن يتأوّل ، ويحمل على أنّ كلّ معروف بالمشاهدة والحسّ فهو مصنوع ، وذلك لأنّ البارى سبحانه معروف من طريقين : إحداهما من أفعاله ، والأخرى بنفسه ؛ وهى طريقة الحكماء الذين بحثُوا فى الوجود من حيث هو وجود ، فعلموا أنّه لابدّ من موجودٍ واجبِ الوجود ، لم يستدلّوا عليه بأفعاله ، بل أخرج لهم البحث فى الوجود أنه لابدّ من ذات يستحيل عدمها من حيث هى هى .

فإن قلت : كيف يحمل كلامُه على أنّ كلّ معروف بالمشاهدة والحسّ فهو مصنوع وهذا يدخل فيه كثير من الأعراض كالألوان ؟ وإذا دخل ذلك فسدت عليه الفقرة الثانية ،

وهى قوله عليه السلام : « وكلّ قائم فيما سواه معلول » لأنها للأعراض خاصّة ، فيدخل أحد مدلول الفقرتين فى الأخرى ، فيختلّ النظم !

قلت : يريد عليه السّلام بالفقرة الأولى كلّ معروف بنفسه من طريق المشاهدة مستقلا بذاته ، غير مفتقر فى تقوّمه إلى غيره فهو مصنوع ، وهذا يختصّ بالأجسام خاصّة ، ولا يدخل الألوان وغيرها من الأعراض فيه ، لأنّها متقوّمة بمحالها .

وخامسها قوله : « وكلّ قائم فى سواه معلول » ، أى وكلّ شىء يتقوّم بغيره فهو معلول ، وهذا حقّ لا محالة ، كالأعراض لأنّها لو كانت واجبة لا ستغنت فى تقومها عن سواها ، لكنّها مفتقرة إلى المحلّ الذى يتقوّم به ذواتها ؛ فإذا هى معلولة ، لأنّ كلّ مفتقر إلى الغير فهو ممكن ، وكلّ ممكن فلابدّ له من مؤثّر .

وسادسها قوله : « فاعل لا باضطراب آلة » ، هذا لبيان الفرق بينه وبيننا ، فإنّا نفعل بالآلات وهو سبحانه قادر لذاته فاستغنى عن الآلة .

وسابعها قوله : « مقدّر لا بجول فكرة » ، هذا أيضاً للفرق بيننا وبينه ، لأنّا إذا قدّرنا أجلنا أفكارنا ، وتردّدت بنا الدواعى ، وهو سبحانه يقدّر الأشياء على خلاف ذلك .

وثامنها قوله : « غنى لا باستفادة » ، هذا أيضاً للفرق بيننا وبينه ، لأنّ الغنىّ منّا مَنْ يستفيد الغنى بسبب خارجى ، وهو سبحانه غنىّ بذاته من غير استفادة أمر يصير به غنيا ، والمراد بكونه غنيًّا أنّ كلّ شىء من الأشياء يحتاج إليه ، وأنّه سبحانه لا يحتاج إلى شىء من الأشياء أصلا .

وتاسعها قوله : « لا تصحبه الأوقات » ، هذا بحث شريف جداً ، وذلك لأنه سبحانه ليس بزمانى ولا قابل للحركة ، فذاته فوق الزمن والدهر ؛ أمّا المتكلمون فإنهم يقولون:

إنّه تعالى كان ولا زمان ولا وقت ، وأمّا الحكماء فيقولون : إنّ الزمان عَرَض قائم بعرض آخر ، وذلك العرض الآخر قائم بجسم معلول لبعض المعلولات الصادرة عنه سبحانه ، فالزمان عندهم ـ وإن كان لم يزل ـ إلّا أنّ العلّة الأولى ليست واقعة تحته ، وذلك هو المراد بقوله : « لا تصحبه الأوقات » إن فسّرناه على قولهم ، وتفسيره على قول المتكلّمين أولى .

وعاشرها قوله : « ولا تَرْفِدُه الأدوات » ، رفدت فلانا إذا أعنته ؛ والمراد الفرق بيننا وبينه لأنّنا مرفودون بالأدوات ، ولولاها لم يصحّ منا الفعل ، وهو سبحانه بخلاف ذلك .

وحادي عشرها قوله : « سبق الأوقات كونه ... » إلى آخر الفصل ، هذا تصريح بحدوث العالم .

فإن قلت : ما معنى قوله : « والعدمَ وجودُه » ، وهل يسبق وجوده العدم مع كون عدم العالم في الأزل لا أوّل له ؟

قلت : ليس يعني بالعدم هاهنا عدم العالم بل عدم ذاته سبحانه ، أي غلب وجود ذاته عدمها وسبقها ، فوجب له وجود يستحيل تطرّق العدم إليه أزلا وأبدا بخلاف الممكنات ، فإنّ عدمها سابق بالذّات على وجودها ، وهذا دقيق !

* * *

الأصْـلُ :

بِتَشْعِيرِهِ الْمَشاعِرَ عُرِفَ أنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ ، وبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الأُمُورِ عُرِفَ أنْ لَا ضِدَّ لَهُ ، وبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الأشْياءِ عُرِفَ أنْ لَا قَرِينَ لَهُ .

ضادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ ؛ وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ ، والجُمُودَ بِالْبَلَلِ ، وَالحَرُورَ بِالصَّرْدِ .

مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا ، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا ، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا ، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا .

لَا يُشْمَلُ بِحَدٍّ ، ولا يُحْسَبُ بِعَدٍّ ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا ؛ وَتُشِيرُ الْآلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا .

* * *

الشَّـرْحُ :

المشاعر الحواس ، قال بلعاء بن قيس :

والرَّأْسُ مُرْتَفِـعٌ فيـهِ مشاعِرُهُ   يَهْدِى السَّبيلَ له سَمعٌ وعَيْنَانِ[1]

قال: بجعله تعالى للمشاعر عُرِف أن لا مشعر له ؛ وذلك لأنّ الجسم لا يصحّ منه فعل الأجسام ، وهذا هو الدليل الذى يعوّل عليه المتكلمون فى أنه تعالى ليس بجسم .

ثم قال : « وبمضادّته بين الأمور عرف أن لا ضدّ له » ، وذلك لأنّه تعالى لمـا دلّنا بالعقل على أن الأمور المتضادّة إنّما تتضادّ على موضوع تقوم به وتحلّه كان قد دلّنا على أنه تعـالى لا ضدّ له ، لأنه يستحيل أن يـكون قائمـا بموضوع يحـلّه كما تقوم المتضادّات بموضوعاتها .

ثم قال : « وبمقارنته بين الأشياء عُرِف أن لا قرين له » ، وذلك لأنّه تعالى قرن بين العَرَض والجوهر ، بمعنى استحالة انفـكاك أحدهما عن الآخر ، وقرَن بين كثير من الأعراض ، نحو مايقوله أصحابنا فى حياتي القلب والـكبد ، ونحو الإضافات التى يذكرها الحـكماء كالبنوّة والأبوّة والفوقيّة والتحتيّة ، ونحو كثير من العلل والمعلولات ، والأسباب والمسبّبات ، فيما ركبه فى العقول من وجوب هـذه المقارنة واستحالة انفـكاك أحد الأمرين

---

(١) صحاح الجوهرى ٦٩٩

عن الآخر ، علمنا أنه لا قرينَ له سبحانه ، لأنه لو قارن شيئا على حسب هـذه المقارنة لاستحال انفكاكه عنه ، فكان محتاجاً فى تحقق ذاته تعالى إليه ، وكلّ محتاج ممكن ، فواجب الوجود ممكن ! هذا محال .

ثم شرع فى تفصيل المتضادّات ، فقال . « ضادّ النّور بالظُّلْمة » ، وهما عَرَضان عنـد كثير من النّاس ، وفيهم مَنْ يجعل الظلمة عدميّة .

قال : « والوضوح بالبُهْمة » يعنى البياض والسواد

قال : « والجمود بالبَلَل » ، يعنى اليبوسة والرطوبة .

قال : « والحَرور بالصَّرْد » يعنى الحرارة والبرودة ، والحرور هاهنا مفتوح الحاء ، يقال : إنى لأجد لهذا الطعام حَرورا وحَرورة فى فمى ، أى حرارة ، ويجوز أن يكون فى الكلام مضاف محذوف ، أى لوحرارة الحرورِ بالصَّرْد ؛ والحرور هاهنا يكون الريح الحارّة ، وهى بالليل كالسَّموم بالنهار ، والصَّرْد : البرد .

ثم قال : وإنّه تعالى مؤلِّف بين هذه المتباعدات ، المتعاديات المتباينات ، وليس المراد من تأليفه بينها جمعه إيّاها فى مكان واحد ، كيف وذلك مستحيل فى نفسه ، بل هو سبحانه مؤلّف لها فى الأجسام المركّبة حتى جمع منها صورة مفردة ، هى المزاج ، ألا ترى أنّه جمع الحارّ والبارد والرطب واليابس ، فمزجه مَزْجاً مخصوصا حتى انتزع منه طبيعة مفردة ، ليست حارّة مطلقة ، ولا باردة مطلقة ، ولا رطبة مطلقة ، ولا يابسة مطلقة ، وهى المزاج ، وهو محدود عند الحكماء ؛ بأنه كيفيّة حاصلة من كيفيّات متضادّة ، وهذا هو محصول كلامه عليه السلام بعينه .

والعَجب من فصاحته فى ضمن حكمته ، كيف أعطى كلّ لفظةٍ من هـذه اللفظات ما يناسبُها ويليق بها ، فأعطى المتباعدات لفظة « مقرِّب » ؛ لأنّ البعد بإزاء القرب ،

وأعطى المتباينات لفظة « مقارن » ، لأنّ البينونة بإزاء المقارنة ، وأعطى المتعاديات لفظة « مؤلّف » لأنّ الائتلاف بإزاء التعادى .

ثم عاد عليه السلام فعكس المعنى ، فقال : « مفرّق بين متدانياتها » ، فجعل الفساد بإزاء الكون ، وهذا من دقيق حكمته عليه السلام ، وذلك لأنّ كلّ كائن فاسد ، فلما أوضح ما أوضح فى الكون والتركيب والإيجاد ، أعقبه بذكر الفساد والعدم ، فقال : « مفرّق بين متدانياتها » ، وذلك لأنّ كلّ جسم مركّب من العناصر المختلفة الكيفيّات المتضادّة الطبائع ، فإنه سيؤول إلى الانحلال والتفرّق .

ثم قال : « لا يشتمل بحدّ » ، وذلك لأنّ الحدّ الشامل ما كان مركّبا من جنس وفصل ، والبارى تعالى منزّه عن ذلك ، لأنه لو شمله الحدّ على هذا الوجه يكون مركّبا ، فلم يكن واجب الوجود ، وقد ثبت أنه واجب الوجود ، ويجوز أن يعنى به أنه ليس بذى نهاية ، فتحويه الأقطار وتحدّه .

ثم قال : « ولا يحسب بعدّ » ، يحتمل أن يريد : لا تحسب أزليته بعد ، أى لا يقال له : منذ وُجد كذا وكذا ، كما يقال للأشياء المتقاربة العهد ، ويحتمل أن يريد به أنه ليس مماثلا للأشياء فيدخل تحت العدد ، كما تعدّ الجواهر ، وكما تعدّ الأمور المحسوسة .

ثم قال : « وإنّما تحدّ الأدوات أنفسها ، وتشير الآلات إلى نظائرها » ، هذا يؤكد معنى التفسير الثانى ، وذلك لأنّ الأدوات كالجوارح ، إنما تحدّ وتقدر ما كان مثلها من ذوات المقادير ، وكذلك إنما تشير الآلات وهى الحواسّ إلى ما كان نظيرا لها فى الجسمية ولوازمها ، والبارى تعالى ليس بذى مقدار ولا جسم ، ولا حالّ فى جسم ، فاستحال أن تحدّه الأدوات ، وتشير إليه الآلات .

* * *

الأصْل :

مَنَعَتْهَا مُنْذُ الْقِدْمَة ، وَحَمَتْهَا قَدُ الْأَزَلِيَّةَ ، وَجَنَّبَتْهَا لَوْلَا التَّكْمِلَة ، بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ ، وَبِهَا امْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ ، وَلَا تَجْرِي عَلَيْهِ الْحَرَكَةُ وَالسُّكُونُ ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَاهُوَ أَجْرَاهُ ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَاهُوَ أَحْدَثَهُ !

إِذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ ، وَلَامْتَنَعَ مِنَ الْأَزَلِ مَعْنَاهُ ؛ وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ ، وَلَالْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ ؛ وَإِذاً لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلاً بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الِامْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ .

● ● ●

الشَّرْح :

قد اختلف الرواة فى هذا الموضع من وجهين :

أحدهما قول مَنْ نصب « القِدمة » و « الأزليّة » و « التكملة » ، فيكون نصبها عنده على أنّها مفعول ثانٍ ، والمفعول الأوّل الضمائر المتصلة بالأفعال ، وتكون « منذ » و « قد » و « لولا » فى موضع رفع بأنّها فاعلة ، وتقدير الكلام : إنّ إطلاق لفظة « منذ » على الآلات والأدوات يمنعها عن كونها قديمة ، لأنّ لفظة « منذ » وضعت لابتداء الزمان كلفظة « من » لابتداء المكان ، والقديم لا ابتداء له ، وكذلك إطلاق لفظة « قد » على الآلات ، والأدوات تحميها وتمنعها من كونها أزليّة ، لأنّ « قد » لتقريب الماضى من الحال ، تقول : قد قام زيد ، فقد دلّ على أن قيامه قريب من الحال التى أخبرت فيها

بقيامه ، والأزلىّ لا يصحّ ذلك فيه، وكذلك إطلاق لفظة « لولا » على الأدوات والآلات يجنّبها التكملة ، ويمنعها من التمام المطلق ، لأنّ لفظة « لولا » وضعت لامتناع الشىء لوجود غيره ، كقولك: لولا زيد لقام عمرو ، فامتناع قيام عمرو إنّما هو لوجود زيد ، وأنت تقول فى الأدوات والآلات وكلّ جسم : ماأحسنه لولا أنه فانٍ ! وما أتمّه لولا كذا ! فيكون المقصد والمنحى بهذا الكلام على هذه الرواية بيان أنّ الأدوات والآلات محدثة ناقصة ، والمراد بالآلات والأدوات أربابُها .

الوجه الثانى : قول مَن رفع « القِدمة » و « الأزلية » و « التكلة » فيكون كلّ واحد منها عنده فاعلا ، وتكون العبارة المتصلة بالأفعال مفعولا أوّلا ، و «منذ» و «قد» و « لولا » مفعولا ثانيا ، ويكون المعنى أنّ قِدَم البارى وأزليّته وكماله منعت الأدوات والآلات من إطلاق لفظة « منذ » و « قد » و « لولا » عليه سبحانه ، لأنه تعالى قديم كامل ، ولفظتا « منذ » و « قد » لا تطلقان إلّا على محدَث ، لأنّ إحداهما لابتداء الزمان والأخرى لتقريب الماضى من الحال ، ولفظة « لولا » لا تطلق إلّا على ناقص ، فيكون المقصد والمنحى بهذا الكلام على هذه الرواية بيان قِدَم البارى تعالى وكماله ، وأنّه لا يصحّ أن يطلق عليه ألفاظ تدلّ على الحدوث والنقص .

* * *

قوله عليه السلام : « بها تجلّى صانعها للعقول ، وبها امتنع عن نظر العيون » ، أى بهذه الآلات والأدوات التى هى حواسّنا ومشاعرنا ، وبخلقه إياها ، وتصويره لها ، تجلّى للعقول وعُرِف ، لأنه لو لم يخلقها لم يُعرف ، وبها امتنع عن نظر العيون ، أى بها استنبطنا استحالة كونه مرئيًّا بالعيون ، لأنّا بالمشاعر والحواسّ كملت عقولنا ، وبعقولنا استخرجنا الدلالة على أنّه لا تصحّ رؤيته ، فإذن بخلقه الآلات والأدوات لنا عرفناه عقلا ، وبذلك

أيضا عرفنا أنه يستحيل أن يعرّف بغير العقل ، وأنّ قول من قال : إنا سنعرفه رؤيةً ومشافهة بالحاسّة باطل .

قوله عليه السلام : « لا تجرى عليه الحركة والسكون » ، هذا دليلٌ أخذه المتكلّمون عنه عليه السلام فنظموه في كتبهم وقرروه ، وهو أنّ الحركة والسكون معانٍ محدَثة ، فلو حلّت فيه لم يخلُ منها ، وما لم يخلُ من المحدَث فهو محدث .

فإن قلت : إنه عليه السلام لم يخرج كلامه هذا المخرج ، وإنما قال كيف يجرى عليه ما هو أجراه ، وهذا نمطٌ آخر غير ما يقرّره المتكلّمون !

قلت : بل هو هو بعينه ، لأنه إذا ثبت أنه هو الذي أجرى الحركة والسكون ، أي أحدثهما لم يجز أن يجريا عليه ، لأنهما لو جريا عليه لم يخلُ إمّا أن يجريا عليه على التعاقب ، وليسا ولا واحد منهما بقديم ، أو يجريا عليه على أنّ أحدهما قديم ثم تلاه الآخر ، والأوّل باطل بما يبطل به حوادث لا أوّل لها ، والثاني باطل بكلامه عليه السلام ، وذلك لأنه لو كان أحدهما قديماً معه سبحانه لما كان أجراه ، لكن قد قلنا : إنه أجراه ، أى أحدثه ، وهذا خُلف محال . وأيضا فإذا كان أحدُهما قديماً معه لم يجز أن يتلوه الآخر ، لأنّ القديم لا يزول بالمحدَث .

ثم قال عليه السلام : « إذاً لتفاوتت ذاتُه ، ولتجزّأ كُنهه ، ولامتنع من الأزل معناه » ، هذا تأكيد لبيان استحالة جَرَيان الحركة والسّكون عليه ، تقول: لو صحّ عليه ذلك لكان محدَثاً ، وهو معنى قوله : « لامتنع من الأزل معناه » ، وأيضا كان ينبغى أن تكون ذاته منقسمة ، لأنّ المتحرك الساكن لابدّ أن يكون متحيّزا ، وكلّ متحيّز جسم ، وكلّ جسم منقسم أبدا ، وفى هذا إشارة إلى نفى الجوهر الفرد .

ثم قال عليه السلام : « ولكان له وراء إذا وُجِد له أمام » هذا يؤكّد ماقلناه إنه إشارة إلى نفى الجوهر الفرد ، يقول : لو حلّته الحركة لكان جرما وحجما ؛ ولكان أحدُ وجهيه غيرَ الوجه الآخر لا محالة ، فكان منقسما ، وهذا الكلام لا يستقيم إلا مع نفى الجوهر الفرد ، لأنّ مَنْ أثبته يقول : يصحّ أن تحلّه الحركة ، ولا يكون أحد وجهيه غير الآخر ، فلا يلزم أن يكون له وراء وأمام .

ثم قال عليه السلام : « ولا التمس التمام إذ لزمه النقصان » ، هـذا إشارة إلى مايقوله الحكماء ، من أنّ السكون عدم ونقص ، والحركة وجود وكمال ، فلو كان سبحانه يتحرك ويسكن لكان حال السكون ناقصاً قد عدم عنه كماله ، فكان ملتمساً كماله بالحركة الطارئة على السكون ، وواجب الوجود ، يستحيل أن يكون له حالة نقصان ، وأن يكون له حالة بالقوّة وأخرى بالفعل .

قوله عليه السلام : « إذا لقامت آية المصنوع فيه » ، وذلك لأنّ آية المصنوع كونه متغيّراً منتقلا من حال إلى حال ، لأنا بذلك استدللنا على حدوث الأجسام ، فلو كان تعالى متغيراً متحركا منتقلا من حال إلى حال لتحقّق فيه دليل الحدوث ، فكان مصنوعاً ، وقد ثبت أنه الصانع المطلق سبحانه .

قوله عليه السلام : « ولتحوّل دليلا بعد أن كان مدلولاً عليه » ، يقول : إنا وجدنا دليلنا على البارى سبحانه ، إنما هو الأجسام المتحركة ، فلو كان البارى متحركاً لكان دليلا على غيره ، وكان فوقه صانع آخر صنعه وأحدثه ، لكنه سبحانه لا صانعَ له ولا ذات فوق ذاته ، فهو المدلول عليه والمنتهى إليه

قوله عليه السلام : « وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ماأثر فى غيره » ، فى هذا الكلام يتوهّم سامعه أنه عطف على قوله : « لتفاوتت » و « لتجزأ » و « لامتنع »

و « لكان له » « ولالتمس » و « لقامت » و « لتحوّل » وليس كذلك ، لأنه لو كان معطوفا عليها لاختلّ الكلام وفسد ، لأنها كلها مستحيلات عليه تعالى ، والمراد لو تحرّك لزم هذه الحالات كلّها .

وقوله : « وخرج بسلطان الامتناع » ليس من المستحيلات عليه ، بل هو واجب له ، ومن الأمور الصادقة عليه ، فإذا فسد أن يكون معطوفا عليها وجب أن يكون معطوفا على ما كان مدلولا عليه ، وتقدير الكلام : كان يلزم أن يتحوّل البارى دليلا على غيره ، بعد أن كان مدلولا عليه ، وبعد أن خرج بسلطان الامتناع من أن يؤثّر فيه ما أثّر فى غيره ، وخروجه بسلطان الامتناع المراد به وجوب الوجود والتجريد وكونه ليس بمتحيّز ولا حالّ فى المتحيّز ، فهذا هو سلطان الامتناع الذى به خرج عن أن يؤثّر فيه ما أثّر فى غيره من الأجسام والممكنات .

• • •

الأصل :

الَّذِى لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْأُفُولُ . لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُودًا ، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً . جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَبْنَاءِ ، وَطَهُرَ عَنْ مُلَامَسَةِ النِّسَاءِ ، لَا تَنَالُهُ الْأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ الْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ ، وَلَا تَلْمِسُهُ الْأَيْدِى فَتَمَسَّهُ ، وَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ ، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِى الْأَحْوَالِ ، وَلَا تُبْلِيهِ اللَّيَالِى وَالْأَيَّامُ ، وَلَا يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلَامُ .

• • •

الشرح :

هذا الفصل كلّه واضح مستغنٍ عن الشرح ، إلا قوله عليه السلام : « لم يلد

فيكون « مولودا » ، لأنّ لقائل أن يقول : كيف يلزم من فرض كونه والدا أن يكون مولودا ؟ فنقول فى جوابه : إنه ليس معنى الكلام أنه يلزم من فرض وقوع أحدهما وقوع الآخر ، وكيف وآدم والد وليس بمولود ! وإنّما المراد أنه يلزم من فرض صحّة كونه والداً صحّة كونه مولودا ، والتالى محال ، والمقدّم محال ، وإنما قلنا : إنه يلزم من فرض صحّة كونه والدا صحة كونه مولودا ، لأنه لو صحّ أن يكون والدا على التفسير المفهوم من الوالديّة، وهو أن يتصوّر من بعض أجزائه حىّ آخر من نوعه على سبيل الاستحالة لذلك الجزء كما نعقله فى النُّطفة المنفصلة المستحيلة من الإنسان المستحيلة إلى صورة أخرى ؛ حتى يكون منها بشر آخر من نوع الأول لصحّ عليه أن يكون هو مولودا من والد آخر قبله ، وذلك لأنّ الأجسام متماثلة فى الجسميّة ، وقد ثبت ذلك بدليل عقلىّ واضح فى مواضعه التى هى أملك به ، وكلّ مِثلَين فإنّ أحدهما يصحّ عليه ما يصحّ على الآخر ، فلو صحّ كونُه والدا يصحّ كونه مولودا .

وأمّا بيان أنّه لا يصحّ كونه مولودا ، فلأنّ كلّ مولود متأخّر عن والده بالزّمان ، وكلّ متأخر عن غيره بالزّمان محدَث ، فالمولود محدَث والبارى تعالى قد ثبت أنّه قديم ، وأنّ الحدوث عليه محال ، فاستحال أن يكون مولودا ، وتمّ الدليل .

* * *

الأصْـلُ :

وَلَا يُوصَفُ بِشَىْءٍ مِنَ الأَجْزَاءِ ، ولا بِالجَوَارِحِ والأَعْضَاءِ ، ولا بِعَرَضٍ مِنَ الأَعْرَاضِ ، ولَا بِالغَيْرِيَّةِ والأَبْعَاضِ ، ولَا يُقَالُ : لَهُ حَدٌّ ولا نِهايَةٌ ، ولا انْقِطاعٌ ولا غايَةٌ ؛ ولا أنّ الأشياءَ تَحْوِيهِ ؛ فَتُقِلَّهُ أو تُهْوِيَهُ ، أو أنّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ ، فَيُمِيلَهُ

أَوْ يُمْدُّهُ . لَيْسَ فِي الأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ ، ولا عَنْهَا بِخَارِجٍ .

يُخْبِرُ لا بِلِسَانٍ ولَهَوَاتٍ ، ويَسْمَعُ لا بِخُرُوقٍ وأَدَوَاتٍ ، يَقُولُ ولا يَلْفِظُ ، ويَحْفَظُ ولا يَتَحَفَّظُ ، ويُرِيدُ ولا يُضْمِرُ .

يُحِبُّ ويَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ ، ويُبْغِضُ ويَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ ، يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ : كُنْ فَيَكُونُ .

لا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ ، ولا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ ، وَإِنَّمَا كَلامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِناً ، ولَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلٰهاً ثَانِياً .



الشرح :

في هذا الفصل مباحث :

أولها : أنّ البارى سُبحانه لا يوصَف بشيء من الأجزاء ، أى ليس بمركّب ؛ لأنه لو كان مركّبا لافتقر إلى أجزائه ، وأجزاؤه ليست نفس هويّتـه ، وكلّ ذاتٍ تفتقر هويّتها إلى أمر من الأمور فهى ممكنة ؛ لكنّه واجب الوجود ، فاستحال أن يوصَف بشيء من الأجزاء .

وثانيها: أنّه لا يوصَف بالجوارح والأعضاء كما يقول مثبتو الصورة ، وذلك لأنّه لو كان كذلك لكان جسماً ، وكلّ جسم ممكن ، وواجب الوجود غير ممكن .

وثالثها : أنّه لا يوصَفُ بعرَض من الأعراض كما يقوله الكرّامية ؛ لأنه لوحلّه العَرَض لكان ذلك العَرَض ليس بأنْ يَحُلّ فيه أولى من أن يحلّ هو فى العرَض ، لأنّ معنى

الحلول حصول العَرَض فى حيّز المحلّ تبعا لحصول المحلّ فيه ، فما ليس بمتحيّز لا يتحقّق فيه معنى الحُلول ، وليس بأن يجعل محلا أَوْلَى من أن يجعل حالًّا !

ورابعها : أنّه لا يوصف بالجزئيّة والأبعاض ، أى ليس له بَعْض ، ولا هو ذو أقسام بعضها غيراً للبعض الآخر ، وهذا يرجع إلى البحث الأول .

وخامسها : أنّه لاحدّ له ولا نهاية ، أى ليس ذا مقدار ، ولذلك المقدار طرَف ونهاية ، لأنه لو كان ذا مقدار لـكان جسما ، لأنّ المقدار من لوازم الجسميّة ، وقد ثبت أنّه تعالى ليس بجسم .

وسادسها : أنّه لا انقطاع لوجوده ، ولا غاية ، لأنه لو جاز عليه العدم فى المستقبل لـكان وجوده الآن متوقفا على عدم سبب عدمه ، وكلّ متوقف على الغير فهو ممكن فى ذاته ، والبارى تعالى واجب الوجوب ، فاستحال عليه العدم ؛ وأن يكون لوجوده انقطاع ، أو ينتهى إلى غاية يعدم عندها .

وسابعها : أنّ الأشياء لا تحويه فتقله ؛ أى ترفعه ، أو تهويه ؛ أى تحطه هاويا إلى جهة تحت ، لأنه لو كان كذلك لـكان ذا مقدار أصغر من مقدار الشىء الحاوى له ، لـكنْ قد بيّنا أنه يستحيل عليه المقادير ، فاستحال كونه محويًّا .

وثامنها : أنّه ليس يحمله شىء فيميله إلى جانب ، أو يعدّ له بالنّسبة إلى جميع الجوانب ، لأنّ كلّ محمول مقدّر ، وكل مقدّر جسم ، وقد ثبت أنّه ليس بجسم .

وتاسعها : أنه ليس فى الأشياء بوالج ، أى داخل . ولا عنها بخارج ، هذا مذهب الموحّدين ؛ والخلاف فيه مع الكرّامية والمجسّمة ، وينبغى أن يفهم قوله عليه السلام : « ولا عنها بخارج » أنّه لا يريد سلبَ الولُوج ، فيكون قد خلا من النّقيضين ، لأنّ ذلك محال ، بل المراد بكونه ليس خارجا عنها أنّه ليس كما يعتقده كثيرٌ من الناس ؛ أنّ الفلك الأعلى المحيط لا يحتوى

عليه؛ ولكنّه ذاتٌ موجودة متميّزة بنفسها، قائمة بذاتها، خارجة عن الفلَك في الجهة العليا، بينها وبين الفلك بعدٌ، إمّا غير متناهٍ ـ على مايحكى عن ابن الهيصم ـ أو متناهٍ على مايذهب إليه أصحابه؛ وذلك أنّ هذه القضيّة، وهى قولنا: البارى خارج عن الموجودات كلّها على هذا التفسير ليست مناقضة لقضيّة الأولى، وهى قولنا: البارى داخل العالم، ليكون القول بخلوّه عنهما قولاً بخروجه عن النقيضين، ألا ترى أنّه يجوز أن تكون القضيّتان كاذبتين معاً، بألّا يكون الفلك المحيط محتويا عليه، ولا يكون حاصلا فى جهة خارج الفلك، ولو كانت القضيتان متناقضتين لما استقام ذلك، وهذا كما تقول: زيد فى الدار زيد فى المسجد، فإنّ هاتين القضيّتين ليستا متناقضتين، لجواز ألّا يكون زيد فى الدار، ولا فى المسجد، فإنّ هاتين ولو تناقضتا لاستحال الخروج عن النقيضين، لكن المتناقض: «زيد فى الدار، زيد ليس فى الدار»، والذى يستشنعه العوامّ من قولنا: «البارى لا داخل العالم ولا خارج العالم». غلطٌ مبنىّ على اعتقادهم وتصوّرهم أنّ القضيتين تتناقضان، وإذا فهم ماذكرناه بان أنّه ليس هذا القولَ شنيع؛ بل هو سهل وحقّ أيضا، فإنّه تعالى لا متحيّز ولا حالّ فى المتحيّز، وما كان كذلك استحال أن يحصل فى جهة: لا داخل العالم ولا خارج العالم، وقد ثبت كونُه غير متحيّز ولا حالّ فى المتحيّز، من حيث كان واجب الوجود، فإذن القولُ بأنّه ليس فى الأشياء والجاً ولا عنها بخارج صواب وحقّ.

وعاشرها: أنّه تعالى يخبر بلا لسان ولهوات؛ وذلك لأنّ كونه تعالى مخبراً هو كونه فاعلا للخبر، كما أنّ كونه ضاربا هو كونه فاعلا للضرب، فكما لا يحتاج فى كونه ضاربا إلى أداة وجارحة يضرب بها كذلك لا يحتاج فى كونه مخبرا إلى لسان ولهوات يخبر بهـا.

وحادى عشرها: أنّه تعالى يسمع بلا حروف وأدوات، وذلك لأنّ البارى سبحانه حىّ لا آفة به؛ وكلّ حىّ لا آفة به، فواجب أن يسمع المسموعات، ويبصر المبصرات، ولا

حاجة به سبحانه إلى حروف وأدوات ، كما نحتاج نحن إلى ذلك ، لأنّا أحياء بحياة تحلّنا ، والبـــاري تعالى حيّ لذاته ، فلمّا افترقنا فيما به كان سامعا ومبصرا ، افترقنا في الحاجة إلى الأدوات والجوارح .

وثاني عشرها : أنّه يقول ولا يتلفظ، هذا بحث لفظيّ، وذلك لأنه قد ورد السمع بتسميته قائلا، وقد تكرر في الـكتاب العزيز ذكر هذه اللفظة ، نحو قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى﴾[1] ﴿وقال الله إنّي معكم﴾[2]، ولم يرد في السمع إطلاق كونه متلفظا عليه، وفي إطلاقه إيهام كونه ذا جارحة ، فوجب الاقتصار على ما ورد ، وترك مالم يرد .

وثالث عشرها : أنّه تعالى يحفظُ ولا يتحفّظ ؛ أمّا كونه يحفظ فيطلق على وجهين : أحدهما أنه يحفظ بمعنى أنه يحصي أعمال عباده ويعلمها ، والثاني كونه يحفظهم ويحرسهم من الآفات والدّواهي . وأمّا كونه لا يتحفظ فيحتمل معنيين . أحدهما أنّه لا يجوز أن يطلق عليه أنه يتحفّظ الكلام ، أي يتـكلّف كونه حافظا له ومحيطا وعالما به ، كالواحد منـا يتحفّظ الدرس ليحفظه ، فهو سبحانه حافظٌ غير متحفّظ . والثاني أنه ليس بمتحرّز ولا مشفق على نفسه خوفا أن تبدر إليه بادرة من غيره .

ورابع عشرها : أنه لا يريد ولا يضمر ، أمّا كونه مريداً فقد ثبت بالسّمع نحو قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ﴾[3] ، وبالعقل لاختصاص أفعاله بأوقات مخصوصة ، وكيفيّات مخصوصة ، جاز أن تقع على خلافها ، فلا بدّ من مخصّص لهـا بما اختصّت به ؛ وذلك كونه مريدا ، وأمّا كونه لا يضمر فهو إطلاق لفظيّ لم يأذن فيه الشّرع ، وفيه إيهام كونه ذا قلب ، لأنّ الضمير في العرف اللغويّ ما استكنّ في القلب، والبارى ليس بجسم .

---

(١) سورة المائدة ١١٠

(٢) سورة المائدة ١٢

(٣) سورة البقرة ١٨٥

وخامس عشرها : أنه يحبّ ويرضى من غير رقّة ، ويبغض ويغضب من غير مشقّة ، وذلك لأنّ محبته للعبد إرادته أن يثيبه ، ورضاه عنه أن يحمد فعله ، وهذا يصحّ ويطلق على البارى ، لا كإطلاقه علينا ، لأنّ هذه الأوصاف يقتضى إطلاقها علينا رقّة القلب ، والبارى ليس بجسم ، وأما بغضه للعبد فإرادة عقابه وغضبه كراهية فعله ووعيده بإنزال العقاب به ، وفى الأغلب إنما يطلق ذلك علينا ويصحّ منا مع مشقّة تنالنا من إزعاج القلب وغليان دمه ، والبارى ليس بجسم .

وسادس عشرها : أنه يقول لما أراد كونه: كن؛ فيكون من غير صوت يقرع ، ولا نداء يسمع ، هذا مذهب شيخنا أبى الهذيل ، وإليه يذهب الكرامية وأتباعها من الحنابلة وغيرهم ، والظاهر أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أطلقه حملاً على ظاهر لفظ القرآن فى مخاطبة الناس بما قد سمعوه وأنسوا به ، وتكرّر على أسماعهم وأذهانهم ، فأمّا باطن الآية وتأويلها الحقيقىّ فغير ما يسبق إلى أذهان العوامّ ، فليطلب من موضعه .

وسابع عشرها : أنّ كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ، ومثله لم يكن من قبل ذلك كائنا ، ولو كان قديما لكان إلها ثانيا ، هذا هو دليل المعتزلة على نفى المعانى القديمة التى منها القرآن ، وذلك لأنّ القِدَم عندهم أخصّ صفات البارى تعالى ، أو موجب عن الأخصّ ، فلو أنّ فى الوجود معنى قديما قائما بذات البارى ؛ لكان ذلك المعنى مشاركا للبارى فى أخصّ صفاته ، وكان يجب لذلك المعنى جميع ما وجب للبارى من الصفات، نحو العالميّة والقادريّة وغيرهما ، فكان إلها ثانيا .

* * *

فإن قلت : ما معنى قوله عليه السلام « ومثّله » ؟

قلت : يقال: مثّلت له كذا تمثيلا ، إذا صوّرت له مثاله بالكتابة أو بغيرها ، فالبارى مثّل القرآن لجبريل عليه السلام بالكتابة فى اللّوح المحفوظ فأنزله على محمد صلى الله عليه

وآله . وأيضاً يقال : مثل زيد بحضرتي إذا حضر قائماً ، ومثله بين يدي زيد أي أحضرته منتصباً، فلمّا كان الله تعالى فصّل القرآن واضحاً بيناً كان قد مثّله للمكلفين .

● ● ●

الأصل :

لَا يُقَالُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ، فَتَجْرِيَ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ وَلَا يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَصْلٌ ، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ ، فَيَسْتَوِيَ الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ ، وَيَتَكَافَأَ الْمُبْتَدَعُ وَالْبَدِيعُ .

خَلَقَ الْخَلَائِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، وَأَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اشْتِغَالٍ ، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ ، وَحَصَّنَهَا مِنَ الْأَوَدِ وَالِاعْوِجَاجِ ، وَمَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ وَالِانْفِرَاجِ .

أَرْسَى أَوْتَادَهَا ، وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا ، وَاسْتَفَاضَ عُيُونَهَا ، وَخَدَّ أَوْدِيَتَهَا ؛ فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ ، وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ .

● ● ●

الشرح :

عاد عليه السلام إلى تنزيه البارى تعالى عن الحدوث ، فقال : لا يجوز أن يوصف به فتجرى عليه الصّفات المحدَثات كما تجرى على كل محدَث ، وروى : « فتجرى عليه صفات المحدَثات » وهو أليق ، ليعود إلى المحدَثات ذوات الصفات مابعده ؛ وهو قوله عليه السلام : « ولا يكون بينه وبينها فصل » ، لأنه لا يحسن أن يعود الضمير فى قوله : « وبينها » إلى « الصفات » بل إلى « ذوات الصفات » .

قال : لو كان محدثًا لجرت عليه صفات الأجسام المحدثة ، فلم يكن بينه وبين الأجسام المحدثة فرق ، فكان يستوى الصانع والمصنوع ، وهذا محال .

ثم ذكر أنه خلق الخلق غير محتذٍ لمثال ، ولا مستفيد من غيره كيفيّة الصنعة ، بخلاف الواحد منّا ، فإنّ الواحد منّا لابدّ أن يحتذِىَ في الصنعة ، كالبنّاء والنجّار والصّانع وغيرها .

قال عليه السلام : « ولم يستعن على خلقها بأحدٍ من خلقه » ، لأنه تعالى قادر لذاته لا يُعجزه شيء .

ثم ذكر إنشاءه تعالى الأرض ، وأنه أمسكها من غير اشتغال منه بإمساكها ، وغير ذلك من أفعاله وعلوفاته ؛ ليس كالواحد منّا يمسك الثقيل فيشتغل بإمساكه عن كثير من أموره .

قال : « وأرساها » ، يعنيها راسية على غير قرار تتمكّن عليه ، بل واقفة بإرادته التى اقتضت وقوفها ، أو لأنّ الفلك يجذبها من جميع جهاتها ـ كما قيل ـ أو لأنّه يدفعها من جميع جهاتها ، أو لأنّ أحد نصفيها صاعد بالطبع ، والآخر هابط بالطبع ، فاقتضى التعادل وقوفها ، أو لأنّها طالبة للمركز فوقفت .

والأوَد : الاعوجاج ، وكرّر لاختلاف اللفظ .

والتهافت : التساقط . والأسداد : جمع سدّ ، وهو الجبل ، ويجوز ضم السين .

واستفاض عيونها ، بمعنى أفاض ، أى جعلها فائضة .

وخدّ أوديتها ، أى شقها . فلم يهن ما بناه ، أى لم يضعف .

* * *

الأصْلُ :

هُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَهُوَ الْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ ، وَالْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلَالِهِ وَعِزَّتِهِ ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبَهُ ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبَهُ ، وَلَا يَفُوتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقَهُ ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيَرْزُقَهُ .

خَضَعَتِ الْأَشْيَاءُ لَهُ ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ ، لَا تَسْتَطِيعُ الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَضَرِّهِ ، وَلَا كُفْءَ لَهُ فَيُكَافِئَهُ ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ .

هُوَ الْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا ، وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ابْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَاخْتِرَاعِهَا ، وَكَيْفَ وَلَوِ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا - مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا ، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَسَائِمِهَا ، وَأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا وَأَجْنَاسِهَا ، وَمُتَبَلِّدَةِ أُمَمِهَا وَأَكْيَاسِهَا - عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ ، مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا ، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى إِيجَادِهَا ، وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ ، وَعَجَزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً ، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ ، مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا ، مُذْعِنَةً بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا !

● ● ●

الشَّرْحُ :

الظاهر : الغالب القاهر ، والباطن : العالم الخبير .

والمُراح بضم الميم : النَّعم ترد إلى المُراح ، بالضم أيضا ؛ وهو الموضع الذى تأوى إليه النَّعم ، وليس المُراح ضدّ السائم على مايظنّه بعضهم ، ويقول : إنّ عطف أحدهما على الآخر عطف

على المختلف والمتضادّ ، بل أحدهما هو الآخر وضدهما للملوفة ، وإنما عطف أحدهما على الآخر على طريقة العرب فى الخطابة ، ومثله فى القرآن كثير ، نحو قوله سبحانه : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ (١) .

وأسناحها : جمع سِنْح بالكسر ، وهو الأصل .

وقوله : « لو اجتمع جميع الحيوان على إحداث بعوضة » ، هو معنى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ (٢) .

فإن قلت : مامعنى قوله : « لا تستطيع الهربَ من سُلْطانه إلى غيره فتمتنع مِنْ نَفْعِه وضرّه »؟ وهلّا قال : « من ضرّه » ؟ ولم يذكر النفع ، فإنه لا معنى لذكره هاهنا !

قلت : هذا كما يقول المعتصم بمعقل حصين من غيره: مايقدر اليوم فلان لى على نفع ولا ضرّ ، وليس غرضه إلّا ذكر الضرر ، وإنما يأتى بذكر النفع على سبيل سلب القدرة من فلان على كلّ مايتعلق بذلك المعتصم ، وأيضا فإنّ العفو عن المجرم نفعٌ له ، فهو عليه السلام يقول : إنه ليس شىء من الأشياء يستطيع أن يخرج إذا أجرم من سلطان الله تعالى إلى غيره فيمتنع من بأس الله تعالى ، ويستغنى عن أن يعفو عنه لعدم اقتداره عليه .

* * *

الأصل :

وَإِنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ ٱلدُّنْيَا وَحْدَهُ لَا شَيْءَ مَعَهُ ، كَمَا كَانَ قَبْلَ ٱبْتِدَائِهَا ، كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا ؛ بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ ، وَلَا حِينٍ وَلَا زَمَانٍ . عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ ٱلْآجَالُ وَٱلْأَوْقَاتُ ، وَزَالَتِ ٱلسِّنُونُ وَٱلسَّاعَاتُ ، فَلَا شَيْءَ

---

(١) سورة فاطر ٣٥ (٢) سورة الحج ٧٣

إِلَّا ٱللهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ؛ ٱلَّذِى إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ ٱلْأُمُورِ .

بِلَاقُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ٱبْتِدَاءُ خَلْقِهَا ، وَبِغَيْرِ ٱمْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا ، وَلَوْ قَدَرَتْ عَلَى ٱلِامْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا .

لَمْ يَتَكَاءَدْهُ صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ ، وَلَمْ يَؤُدْهُ مِنْهَا خَلْقُ مَا بَرَأَهُ وَخَلَقَهُ ، وَلَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ ، وَلَا لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنُقْصَانٍ ، وَلَا لِلِاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نِدٍّ مُكَاثِرٍ ، وَلَا لِلِاحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِرٍ ، وَلَا لِلِازْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ ، وَلَا لِمُكَاثَرَةِ شَرِيكٍ فِي شِرْكِهِ ، وَلَا لِوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا . ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا ؛ لَا لِسَأَمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصْرِيفِهَا وَتَدْبِيرِهَا ، وَلَا لِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ ، وَلَا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ ، لَا يُمِلُّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوَهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ ، وَأَتْقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا ، وَلَا ٱسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا ، وَلَا لِانْصِرَافٍ مِنْ حَالِ وَحْشَةٍ إِلَى حَالِ ٱسْتِئْنَاسٍ ، وَلَا مِنْ حَالِ جَهْلٍ وَعَمًى إِلَى حَالِ عِلْمٍ وَٱلْتِمَاسٍ ، وَلَا مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ ؛ إِلَى غِنًى وَكَثْرَةٍ ، وَلَا مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ ؛ إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ .

• • •

الشَّرْحُ :

شرع أوّلا فى ذكر إعدام الله سبحانه الجواهر وما يتبعها ويقوم بها من الأعراض قبل القيامة ، وذلك لأنّ الكتاب العزيز قد ورد به ، نحو قوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾[1] ؛ ومعلوم أنه بدأه عن عدم ، فوجب أن تكون الإعادة عن عدم أيضا. وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾[2] ؛ وإنما كان أوّلا لأنه كان موجودا ، ولا شىء من

(١) سورة الأنبياء ١٠٤
(٢) سورة الحديد ٣

الأشياء بموجود ، فوجب أن يكون آخرا كذلك ، هـذا هو مذهب جمهور أصحابنا وجمهور المسلمين .

ثم ذكر أنه يكون وحده سبحانه بلا وقت ولا مكان ، ولا حين ولا زمان ، وذلك لأنّ المكان إمّا الجسم الذى يتمكّن فيه جسم آخر ، أو الجهة ، وكلاهما لا وجود له بتقدير عدم الأفلاك وما فى حشوها من الأجسام ، أما الأوّل فظاهر ، وأما الثانى فلأنّ الجهة لا تتحقّق إلا بتقدير وجود الفلك ، لأنها أمرٌ إضافىٌّ بالنسبة إليه ، فبتقدير عدمه لا يبقى للجهة تحقّق أصلا ، وهذا هو القول فى عدم المكان حينئذ ، وأما الزّمان والوقت والحين فكلّ هذه الألفاظ تعطى معنًى واحدا ، ولا وجود لذلك المعنى بتقدير عدم الفلك ، لأنّ الزمان هو مقدار حركة الفلك ، فإذا قدّرنا عدم الفلك فلا حركة ولا زمان .

ثم أوضح عليه السلام ذلك وأكّده ، فقال : « عدمت عند ذلك الآجال والأوقات ، وزالت السنون والساعات » ، لأنّ الأجل هو الوقت الذى يحلّ فيه الدّين أو تبطل فيه الحياة ، وإذا ثبت أنّه لا وقت ، ثبت أنه لا أجل ، وكذلك لا سنة ولا ساعة ، لأنها أوقات مخصوصة .

ثم عاد عليه السلام إلى ذكر الدنيا ، فقال : « بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها ، وبغير امتناع منها كان فناؤها » ؛ يعنى أنها مسخّرة تحت الأمر الإلهى .

قال : « ولو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها » ، لأنها كانت تكون ممانعة للقديم سبحانه فى مراده ، وإنّما تمانعه فى مراده لو كانت قادرة لذاتها ، ولو كانت قادرة لذاتها وأرادت البقاء لبقيت .

قوله عليه السلام : « لم يتكاءده » بالمدّ أى لم يشقّ عليه ؛ ويجوز « لم يتكأّده » بالتشديد والهمزة ، وأصله من العقبة الكئود ، وهى الشاقة .

قال : « ولم يؤده » أى لم يثقله .

ثم ذكر أنه تعالى لم يخلق الدنيا ليشدّ بها سلطانه،ولالخوف من زوال أونقص يلحقه، ولا ليستعين بها على ندّ مماثل له ، أو يحترز بها عن ضدّ محارب له ، أو ليزداد بها ملكه ملكا ، أو ليُكاثر بها شريكاً فى شركته له ، أو لأنّه كان قبل خلقها مستوحشاً فأراد أن يستأنس بمَنْ خلق .

ثم ذكرأنه تعالى : « سيُفنيها بعد إيجادها » لالضجر لحقه فى تدبيرها، ولالراحة تصلُه فى إعدامها ، ولا لثقل شىء منها عليه حال وجودها ، ولا لملل أصابه فيبعثه على إعدامها .

ثم عاد عليه السلام ، فقال : إنّه سبحانه سيعيدها إلى الوجود بعد الفناء ، لا لحاجة إليها ولا ليستعين ببعضها على بعض ، ولا لأنه استوحش حال عدمها فأحبّ أن يستأنس بإعادتها ، ولا لأنه فقد علماً عند إعدامها فأراد بإعادتها استجداد ذلك العلم ، ولا لأنّه صار فقيراً عند إعدامها فأحبّ أن يتكثّر ويُثرى بإعادتها ، ولا لذلّ أصابه بإفنائها فأراد العزّ بإعادتها .

فإن قلت : إذا كان يفنيها لا لكذا ولا لكذا ، وكان من قبلُ أوجدها لا لكذا ولا لكذا ، ثم قلتم : إنه يعيدها لا لكذا ولا لكذا ، فلأىّ حال أوجدها أولًا ، ولأىّ حال أفناها ثانيا ، ولأىّ حال أعادها ثالثاً ؟ خبِّرُونا عن ذلك ، فإنكم قد حكيتم عنه عليه السلام الحكم ولم تحكُوا عنه العلّة !

قلت : إنما أوجدها أولا للإحسان إلى البشر ليعرفوه ، فإنّه لولم يوجدهم لبقىَ مجهولا لا يعرف ، ثم كلّف البشر ليُعرّضهم للمثوبة الجليلة التى لا يمكن وصولهم إليها إلا بالتكليف وهى الثواب ، ثم يفنيهم لأنّه لابدّ من انقطاع التكليف ليخلص الثواب من مشاقّ التكاليف ؛ وإذا كان لابدّ من انقطاعه فلا فرقَ بين انقطاعه بالعدم المطلق ،

أو تفريق الأجزاء ، وانقطاعه بالعدم المطلق قد ورد به الشرع ، وفيه لطف زائد للمكلّفين ، لأنّه أردع وأهيب فى صدورهم من بقاء أجزائهم ، واستمرار وجودها غير معدومة .

ثم إنه سبحانه يبعثهم ويعيدُهم ليوصّل إلى كلّ إنسان مايستحقّه من ثواب أوعقاب، ولا يمكن إيصال هذا للمستحقّ إلا بالإعادة ، وإنّما لم يذكر أمير المؤمنين عليه السلام هذه التعليلات ، لأنه قد أشار إليها فيما تقدّم من كلامه ، وهى موجودة فى فرش خُطَبه ، ولأنّ مقام الموعظة غير مقام التعليل ، وأمير المؤمنين عليه السلام فى هذه الخطبة يسلُك مسلك الموعظة فى ضمن تمجيد البارى سبحانه وتعظيمه ، وليس ذلك بمظنّة التعليل والحجاج .

(٢٣٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام ، تختص بذكر الملاحم :

أَلَا بِأَبِي وَأُمِّي هُمْ مِنْ عِدَّةٍ أَسْمَاؤُهُمْ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ ، وَفِي الْأَرْضِ مَجْهُولَةٌ .
أَلَا فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِدْبَارِ أُمُورِكُمْ ، وَانْقِطَاعِ وُصَلِكُمْ ، وَاسْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ .

ذَاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدِّرْهَمِ مِنْ حِلِّهِ ! ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُعْطَى أَعْظَمَ أَجْراً مِنَ الْمُعْطِي ! ذَاكَ حَيْثُ تَسْكَرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ ، بَلْ مِنَ النِّعْمَةِ وَالنَّعِيمِ ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَارٍ ، وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْرَاجٍ !
ذَاكَ إِذَا عَضَّكُمُ الْبَلَاءُ ، كَمَا يَعَضُّ الْقَتَبُ غَارِبَ الْبَعِيرِ . مَا أَطْوَلَ هَذَا الْعَنَاءَ ! وَأَبْعَدَ هَذَا الرَّجَاءَ !

أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلْقُوا هَذِهِ الْأَزِمَّةَ الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورُهَا الْأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ ، وَلَا تَصَدَّعُوا عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَذُمُّوا غِبَّ فِعَالِكُمْ ، وَلَا تَقْتَحِمُوا مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ نَارِ الْفِتْنَةِ ، وَأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِهَا ، وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَهَا ؛ فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَا الْمُؤْمِنُ ، وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ . إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السِّرَاجِ فِي الظُّلْمَةِ يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا .
فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا ، وَأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا .

•••

الشَّرحُ :

الإمامية تقول : هذه العدّة هم الأئمة الأحد عشر من ولده عليه السلام . وغيرهم يقول : إنه عَنَى بالأبدال الذين هم أولياء الله فى الأرض ، وقد تقدّم منّا ذكر القطب والأبدال ، وأوضحنا ذلك إيضاحا جليًّا .

قوله عليه السلام : « أسماؤهم فى السماء معروفة » ، أى تعرفها الملائكة المعصومون ، أعلمهم الله تعالى بأسمائهم .

وفى الأرض مجهولة ، أى عند الأكثرين لاستيلاء الضلال على أكثر البشر .

ثم خرج إلى مخاطبة أصحابه على عادته فى ذكر الملاحم والفتن الكائنة فى آخر زمان الدنيا ، فقال لهم : توقّعوا مايكون من إدبار أموركم ، وانقطاع وُصَلكم ، جمع وُصْلة .

واستعمال صغاركم ، أى يتقدّم الصغار على الكبار ، وهو من علامات الساعة .

قال : ذاك حيث يكون احتمال ضربة السيف على المؤمن أقل مشقة من احتمال المشقة فى اكتساب درهم حلال ، وذلك لأنّ المكاسب تكون قد فسدت واختلطت ، وغلب الحرام والحلال فيها .

قوله : « ذاك حيث يكون المعطَى أعظم أجرا من المعطِى » ، معناه أن أكثر من يعطى ويتصدّق فى ذلك الزمان يكون ماله حراما فلا أجرَ له فى التصدّق به ، ثم أكثرهم يقصد الرّياء والسُّمعة بالصدقة أو لهوى نفسه ، أو لخطرة من خطراته ، ولا يفعل الحسن لأنّه حَسَن ، ولا الواجب لوجوبه ، فتكون اليدُ السفلى خيراً من اليد العليا ، عكس ماورد فى الأثر ، وأمّا المعطَى فإنه يكون فقيرا ذا عيال ، لا يلزمه أن يبحث عن المال أحرام هو أم حلال ! فإذا أخذه ليسدّ به خَلّته ، ويصرفه فى قوت عياله ، كان أعظم أجراً ممن أعطاه .

وقد خطر لي فيه معنى آخر ، وهو أن صاحب المال الحرام إنما يصرفه في أكثر الأحوال وأغلبها في الفساد وارتكاب المحظور ، كما قال : « من اكتسب مالا من مَهَاوِش ، أذهبه الله في نهابر »[1] . فإذا أخذه الفقير منه على وجه الصدقة فقد فوّت عليه صرفه في تلك القبائح والمحظورات التي كان بعرضه صرف ذلك القدر فيها لو لم يأخذه الفقير ، فإذاً قد أحسن الفقير إليه بكفّه عن ارتكاب القبيح ، ومن العصمة ألا يقدر ، فكان للمعطَى أعظمُ أجرا من المعطي .

قوله عليه السلام : « ذلك حيث تسكرون من غير شراب ، بل من النَّعمة » ، بفتح النون ، وهي غضارة العيش ، وقد قيل في المثل : سُكْر الهوى أشدّ من سُكْر الخمر .

قال : « تحلفون من غير اضطرار » أي تتهاونون باليمين وبذكر الله عزّ وجلّ .

قال : « وتكذبون من غير إحراج » أي يصير الكذب لكم عادة ودُرْبة ، لا تفعلونه لأنّ آخر منكم قد أحرجكم واضطركم بالغيظ إلى الحلف ، وروى من غير « إحواج » بالواو أي من غير أن يُحوجكم إليه أحد .

قال : ذلك إذا عَضّكم البلاء كما يعضّ القتبُ غاربَ البعير . هذا الكلام غير متصل بما قبله ، وهذه عادة الرضيّ رحمه الله يلتقط الكلام التقاطا ، ولا يتلو بعضه بعضا ، وقد ذكرنا هذه الخطبة أو أكثرها فيما تقدّم من الأجزاء الأُول ، وقبل هذا الكلام ذكر ماينال شيعته من البؤس والقنوط ومشقة انتظار الفرج .

قوله عليه السلام : « ما أطول هذا العناء ، وأبعد هذا الرجاء ! » هذا حكاية كلام شيعته وأصحابه .

---

(1) المهاوش : المظالم ، والنهابر : المهالك ؛ وانظر النهاية لابن الأثير ٤ : ١٨٦

ثم قال مخاطبا أصحابه الموجودين حوله : أيها الناس ، ألقُوا هذه الأزمّة التي تحمل ظهورُها الأثقال عن أيديكم ؛ هذه كناية عن النّهي عن ارتكاب القبيح وما يوجب الإثم والعقاب . والظهور هاهنا : هي الإبل أنفسها . والأثقال : المآثم . وإلقاء الأزمّة : ترك اعتماد القبيح ، فهذا عمومه ، وأمّا خصوصه فتعريض بما كان عليه أصحابه من الغدْر ومخاسرة العدوّ عليه ، وإضمار الغِل والغشّ له ، وعصيانه والتلوّي عليه ، وقد فسّره بما بعده فقال : « ولا تصدّعوا عن سلطانكم » أي لا تفرّقوا « فتذمّوا غِبّ فعالكم » ، أي عاقبته .

ثم نهاهم عن اقتحام ما استقبلوه من فَوْر نارِ الفتنة ، وفَوْر النار : غليانها واحتدامُها ، ويروى : « ما استقبلكم » .

ثم قال : « وأميطوا عن سَنَنها » أي تنحّوا عن طريقها ، وخلّوا قصْد السبيل لها ، أي دعوها تسلك طريقها ولا تقفوا لها فيه فتكونوا حطباً لنارها .

ثم ذكر أنّه قد يهلك المؤمن في لهبها ، ويسلَم فيه الكافر ؛ كما قيل : المؤمن ملقّى والكافر موقّى .

ثم ذكر أن مثله فيهم كالسِّراج يستضيء بها من وَلَجها ؛ أي دخل في ضوءها .

وآذانُ قلوبكم ؛ كلمة مستعارة ، جعل للقلب آذانا كما جعل الشاعر للقلوب أبصارا ، فقال :

يَدِقّ على النواظر ما أتاهُ   فتُبصِره بأبصار القلوبِ

(٢٣٤)

الأصل:

ومن خطبة له عليه السلام:

أُوصِيكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ بِتَقْوَى اللهِ وَكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَى آلَائِهِ إِلَيْكُمْ، وَنَعْمَائِهِ عَلَيْكُمْ، وَبَلَائِهِ لَدَيْكُمْ، فَكَمْ خَصَّكُمْ بِنِعْمَةٍ، وَتَدَارَكَكُمْ بِرَحْمَةٍ! أَعْوَرْتُمْ لَهُ فَسَتَرَكُمْ، وَتَعَرَّضْتُمْ لِأَخْذِهِ فَأَمْهَلَكُمْ!

وَأُوصِيكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَإِقْلَالِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ، وَكَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفِلُكُمْ، وَطَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ يُمْهِلُكُمْ! فَكَفَى وَاعِظاً بِمَوْتَى عَايَنْتُمُوهُمْ، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّاراً، وَكَأَنَّ الْآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً. أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ، وَأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ، وَاشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا، وَأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ انْتَقَلُوا، لَا عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ انْتِقَالاً، وَلَا فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ ازْدِيَاداً، أَنِسُوا بِالدُّنْيَا فَغَرَّتْهُمْ، وَوَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ.

فَسَابِقُوا رَحِمَكُمُ اللهُ إِلَى مَنَازِلِكُمُ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا، وَالَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا وَدُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَاسْتَتِمُّوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَالْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّ غَداً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ.

مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ، وَأَسْرَعَ الْأَيَّامَ فِي الشَّهْرِ، وَأَسْرَعَ الشُّهُورَ فِي السَّنَةِ، وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمُرِ!

الشَّرْحُ :

أعورتم ، أى انكشفتم و بدتْ عوراتكم ، وهى للقاتل ، تقول : أعور الفارس إذا بدت مَقاتلُه ، وأعورك الصَّيْدُ إذا أمكنك منه .

قوله عليه السلام : « أوْحشوا ما كانوا يوطنون ، وأوطنوا قبورهم التى كانوا يوحشونها» .

قوله عليه السلام : « واشتغلوا بما فارقوا » ، أى اشتغلوا وهم فى القبور بما فارقوه من الأموال والقينات ، لأنها أذى وعقاب عليهم فى قبورهم ، ولولاها لكانوا فى راحة . و يجوز أن يكون حكاية حالهم وهم بعد فى الدنيا ، أى اشتغلوا أيام حياتهم من الأموال والمنازل بما فارقوه ، وأضاعوا من أمر آخرتهم ما انتقلوا إليه .

ثم ذكر أنهم لا يستطيعون فى حسنةٍ ولا توبةً من قبيح ، لأنّ التكليف سقط ، والمنازل التى أسروا بعمارتها ، المقابر ، وعمارتها الأعمال الصالحة .

وقوله عليه السلام : « إن غدا من اليوم قريب » كلام يجرى مجرى المثل ، قال :

* غدٌ ماغدٌ ما أقرب اليوم من غدِ *

والأصل فيه قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ[1] ﴾ .

وقوله عليه السلام : « ما أسرع الساعات فى اليوم ... » إلى آخر الفصل ، كلام شريف وجيز بالغ فى معناه ، والفصل كلّه نادر لا نظير له .

(١) سورة هود ٨١

الأَصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَمِنَ الإِيمانِ ما يَكُونُ ثابِتاً مُسْتَقِرّاً فِى القُلُوبِ ، وَمِنْهُ ما يَكُونُ عَوارِىَ بَيْنَ القُلُوبِ وَالصُّدُورِ ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ ، فَإِذا كانَتْ لَكُمْ بَراءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَقِفُوهُ حَتَّى يَحْضُرَهُ المَوْتُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقَعُ حَدُّ البَراءَةِ .

وَالهِجْرَةُ قائِمَةٌ عَلَى حَدِّها الأَوَّلِ ، ما كانَ لِلّهِ فِى أَهْلِ الأَرْضِ حاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرِّ الأُمَّةِ وَمُعْلِنِها ، لَا يَقَعُ اسْمُ الهِجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ الحُجَّةِ فِى الأَرْضِ ، فَمَنْ عَرَفَها وَأَقَرَّ بِها فَهُوَ مُهاجِرٌ ، وَلَا يَقَعُ اسْمُ الاسْتِضْعافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الحُجَّةُ فَسَمِعَتْها أُذُنُهُ ، وَوَعاها قَلْبُهُ .

إِنَّ أَمْرَنا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمانِ ، وَلَا يَعِى حَدِيثَنا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ ، وَأَحْلامٌ رَزِينَةٌ .

أَيُّها النّاسُ . سَلُونِى قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِى ، فَلَأَنا بِطُرُقِ السَّماءِ أَعْلَمُ مِنِّى بِطُرُقِ الأَرْضِ ؛ قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ بِرِجْلِها فِتْنَةٌ تَطَأُ فِى خِطامِها ، وَتَذْهَبُ بِأَحْلامِ قَوْمِها .

• • •

الشَّرْحُ :

هذا الفصل يشتمل على عدة مباحث :

أولها قوله عليه السلام : فمن الإيمان ما يكون كذا . فنقول : إنه قسم الإيمان إلى ثلاثة أقسام :

أحدها : الإيمان الحقيقيّ ، وهو الثابت المستقرّ فى القلوب بالبرهان اليقينيّ .

الثانى : ماليس ثابتاً بالبرهان اليقينيّ بل بالدليل الجدَليّ ، كإيمان كثير ممن لم يحقق العلوم العقلية ، ويعتقد ما يعتقده عن أقيسة جدلية لا تبلغ إلى درجة البرهان ، وقد سمّى عليه السلام هذا القسم باسم مفرد ، فقال : إنه عوارىّ فى القلوب ، والعوارىّ : جمع عاريّة أى هو وإن كان فى القلب وفى محل الإيمان الحقيقيّ إلا أن حكمه حكم العارية فى البيت ، فإنّها بعرضة الخروج منه ، لأنها ليست أصلية كائنة فى بيت صاحبها .

والثالث: ماليس مستندا إلى برهان ولا إلى قياس جدلىّ ، بل على سبيل التقليد وحسن الظن بالأسلاف، وبمن يحسن ظنّ الإنسان فيه من عابدٍ أو زاهد أو ذى وَرَع ، وقد جعله عليه السلام عوارىَ بين القلوب والصدور لأنه دون الثانى ، فلم يجعله حالّا فى القلب ، وجعله مع كونه عاريّة حالّا بين القلب والصدر فيكون أضعفَ مما قبله .

فإن قلت : فما معنى قوله : « إلى أجلٍ معلوم » ؟

قلت : إنه يرجع إلى القسمين الأخيرين ؛ لأنّ من لا يكون إيمانُه ثابتا بالبرهان القطعىّ قد ينتقل إيمانه إلى أن يصير قطعيا ، بأن يمعن النظر ويرتب البرهان ترتيبا مخصوصا، فينتج له النتيجة اليقينيّة ، وقد يصير إيمان المقلِّد إيماناً جدليًّا فيرتقى إلى مافوقه مرتبة ، وقد يصير إيمان الجدلىّ إيمانا تقليديا بأن يضعف فى نظره ذلك القياس الجدلىّ ، ولا يكون عالما بالبرهان ، فيؤول حالُ إيمانه إلى أن يصير تقليديًّا ، فهذا هو فائدة قوله : « إلى أجل معلوم » فى هذين القسمين .

فأمّا صاحب القسم الأوّل فلا يمكن أن يكون إيمانه إلى أجل معلوم ، لأنّ مَنْ ظفر بالبرهان استحال أن ينتقل عن اعتقاده ، لا صاعدا ولا هابطا ؛ أمّا لا صاعدا ، فلأنّه ليس فوق البرهان مقام آخر ، وأما لا هابطا ، فلأنّ مادّة البرهان هى المقدّمات البديهيّة

والمقدّمات البديهيّة يستحيل أن تضعف عند الإنسان حتى يصير إيمانه جدليًّا أو تقليديا .

* * *

وثانيها قوله عليه السلام: « فإذا كانت لكم براءة » ، فنقول: إنّه عليه السلام نهى عن البراءة من أحدٍ مادام حيًّا ، لأنه وإن كان مخطئا فى اعتقاده ، لكن يجوز أن يعتقد الحقّ فيما بعد ، وإن كان مخطئا فى أفعاله ، لكن يجوز أن يتوب . فلا تحلّ البراءة من أحد حتى يموت على أمرٍ ؛ فإذا مات على اعتقادٍ قبيح أو فعل قبيح جازت البراءة منه ، لأنه لم يبق له بعد الموت حالة تُنتظَر ؛ وينبغى أن تحمل هذه البراءة التى أشار إليها عليه السلام على البراءة المطلقة ، لا على كلّ براءة ، لأنا يجوز لنا أن نبرأ من الفاسق وهو حىٌّ ، ومن الكافر وهو حىٌّ ، لكن بشرط كونه فاسقا ، وبشرط كونه كافرا ، فأما مَنْ مات وعلم ما مات عليه فإنا نبرأ منه براءة مطلقة غير مشروطة .

* * *

وثالثها قوله : « والهجرة قائمة على حدّها الأوّل » ، فنقول : هذا كلام يختصّ به أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو من أسرار الوصيّة ، لأنّ الناس يروُون عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال : « لاهجرة بعد الفتح » فشفع عمّه العباس فى نعيم بن مسعود الأشجعىّ أن يستثنيه، فاستثناه ، وهذه الهجرة التى يشيرُ إليها أمير المؤمنين عليه السلام ليست تلك الهجرة ، بل هى الهجرة إلى الإمام ، قال : إنها قائمة على حدها الأوّل ما دام التكليف باقيا ، وهو معنى قوله : « ما كان لله تعالى فى أهل الأرض حاجة » .

وقال الراوندى : ما ههنا نافية ، أى لم يكن لله فى أهل الأرض من حاجة ، وهذا ليس بصحيح ، لأنّه إدخال كلام منقطع بين كلامين متّصل أحدهما بالآخر .

ثم ذكر أنّه لا يصحّ أن يعدّ الإنسان من المهاجرين إلا بمعرفة إمام زمانه ، وهو

معنى قوله : « إلّا بمعرفة الحجّة فى الأرض » . قال : « فمن عرف الإمام وأقرّ به فهو مهاجر » .

قال : ولا يجوز أن يسمّى مَنْ عرف الإمام مستضعفا ، يمكن أن يشير به إلى آيتين فى القرآن :

إحداها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾[1] ، فالمراد على هذا أنّه ليس من عرف الإمام وبلغه خبره بمستضعف كما كان هؤلاء مستضعفين ، وإن كان فى بلده وأهله لم يخرج ولم يتجشّم مشقّة السفر .

ثانيهما قوله تعالى فى الآية التى تلى الآية المذكورة : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾[2] فالمراد على هذا أنه ليس من عرف الإمام وبلغه خبره بمستضعف كهؤلاء الذين استثناهم الله تعالى من الظالمين ، لأنّ أولئك كانت الهجرة بالبدن مفروضةً عليهم ، وعُفِىَ عن ذوى العجز عن الحركة منهم ، وشيعة الإمام عليه السلام ليست الهجرة بالبدن مفروضةً عليهم ، بل تكفى معرفتهم به وإقرارهم بإمامته ، فلا يقع اسم الاستضعاف عليهم .

فإن قلت : فما معنى قوله : «من مستسرّ الأمّة ومعلنها » ، وبماذا يتعلّق حرف الجر ؟

قلت : معناه ، مادام لله فى أهل الأرض المستسرّ منهم باعتقاده والمعلن حاجة ، فمن على هذا زائدة ، فلو حذفت لجرّ المستسرّ بدلا من أهل الأرض ، ومن إذا كانت زائدة لا تتعلّق ، نحو قولك ماجاءنى من أحد .

* * *

(١) سورة النساء ٩٧

(٢) سورة النساء ٩٨ ، ٩٩

ورابعها : قوله عليه السلام : « إن أمرنا هــذا صعب مستصعَب » ويروى : « مستصعِب ـ بكسر العين ـ لا يحتمله إلا عبد امتحن الله تعالى قلبه للإيمان » ، هذه من ألفاظ القرآن العزيز ، قال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ [1] ، وهو من قولك : امتحِن فلان لأمر كذا وجُرِّب ودُرِّب للنهوض به ، فهو مضطلع به غير وانٍ عنه ، والمعنى أنهم صبروا على التقوى أقوياء على احتمال مشاقها ، ويجوز أن يكون وضع الامتحان موضع المعرفة ، لأنّ تحققك الشيء إنما يكون باختباره كما يوضع الخبر موضع المعرفة ، فكأنه قيل : عرف الله قلوبهم للتقوى ، فيتعلق اللام بمحذوف ، أى كائنة له ، وهى اللام التى فى قولك : أنت لهذا الأمر ، أى مختصٌّ به كقوله :

* أعداء مَنْ لليعملات على الوَجا *

وتكون مع معمولها منصوبة على الحال ، ويجوز أن يكون المعنى : ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة ، لأجل التقوى ، أى لتثبت فيظهر تقواها ، ويعلم أنهم متقون ، لأنّ حقيقة التقوى لا تعلم إلّا عند المحن والشدائد والاصطبار عليها . ويجوز أن يكون المعنى أنه أخلص قلوبهم للتقوى ، من قولهم : امتحن الذهب ، إذا أذابه فخلّص إبريزه من خَبَثه ونقّاه .

وهذه الكلمة قد قالها عليه السلام مراراً ، ووقفت فى بعض الكتب على خُطبة من جملتها : إنّ قريشا طلبت السعادة فشقيتْ ، وطلبت النجاة فهلكتْ ، وطلبت الهدى فضلّت ، ألم يسمعوا ويحهم قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [2] ؟ فأين المعدّل والمنزع عن ذرية الرسول ، الذين شيّد الله بنيانهم فوق بنيانهم ، وأعلى رءوسهم فوق رءوسهم ، واختارهم عليهم ! ألا إنّ الذرية أفنانٌ أنا شجرتها ، ودوحةٌ أنا ساقها ، وإنى من أحمدَ بمنزلة الضوء من الضوء ، كنا ظلالا تحت العرش قبل خلق البشر ،

---

(١) سورة الحجرات ٣ (٢) سورة الطور ٢١

وقبل خلق الطِّينة التى كان منها البشر ، أشباحاً عالية، لا أجساما نامية . إنّ أمرنا صعب مستصعَب ، لا يعرف كنهه إلا ثلاثة : ملك مقرب ، أو نبيّ مرسَل ، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان ، فإذا انكشف لكم سرٌّ ، أووضح لكم أمر فاقبلوه ، وإلّا فاسكتوا تسلموا، وردُّوا علمَنا إلى الله ، فإنكم فى أوسع مما بين السماء والأرض .

* * *

وخامسها : قوله : « سلونى قبل أن تفقدونى » ، أجمع النّاس كلُّهم على أنّه لم يقلْ أحد من الصحابة ، ولا أحد من العلماء : « سلونى » غير علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، ذكر ذلك ابن عبد البر المحدّث فى كتاب " الاستيعاب " .

والمراد بقوله : « فلأنا أعلم بطرُق السّماء منّى بطرق الأرض» ، مااختصّ به من العلم بمستقبل الأمور ، ولا سيّما فى الملاحم والدّول ، وقد صدّق هذا القولَ عنه ماتواتر عنه من الإخبار بالغيوب المتكرّرة ، لا مرة ولا مائة مرة ، حتى زال الشكّ والرّيب فى أنه إخبار عن علم ، وأنه ليس على طريق الاتفاق ، وقد ذكرنا كثيرا من ذلك فيما تقدّم من هـذا الكتاب .

وقد تأوّله قوم على وجه آخر قالوا : أراد أنا بالأحكام الشرعيّة والفتاوى الفقهية أعلمُ منّى بالأمور الدنيويّة ؛ فعبّر عن تلك بطرق السماء ، لأنها أحكام إلهيّة ، وعبّر عن هذه بطرق الأرض لأنها من الأمور الأرضيّة . والأوّل أظهر ، لأنّ فحوى الكلام وأوّله يدلّ على أنه المراد .

* * *

[قصة وقعت لأحد الوعّاظ ببغداد]

وعلى ذكر قوله عليه السلام : « سلونى » ، حدّثنى مَنْ أثق به من أهل العلم حديثا ، وإنْ كانَ فيه بعض الكلمات العاميّة ، إلّا أنّه يتضمّن ظَرفًا ولطفا ، ويتضمّن أيضا أدبا .

قال : كان ببغداد فى صدْرِ أيام الناصر لدين الله أبى العباس أحمد بن المستضىء بالله ، واعظ مشهور بالحذْق ومعرفة الحديث والرجال ، وكان يجتمع إليه تحت منبره خَلْق عظيم من عوامّ بغداد ومن فضلائها أيضا ، وكان مشتهرا بذمّ أهل الكلام وخصوصا المعتزلة وأهل النظر ، على قاعدة الحشويّة ، ومبغضى أرباب العلوم العقلية ، وكان أيضا منحرفًا عن الشّيعة برضا العامّة بالميل عليهم ، فاتفق قوم من رؤساء الشّيعة عَلَى أن يضعوا عليه مَنْ يبكّته ويسأله تحت منبره ، ويُخجله ويفضحه بين الناس فى المجلس ، وهذه عادة الوعّاظ ؛ يقوم إليهم قوم فيسألونهم مسائل يتكلّفون الجواب عنها ، وسألوا عمّن ينتدب لهذا ، فأشير عليهم بشخص كان ببغداد يعرف بأحمد بن عبد العزيز الكزىّ ، كان له لَسَن ، ويشتغل بشىء يسير من كلام المعتزلة ، ويتشيّع ، وعنده قِحة ، وقد شدا أطرافا من الأدب ، وقد رأيت أنا هذا الشّخص فى آخر عمره ، وهو يومئذ شيخ ، والنّاسُ يختلفون إليه فى تعبير الرؤيا ، فأحضروه وطلبوا إليه أن يعتمد ذلك ، فأجابهم ، وجلس ذلك الواعظ فى يومه الذى جرت عادته بالجلوس فيه ، واجتمع الناس عنده على طبقاتهم ، حتى امتلأت الدنيا بهم ، وتكلّم على عادته فأطال ، فلما مرّ فى ذكر صفات البارى سبحانه فى أثناء الوعظ ، قام إليه الكزىّ ، فسأله أسئلة عقليّة ، على منهاج كلام المتكلّمين من المعتزلة ، فلم يكن للواعظ عنها جواب نظرىّ ، وإنما دفعه بالخطابة والجدل ، وسجع الألفاظ ؛ وتردّد الكلام بينهما طويلا ، وقال الواعظ فى آخر الكلام : أعينُ المعتزلة حُولٌ ، وأصواتى

فى مسامعهم طبول ، وكلامى فى أفئدتهم نُصول ، يامن بالاعتزال يصول ، ويحك كم تحوم وتحول ، حول من لا تدركه العقول ؟ كم أقول كم أقول ، خلّوا هذا الفضول !

فارتجّ المجلس ، وصرخ الناس ، وعلت الأصوات ، وطاب الواعظ وطرب ، وخرج من هذا الفصل إلى غيره فشطح شَطْح الصوفيّة ، وقال : سلونى قبل أن تفقدونى ، وكرّرها ؟ فقام إليه الكرىّ ، فقال : ياسيّدى ماسمعنا أنّه قال هذه الكلمة إلّا على بن أبى طالب عليه السلام ، وتمام الخبر معلوم . وأراد الكرّىّ بتمام الخبر قوله عليه السلام : « لا يقولها بعدى إلّا مدّع » .

فقال الواعظ وهو فى نشوة طربه ، وأراد إظهار فضله ومعرفته برجال الحديث والرواة : مَنْ علىّ بن أبى طالب ؟ أهو على بن أبى طالب بن المبارك النيسابورىّ ؟ أم علىّ بن أبى طالب ابن إسحاق المروزىّ ؟ أم على بن أبى طالب بن عثمان القيروانىّ ؟ أم على بن أبى طالب ابن سليمان الرازىّ ؟ وعدّ سبعة أو ثمانية من أصحاب الحديث ، كلّهم على بن أبى طالب .

فقام الكرىّ ، وقام مِنْ يمين المجلس آخر ومن يسار المجلس ثالث ، انتدبوا له ، وبذلوا أنفسهم للحميّة ووطّنوها عَلَى القتل .

فقال الكرىّ : أيّها ياسيدى فلان الدين ، أيّما ! صاحب هذا القول هو على بن أبى طالب زوج فاطمة سيدة نساء العالمين عليها السلام ، وإن كنتَ ماعرفته بعد بعينه ، فهو الشخص الذى لما آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بين الأتباع والأذناب آخى بينه وبين نفسه ، وأسجل عَلَى أنّه نظيره ومماثله ، فهل نقل فى جهازكم أنتم من هذا شىء ؟ أو نبت تحت خبكم من هذا شىء ؟

فأراد الواعظ أن يكلّمه ، فصاح عليه القائم من الجانب الأيمن ، وقال : ياسيدى فلان الدين ، محمد بن عبد الله كثير فى الأسماء ، ولكن ليس فيهم من قال له رب العزّة :

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾(١).
وكذلك على بن أبي طالب كثير في الأسماء ، ولكن ليس فيهم من قال له صاحب الشريعة : « أنت منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لانبيّ بعدى » .

وقد تلتقى الأسماء فى الناس والكُنَى كثيراً ولكن مُيِّزوا فى الخلائق

فالتفت إليه الواعظ ليكلمه ، فصاح عبيه القائم من الجانب الأيسر ، وقال : ياسيدى فلان الدين ، حقك نجهله ، أنت معذور فى كونك لاتعرفه :

وإذا خفيتُ على الغبيّ فعاذرٌ ألّا ترانى مقلة عمياء

فاضطرب المجلس وماج كما يموج البحر ، وافتتن الناس ، وتواثبت العامّة بعضها إلى بعض ، وتكشفت الرءوس ، ومزّقت الثياب ، ونزل الواعظ ، واحتُمل حتى أُدخل دارا أغلق عليه بابها ، وحضر أعوان السلطان فسكّنوا الفتنة ، وصرفوا النّاس إلى منازلهم وأشغالهم ، وأنفذ الناصرلدين الله فى آخر نهار ذلك اليوم، فأخذ أحمد بن عبد العزيز الكرى والرجلين اللّذين قاما معه فحبسهم أياما لتطفأ نائرة الفتنة . ثم أطلقهم .

(١) سورة النجم • •

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَحْمَدُهُ شُكْراً لإِنْعَامِهِ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ، عَزِيزَ الْجُنْدِ، عَظِيمَ الْمَجْدِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ، وَقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ، جِهَاداً عَنْ دِينِهِ، لَا يَثْنِيهِ عَنْ ذَلِكَ اجْتِمَاعٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ، وَالْتِمَاسٌ لإِطْفَاءِ نُورِهِ.

فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللهِ؛ فَإِنَّ لَهَا حَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، وَمَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ. وَبَادِرُوا الْمَوْتَ وَغَمَرَاتِهِ، وَامْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ؛ فَإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةُ؛ وَكَفَى بِذَلِكَ وَاعِظاً لِمَنْ عَقَلَ، وَمُعْتَبَراً لِمَنْ جَهِلَ. وَقَبْلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضِيقِ الْأَرْمَاسِ، وَشِدَّةِ الْإِبْلَاسِ، وَهَوْلِ الْمُطَّلَعِ، وَرَوْعَاتِ الْفَزَعِ، وَاخْتِلَافِ الْأَضْلَاعِ، وَاسْتِكَاكِ الْأَسْمَاعِ، وَظُلْمَةِ اللَّحْدِ، وَخِيفَةِ الْوَعْدِ، وَغَمِّ الضَّرِيحِ، وَرَدْمِ الصَّفِيحِ.

فَاللهَ اللهَ عِبَادَ اللهِ! فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَنَنٍ، وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرَنٍ، وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا، وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا. وَكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلَازِلِهَا، وَأَنَاخَتْ بِكَلَاكِلِهَا، وَانْصَرَفَتِ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا، فَكَانَتْ كَيَوْمٍ مَضَى، وَشَهْرٍ انْقَضَى، وَصَارَ جَدِيدُهَا رَثّاً، وَسَمِينُهَا غَثّاً.

فِي مَوْقِفٍ ضَنْكِ الْمَقَامِ، وَأُمُورٍ مُشْتَبِهَةٍ عِظَامٍ، وَنَارٍ شَدِيدٍ كَلَبُهَا، عَالٍ لَجَبُهَا، سَاطِعٍ لَهَبُهَا، مُتَغَيِّظٍ زَفِيرُهَا، مُتَأَجِّجٍ سَعِيرُهَا، بَعِيدٍ خُمُودُهَا، ذَاكٍ وُقُودُهَا، مَخُوفٍ

وَعِيدُهَا، عَمٍ قَرَارُهَا، مُظْلِمَةٍ أَقْطَارُهَا، حَامِيَةٍ قُدُورُهَا، فَظِيعَةٍ أُمُورُهَا. ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾.

قَدْ أَمِنَ الْعَذَابُ، وَانْقَطَعَ الْعِتَابُ، وَزُحْزِحُوا عَنِ النَّارِ، وَاطْمَأَنَّتْ بِهِمُ الدَّارُ، وَرَضُوا الْمَثْوَى وَالْقَرَارَ؛ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً، وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَارًا، تَخَشُّعًا وَاسْتِغْفَارًا؛ وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلًا؛ تَوَحُّشًا وَانْقِطَاعًا فَجَعَلَ اللهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَآبًا، وَالْجَزَاءَ ثَوَابًا، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا، فِي مُلْكٍ دَائِمٍ؛ وَنَعِيمٍ قَائِمٍ.

فَارْعَوْا عِبَادَ اللهِ مَا بِرِعَايَتِهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ، وَبِإِضَاعَتِهِ يَخْسَرُ مُبْطِلُكُمْ، وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مُرْتَهَنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، وَمَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ، وَكَأَنْ قَدْ نَزَلَ بِكُمُ الْمَخُوفُ، فَلَا رَجْعَةً تَنَالُونَ، وَلَا عَثْرَةً تُقَالُونَ.

اسْتَعْمَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَعَفَا عَنَّا وَعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ.

الْزَمُوا الْأَرْضَ، وَاصْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ، وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللهُ لَكُمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيدًا، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَاسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وَقَامَتِ النِّيَّةُ مَقَامَ إِصْلَاتِهِ لِسَيْفِهِ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجَلًا.

* * *

الشرح:

وظائف حقوقه: الواجبات المؤقتة، كالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان، والوظيفة مايُجعل للإنسان فى كلّ يوم، أو فى كل شهر، أو فى كلّ سنة، من طعام، أو رزق.

وعزيز منصوب ، لأنه حال من الضمير في « وأشعته » ويجوز أن يكون حالا من الضمير المجرور في « حقوقه » وإضافة « عزيز » إلى « الجند » إضافة في تقدير الانفصال ؛ لا توجب تعريفه ليمتنع من كونه حالا .

وقاهر أعدائه : حاربهم ، وروى « وقهر أعدائه » .

والمعقل : مايعتصم به . وذروته : أعلاه .

وأمهدوا له : اتخذوا مهاداً ، وهو الفراش ، وهذه استعارة .

قوله عليه السلام : « فإنّ الغاية القيامة » أي فإنّ منتهى كلّ البشر إليها، ولا بدّ منها .

والأرماس : جمع رَمْس وهو القبر . والإبلاس مصدر « أبلس » أي خاب ويئس ، والإبلاس أيضا : الانكسار والحزن .

واستكاك الأسماع : صممها .

وغمّ الضريح : ضيق القبر وكربه . والصفيح : الحجر ، وردمه : سدّه .

والسّنن : الطريق . والقرن : الحبلُ .

وأشراط الساعة : علاماتها. وأزفت : قربت : وأفراطها : جمع فَرَط ، وهم المتقدمون السابقون من الموتى ، ومن روى « بإفراطها» فهو مصدر أفرط في الشيء ، أي قربت الساعة بشدة غلوائها و بلوغها غاية الهول والفظاعة ، ويجوز أن تفسر الرواية الأولى بمقدماتها وما يظهر قبلها من خوارق العادات المزعجة ، كالدّجال ودابة الأرض ونحوها ، ويرجع ذلك إلى اللفظة الأولى ، وهي أشراطها ، وإنما يختلف اللفظ .

والكلاكل : جمع كلكل ، وهو الصدر ، ويقال للأمر الثقيل : « قد أناخ عليهم بكلكله » ، أي هدم ورضّهم كما يهدّ البعير البارك من تحته إذا أنحى عليه بصدره .

قوله عليه السلام : « وانصرفت الدنيا بأهلها » أي ولّت ، ويروى « وانصرمت » أي انقضت .

والحِضن ، بكسر الحاء : مادون الإبط إلى الكَشْح .

والرّثّ: الخلَق ، والغثّ : الهزيل .

ومقام ضَنْك ، أى ضيّق .

وشديد كَلَبها ، أى شرّها وأذاها . والجَبَ: الصوت . ووُقودها هاهنا،بضم الواو ؛ وهو الحدَث ، ولا يجوز الفتح لأنه مايوقد به كالحطب ونحوه ، وذاك لا يوصف بأنه ذاك .

قوله عليه السلام : « عَمٍ قرارُها » ، أى لا يهتدّى فيه لظلمته ، ولأنه عميق جدا ، ويروى : « وكأنّ ليلهم نهار » وكذلك أحتها على التشبيه .

والمـآب : المرجع ، ومدينون : مجزيّون .

قوله عليه السلام: « فلا رجعة تُنالون » الرّواية بضم التاء ، أى تعطون ، يقال : أنلت فلانا مالا ، أى منحته . وقد روى : « تَنالون » بفتح التاء .

ثم أمر أصحابه أن يثبتوا ولا يعجلوا فى محاربة من كان مخالطا لهم من ذوى العقائد الفاسدة كالخوارج ، ومَن كان يُبطِن هَوى معاوية ، وليْس خطابه هذا تثبيطًا لهم عن حرب أهل الشام ، كيف وهو لا يزال يقرّعُهم و يوبّخُهم عن التقاعد والإبطاء فى ذلك ! ولكنّ قوما من خاصته كانوا يطّلعون على ماعند قوم من أهل الكوفة ، ويعرفون نفاقهم وفسادهم ، ويرومون قتلهم وقتالهم ، فنهاهم عن ذلك ، وكان يخاف فرقة جُنْده وانتشار حبْل عسكره ، فأمرهم بلزوم الأرض ، والصبر على البلاء .

وروى بإسقاط الباء من قوله : « بأيديكم » ومَن رَوى الكلمة بالباء جعلها زائدة ، ويجوز ألّا تكون زائدة ، ويكون المعنى : ولا تحرّكوا الفتنة بأيديكم وسيوفكم فى هوى ألسنتكم ، فحذف المفعول .

والإصلات بالسيف : مصدر أصلت ، أى سلّ .

* * *

واعلم أنّ هذه الخطبة من أعيان خُطَبه عليه السلام ، ومن ناصع كلامه ونادره ، وفيها من صناعة البديع الرائقة المستحسَنة البريئة من التكلّف مالا يخفى ، وقد أخذ ابنُ نُباتة الخطيب كثيرا من ألفاظها فأودعها خطبه ، مثل قوله : « شديد كَلَبُها ، عال لجبها ، ساطع لهبها ، متغيّظ زفيرها ، متأجّج سعيرها ، بعيد خمودها ، ذاكٍ وقودها ، مخوف وعيدها ، عمٍ قَرارها ، مظلمة أقطارُها ، حامية قدورها ، فظيعة أمورها» ؛ فإنّ هذه الألفاظ كلّها احتطفَها ، وأغار عليها واغتصبها ، وسمّطَ بها خطبه ، وشذّر بها كلامه .

ومثل قوله : « هول المَطّلع ، وروعات الفزع ، واختلاف الأضلاع ، واستكاك الأسماع ، وظلمة اللّحد ، وخيفة الوعد ، وغمّ الضريح ، وردم الصفيح » . فإن هذه الألفاظ أيضا تمضي في أثناء خطبه ، وفي غضون مواعظه .

(٢٣٧)

الأصـل :

ومن خطبة له عليه السلام :

الحمد لله الفاشي في الخلق حمده ، والغالب جنده ، والمتعالي جده ؛ أحمده على نعمه التؤام ، وآلائه العظام ، الذي عظم حلمه فعفا ، وعدل في كل ما قضى ، وعلم بما يمضي وما مضى ، مبتدع الخلائق بعلمه ، ومنشئهم بحكمه ، بلا اقتداء ولا تعليم ؛ ولا احتذاء لمثال صانع حكيم ، ولا إصابة خطأ ، ولا حضرة ملإ .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، ابتعثه والناس يضربون في غمرة ، ويموجون في حيرة ، قد قادتهم أزمة الحين ، واستغلقت على أفئدتهم أقفال الرين .

عباد الله ! أوصيكم بتقوى الله فإنها حق الله عليكم ؛ والموجبة على الله حقكم ، وأن تستعينوا عليها بالله ، وتستعينوا بها على الله ؛ فإن التقوى في اليوم الحرز والجنة ، وفي غد الطريق إلى الجنة ؛ مسلكها واضح ، وسالكها رابح ، ومستودعها حافظ . لم تبرح عارضة نفسها على الأمم الماضين منكم ، والغابرين لحاجتهم إليها غدا ، إذا أعاد الله ما أبدى ، وأخذ ما أعطى ، وسأل عما أسدى . فما أقل من قبلها ، وحملها حق حملها ! أولئك الأقلون عددا ، وهم أهل صفة الله سبحانه إذ يقول : ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾[1] .

فأهطعوا بأسماعكم إليها ، وألظوا بجدكم عليها ، واعتاضوها من كل سلف خلفا ، ومن كل مخالف موافقا .

---

(١) سورة سبأ ١٣

أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ ، وَاقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ ، وَأَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ ، وَارْحَضُوا بِهَا ذُنُوبَكُمْ ؛ وَدَاوُوا بِهَا الْأَسْقَامَ ، وَبَادِرُوا بِهَا الْحِمَامَ ، وَاعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا ، وَلَا يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا .

أَلَا فَصُونُوهَا وَتَصَوَّنُوا بِهَا ، وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نُزَّاهًا ؛ وَإِلَى الْآخِرَةِ وُلَّاهًا ، وَلَا تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَى ، وَلَا تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيَا ، وَلَا تَشِيمُوا بَارِقَهَا ، وَلَا تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا ، وَلَا تُجِيبُوا نَاعِقَهَا ، وَلَا تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا ، وَلَا تُفْتَنُوا بِأَعْلَاقِهَا ، فَإِنَّ بَرْقَهَا خَالِبٌ ، وَنُطْقَهَا كَاذِبٌ ، وَأَمْوَالَهَا مَحْرُوبَةٌ ، وَأَعْلَاقَهَا مَسْلُوبَةٌ .

أَلَا وَهِيَ الْمُتَصَدِّيَةُ الْعَنُونُ ، وَالْجَامِحَةُ الْحَرُونُ ، وَالْمَائِنَةُ الْخَؤُونُ ، وَالْجَحُودُ الْكَنُودُ ، وَالْعَنُودُ الصَّدُودُ ، وَالْحَيُودُ الْمَيُودُ ؛ حَالُهَا انْتِقَالٌ ، وَوَطْأَتُهَا زِلْزَالٌ ، وَعِزُّهَا ذُلٌّ ، وَجِدُّهَا هَزْلٌ ، وَعُلْوُهَا سُفْلٌ .

دَارُ حَرَبٍ وَسَلَبٍ ، وَنَهْبٍ وَعَطَبٍ ، أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ وَسِيَاقٍ ، وَلَحَاقٍ وَفِرَاقٍ ، قَدْ تَحَيَّرَتْ مَذَاهِبُهَا ، وَأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا ، وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا ، فَأَسْلَمَتْهُمُ الْمَعَاقِلُ ، وَلَفَظَتْهُمُ الْمَنَازِلُ ، وَأَعْيَتْهُمُ الْمَحَاوِلُ ؛ فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ ، وَلَحْمٍ مَجْزُورٍ ، وَشِلْوٍ مَذْبُوحٍ ، وَدَمٍ مَسْفُوحٍ ، وَعَاضٍّ عَلَى يَدَيْهِ ، وَصَافِقٍ بِكَفَّيْهِ ، وَمُرْتَفِقٍ بِخَدَّيْهِ ، وَزَارٍ عَلَى رَأْيِهِ ، وَرَاجِعٍ عَنْ عَزْمِهِ .

وَقَدْ أَدْبَرَتِ الْحِيلَةُ ، وَأَقْبَلَتِ الْغِيلَةُ ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ! هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ! قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ ، وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ ، وَمَضَتِ الدُّنْيَا لِحَالِ بَالِهَا ، ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾[1] .

* * *

---

(١) سورة الدخان ٢٩

الشرح :

الفاشى : الذائع ، فشا الخبرُ يفشو فشوًا ، أى ذاعَ ، وأفشاه غيرُه . وتفشّى الشىء ، أى اتّسع ، والفواشى : كلُّ منتشر من المال مثل الغنم السائمة والإبل وغيرها ، ومنه الحديث : « ضمّوا فواشيَكم حتى تذهب فحمة العشاء » ، فيجوز أن يكون عَنَى بفشوّ حمده إطباق الأمم قاطبةً على الاعتراف بنعمته ، ويجوز أن يريد بالفاشى سبب حمده ، وهو النّعم التى لايقدر قدرها ، فحذف المضاف .

قوله : « والغالب جنده » فيه معنى قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [1] .

قوله : « والمتعالى جَدّه » فيه معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ [2] والجدّ فى هذا الموضع وفى الآية : العظمة .

والتؤام : جمع توءم على فَوْعل ، وهو الولد المقارن أخاه فى بطن واحد ، وقد أتأمت المرأة إذا وضعت اثنين كذلك ، فهى متئم ، فإن كان ذلك عادتها فهى مِتْآم ، وكلّ واحد من الولدين توءم ، وهما توءمان ، وهذا توءم هذا ، وهذه توءمته ، والجمع توائم ، مثل قشعم وقشاعم ، وجاء فى جمعه « تُؤَام » على « فُعال » وهى اللفظة التى وردت فى هذه الخطبة ، وهو جمع غريب لم يأت نظيره إلا فى مواضع معدودة ، وهى : عرق العظم يؤخذ عنه اللحم وعُراق ، وشاة رُبّى للحديثة العهد بالولادة وغنم رُباب ، وظئر للمرضعة غير ولدها وظُؤار ، ورَخل للأنثى من أولاد الضأن ورُخال ، وفرير لولد البقرة الوحشية ، وفُرار [3] .

والآلاء : النعم .

---

(١) سورة المائدة ٥٦ (٢) سورة الجن ٣

(٣) انظر صحاح الجوهرى ٤ : ١٠٢٣

قوله عليه السلام: «مبدِع الخلائق بعلمه» ، ليس يريد أنّ العلم علة فى الإبداع ، كما تقول : هوى الحجَر بثقله ، بل المراد : أبدع الخلق وهو عالم ، كما تقول: خرج زيد بسلاحه، أى خرج متسلِّحاً ، فموضع الجار والمجرور على هذا نصب بالحاليّة ، وكذلك القول فى : « ومُنشئهم بحُكْمِه » والحُكْم هاهنا : الحِكْمة .

ومنه قوله عليه السلام : « إنّ من الشّعر لحكمة » .

قوله : « بلا اقتداء، ولا تعليم ولا احتذاء » قد تكرّر منه عليه السلام أمثاله مراراً .

قوله : « ولا إصابة خطأ » تحته معنى لطيف ، وذلك لأنّ المتكلّمين يورِدون على أنفسهم سؤالًا فى باب كونه عالما بكلّ معلوم إذا استدلّوا على ذلك ، فإنه علم بعض الأشياء لا من طريق أصلا ، لا من إحساس ولا من نظر واستدلال ، فوجب أن يعلم سائرها ، لأنه لا مخصّص ، فقالوا لأنفسهم : لم زعمتم ذلك ؟ ولم لا يجوز أن يكون فَعَل أفعاله مضطربة ، فلمّا أدركها علم كيفية صنعها بطريق كونه مدركا لها فأحكمها بعد اختلالها واضطرابها ! وأجابوا عن ذلك بأنه لا بدّ أن يكون قبل أن فعلها عالماً بمفرداتها من غير إحساس ، ويكفى ذلك فى كونه عالماً بما لم يتطرّق إليه ، ثم يعود الاستدلال المذكور أوّلا .

قوله عليه السلام : « ولا حضره مَلأٌ » الملأ : الجماعة من النّاس وفيه معنى قوله تعالى : ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [1] .

قوله : « يضربون فى غَمْرة » ، أى يسيرون فى جَهْل وضلالة ، والضرب : السير السريع .

والحَيْن : الهلاك . والرَّين : الذنب عَلَى الذنب حتى يسودّ القلب ، وقيل : الرَّيْن :

---

(١) سورة الكهف ٥١ .

الطّبع والدنس ، يقال : رانَ عَلَى قلبه ذنبُه ، يرين رَيْناً ، أي دنّسه ووسّخه ، واستغلقت أقفالُ الرَّيْن عَلَى قلوبهم : تعسّر فتحها .

قوله : « فإنّها حقُّ الله عليكم، والموجبة عَلَى الله حقَّكم » ؛ يريدُ أنّها واجبة عليكم، فإن فعلتموها وجبَ عَلَى الله أن يجازيَكم عنها بالثواب، وهذا تصريح بمذهب المعتزلة في العدل ، وأنّ من الأشياء مايجب عَلَى الله تعالى من باب الحكمة .

قوله : « وأنْ تستعينوا عليها بالله ، وتستعينوا بها عَلَى الله » ، يريد : أوصيكم بأنْ تستعينوا بالله عَلَى التقوى بأن تدعوه وتبتهلوا إليه أن يعينكم عليها ، ويوفّقكم لها وييسّرها ويقوّى دواعيَكم إلى القيام بها ، وأوصيكم أن تستعينوا بالتقوى عَلَى لقاء الله ومحاكمته وحسابه ، فإنّه تعالى يوم البعث والحساب كالحاكم بين المتخاصمين : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ [١] ، فالسعيد مَن استعان عَلَى ذلك الحساب وتلك الحكومة والخصومة بالتقوى في دار التكليف ، فإنها نعم المعونة ﴿ وتزوّدوا فإنّ خيرَ الزاد التقوى ﴾ .

والجُنّة : ما يستتر به .

قوله : « ومستودَعها حافظ » ، يعني الله سبحانه ، لأنّه مستودع الأعمال ، ويدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [٢] ، وليس ما قاله الراونديّ من أنه أراد بالمستودَع قلب الإنسان بشيء .

قوله : « لم تبرح عارضةً نفسها » كلام فصيح لطيف ، يقول : إنّ التقوى لم تزل عارضةً نفسها عَلَى مَنْ سلف من القرون ، فقبلها القليل منهم ، شبّهها بالمرأة العارضة نفسها نكاحا على قوم، فرغب فيها مَنْ رغب ، وزهِد مَنْ زهد ، وعلى الحقيقة ليست

---

(١) سورة الجاثية ٢٨
(٢) سورة الكهف ٣٠

هي العارضة نفسها ، ولكنّ المكلّفين ممكَّنون من ضدها ومرغَّبون فيهـا ، فصارت كالعارضة .

والغابر هاهنا . الباقى ، وهو من الأضداد يستعمل بمعنى الباقى ، وبمعنى الماضى .

قوله عليه السلام : إذا أعاد الله ما بدأ » ، يعنى أنشر الموتى وأخذ ما أعطى وورث الأرض مالك الملوك فلم يبقَ فى الوجود مَنْ له تصرُّف فى شىء غيره كما قال : ﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[1] . وقيل فى الأخبار والحديث : إنّ الله تعالى يجمع الذهب والفضة كلّ ما كان منه فى الدنيا ، فيجعله أمثالَ الجبال ، ثم يقول : هذا فتنة بنى آدم ، ثم يسوقه إلى جهنّم فيجعله مكاوىَ لجباه المجرمين .

«وسأل عمّا أسدى» ؛ أى سأل أرباب الثروة عمّا أسدى إليهم من النِّعم فيمَ صرفوها ؟ وفيم أنفقوها ؟

قال عليه السلام : « فما أقلّ مَنْ قبلها ! » ، يعنى ما أقلّ مَنْ قَبِل التقوى العارضة نفسها على الناس .

وإذا فى قوله : « إذا أعاد الله » ؛ ظرف لحاجتهم إليها ، لأنّ المعنى يقتضيه ، أى لأنهم يحتاجون إليها وقت إعادة الله الخلق ؛ وليس كما ظنّه الراوندى أنه ظرف لقوله : « فما أقلّ مَنْ قَبِلها » ، لأنّ المعنى على ما قلناه ، ولأنّ ما بعد الفاء لا يجوز أن يكون عاملا فيما قبلها .

قوله : « فأهطعوا بأسماعكم » ، أى أسرعوا ، أهطع فى عَدْوِه أى أسرع .

ويروى : « فانقطعوا بأسماعكم إليها » ، أى فانقطعوا إليها مصغين بأسماعكم .

قوله : « وألِظُّوا بجدّكم » ، أى ألحّوا ، والإلظاظ : الإلحاح فى الأمر ، ومنه قول ابن

---

(١) سورة غافر ١٦

ابن مسعود : أَلِظُّوا فى الدعاء بياذا الجلال والإكرام ، ومنه الملاظّة فى الحرب ، ويقال : رجل مِلَظّ ومِلْظاظ ، أى ملحاح ، وألظّ المطر ، أى دام .

وقوله : « بِجِدِّكم » أى باجتهادكم ، جددتُ فى الأمر جِدًّا بالغت واجتهدت ، ويروى : « وأكظّوا بجدّكم » والمواكظة : المداومة على الأمر . وقال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ﴾[1] قال : أى مواكظا .

قوله : « وأشعروا بها قلوبكم » يجوز أن يريد : اجعلوها شعاراً لقلوبكم ، وهو ما دون الدّثار وألصق بالجسد منه ، ويجوز أن يريد : اجعلوها علامةً يعرف بها القلب التقىّ من القلب المذنب كالشّعار فى الحرب يعرف به قوم من قوم ، ويجوز أن يريد أخرجوا قلوبكم بها من أشعار البدن ، أى طهروا القلوب بها ، وصفّوها من دَنَس الذنوب ، كما يصفّى البدن بالفصاد من غَلَبة الدم الفاسد ؛ ويجوز أن يريد الإشعار بمعنى الإعلام ، من أشعرت زيداً بكذا ، أى عرّفته إياه ؛ أى اجعلوها علمة بجلالة موقعها وشرف محلها .

قوله : « وارحَضُوا بها » أى اغسلوا ، وثوب رَحِيض ومَرْحوض ، أى مغسول .

قال : « وداووا بها الأسقام » ، يعنى أسقام الذّنوب .

وبادروا بها الحِمام : عجّلوا واسبقوا الموت أن يدرككم وأنتم غير متّقين .

واعتبروا بمن أضاع التقوى فهلك شقيًّا ، ولا يعتبرنّ بكم أهلُ التقوى ، أى لا تكونوا أنتم لهم معتبرا بشقاوتكم وسعادتهم .

ثم قال : « وصونوا التقوى عن أن تمازجها المعاصى ، وتصوّنوا أنتم بها عن الدناءة وما ينافى العدالة .

والنُّزَّه : جمع نَزِيه ، وهو المتباعد عمّا يوجب الذمّ . والوُلَّاه : جمع وَالِه ، وهو المشتاق ذو الوجْد حتى يكاد يذهب عقله .

ثم شرع فى ذكر الدّنيا ، فقال : « لا تشيموا بارقها » الشَّيْم : النظر إلى البرق انتظاراً للمطر .

ولا تسمعوا ناطقها : لا تصغوا إليها سامعين ، ولا تجيبوا مناديها .

والأعلاق : جمع عِلْق وهو الشىء النفيس . وبرقٌ خالب وخُلّب : لا مطرَ فيه .

وأموالها محروبة ، أى مسلوبة .

قوله عليه السلام : « ألا وهى المتصدّية العَنُون » ؛ شبّهها بالمرأة المومس تتصدّى للرجال تريد الفجور . وتتصدّى لهم : تتعرّض . والعَنُون : المتعرضة أيضا ، عنّ لى كذا أى عرض .

ثم قال : « والجامحة الحَرُون » شبهها بالدّابة ذات الجماح ، وهى التى لا يستطاع ركوبها لأنّها تعثرُ بفارسها وتغلبه ، وجعلها مع ذلك حَرُونا وهى التى لا تنقاد .

ثم قال : « والمائنة الخَئُون » ، مان ، أى كذب ، شبّهها بامرأة كاذبة خائنة .

والجحود الكَنُود ، جحد الشىء أنكره ، وكَنَد النعمة : كفرها ، جعلها كامرأة تجحد الصنيعة ولا تعترف بها وتكفر النعمة . ويجوز أن يكون الجَحُود من قولك : رجل جَحِد وجَحْد ، أى قليل الخير ، وعام جَحْد ، أى قليل المطر ، وقد جحد النّبْت ، إذا لم يَطُل .

قال : والعَنُود : الصَّدُود ، العَنُود : الناقة تعدل عن مرعى الإبل وترعى ناحية ، والصَّدُود : المعرضة ، صدّ عنه ، أى أعرض ؛ شبّهها فى انحرافها وميلها عن القصد بتلك .

قال : والحَيُود المَيُود ؛ حادت الناقة عن كذا تحيد فهى حَيُود ، إذا مالت عنه . ومادت تميد فهى مَيُود ، أى مالت ، فإن كانت عادتها ذلك سُمّيت الحَيُود المَيُود فى كلّ حال .

قال : « حالها انتقال » ؛ يجوز أن يعنى به أنّ شيمتَها وسجيّتها الانتقال والتغيّر ، ويجوز أن يريد به معنًى أدقّ وهو أنّ الزمان على ثلاثة أقسام : ماض ، وحاضر ، ومستقبل ، فالماضي والمستقبل لا وجود لهما الآن ، وإنّما الوجود أبدا هو الحاضر ؛ فلمّا أراد المبالغة في وصف الدنيا بالتغيّر والزّوال قال : « حالها انتقال » ، أى أنّ الآن الذى يحكم العقلاء عليه بالحصور منها ليس بحاضر على الحقيقة ، بل هو سيّال متغيّر ، فلا ثبوت إذاً لشيء منها مطلقا . ويروى : « وحالها افتعال » ، أى كذب وزور ، وهي رواية شاذّة .

قال : « ووطأتها زلزال » ، الوطأة كالضّغطة ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله : « اللهمّ اشدُدْ وطأتَك على مُضَر » ، وأصلها موضع القدم . والزلزال : الشدّة العظيمة ، والجمع زلازل .

وقال الراوندى في شرحه : يريد أنّ سكونها حركة ، من قولك : وَطُؤ الشيء ، أى صار وطيئاً ذا حال ليّنة ، وموضعٌ وطيء ، أى وثير . وهذا خطأ ، لأنّ المصدر من ذلك وطاءة بالمد ، وهاهنا وطأة ساكن الطاء ، فأين أحدهما عن الآخر !

قال : « وعُلوّها سُفْل » ، يجوز ضمّ أوّلهما وكسره .

قال : « دار حَرَب » الأحسن في صناعة البديع أن تكون الراء هاهنا ساكنة ليوازى السكون هاء « نهب » ومن فتح الراء ، أراد السلب ، حربتُه أى سلبت ماله .

قال : « أهلها على ساق وسياق » يقال : قامت الحرب على ساق ، أى على شدّة ومنه قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ [1] والسّياق : نزع الروح ، يقال : رأيت فلانا يسوق ، أى ينزع عند الموت ، أو يكون مصدر ساق الماشية سوقا وسياقا .

وقال الراوندى في شرحه : يريد أنّ بعض أهلها في أثر بعض كقولهم : ولدت فلانة

---

(١) سورة القلم ٤٢

ثلاثة بنين على ساقٍ ، وليس ماقاله بشيء ، لأنهم يقولون ذلك للمرأة إذا لم يكن بين البنين أنثى ، ولا يقال ذلك فى مطلق التتابع أين كان .

قال عليه السلام : « ولَحاق وفراق » اللام مفتوحة ، مصدر لَحق به ، وهذا كقولهم : « الدنيا مولود يولَد ، ومفقود يفقَد » .

قال عليه السلام : « قد تحيَّرت مذاهبها» ، أى تحيّر أهلها فى مذاهبهم ، وليس يعنى بالمذاهب هاهنا الاعتقادات ، بل المسالك .

وأعجزت مهاربها : أى أعجزتهم جعلتهم عاجزين ، فحذف المفعول .

وأسلمتهم المعاقل : لم تحصّنهم .

ولفَظَتهم ، بفتح الفاء : رَمَتْ بهم وقذفتهم .

وأعيتهم المحاول ، أى المطالب .

ثم وصف أحوال الدنيا فقال : « فمن ناجٍ معقور » ، أى مجروح كالهارب من الحرب بحشاشة نفسه ، وقد جرح بدنه .

ولحم مجرور ، أى قتيل قد صار جَزَراً للسباع .

وشِلْوٍ مذبوح : الشِّلْو : العضو من أعضاء الحيوان : المذبوح أو الميت .

وفى الحديث : « ائتونى بشِلْوها الأيمن » .

ودم مسفوح ، أى مسفوك . وعاضٍّ عَلَى يديه ، أى ندما .

وصافقٍ بكفّيه ، أى تسفا أو تعجبا .

ومرتفق بخدّيه : جاعل لهما عَلَى مرفقيه فكراً وهمّاً .

وزارٍ على رأيه ، أى عائب ، أى يرى الواحد منهم رأيا ويرجع عنه ويعيبه ، وهو البَداء الذى يذكره المتكلمون . ثم فسّره بقوله : « وراجع عن عزمه » .

فإن قلت : فهل يمكن أن يفرق بينهما ، ليكون الكلام أكثر فائدة ؟

قلت : نعم ، بأنْ يريدَ بالأول مَنْ رأى رأيا وكشفه لغيره ، وجامعه عليه ثم بدا له وعابه ، ويريد بالثانى مَنْ عزم نفسه عزما ولم يظهر لغيره ثم رجع عنه ، ويمكن أيضا بأن يفرّق بينهما بأن يعنى بالرأى الاعتقاد ، كما يقال : هذا رأى أبى حنيفة ، والعزم أمر مفرد خارج عن ذلك ، وهو مايعزم عليه الإنسان من أمور نفسه ، ولا يقال : عزم فى الاعتقادات .

ثم قال عليه السلام : « وقد أدبرت الحيلة » : ولّت ، وأقبلت الغِيلة ، أى الشرّ ، ومنه قولهم : فلان قليل الغائلة . أو يكون بمعنى الاغتيال، يقال: قتله غيلة ، أى خديعة . يذهب به إلى مكان يوهمه أنه لحاجة ثم يقتله .

قال عليه السلام : « ولاتَ حينَ مناص » ، هذه من ألفاظ الكتاب العزيز[1] ، قال الأخفش : شبّهوا «لات» بليس، وأضمروا فيها اسم الفاعل ؛ قال : ولا تكون « لات» إلا مع «حين» ، وقد جاء حذف«حين» فى الشعر ، ومنه المثل : « حنّت ولات هنّت» ، أى ولات حين حنّت ، والهاء بدل من الحاء ، لحذف الحين وهو يريده . قال : وقرأ بعضهم ﴿ وَلَاتَ حِينُ مَنَاصٍ ﴾ بالرفع ، وأضمر الخبر . وقال أبو عبيد : هى لا ؛ والتاء إنّما زيدت فى « حين » ، لا فى « لا » ، وإن كتبت مفردة ، والأصل « تحين » كما قال فى « ألان » « تلان » . فزادوا التاء ، وأنشد لأبى وجزة .

العاطفون تَحِينَ ما من عاطف ... والمطعمون زمان أين المطعم[2]

وقال المؤرّج : زيدت التاء فى «لات» كما زيدت فى « ربّت» و « ثمّت» .

والمناص: المهرب ، ناص عن قرنه ينوص نوصا ومناصا ، أى ليس هذا وقت الهرب والفرار.

---

(١) وهو قوله تعالى فى سورة ص ٣ : ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ .

(٢) الصحاح ١ : ٢٢٦

ويكون المناص أيضا بمعنى الملجأ والمفزع ، أى ليس هذا حين تجد مفزعا ومعقلا تعتصم به .

هيهات : اسم الفعل ومعناه بَعُد ، يقال : هيهات زيد فهو مبتدأ وخبر ، والمعنى يعطى الفعلية ، والتاء فى « هيهات » مفتوحة مثل كيف ، وأصلها هاء ، وناس يكسرونها على كلّ حال بمنزلة نون التثنية ، وقال الراجز :

هيهـات من مصبَحها هيهـاتِ هيهات حُجْر من صُنَيْعاتِ[1]

وقد تبدل الهاء همزة ، فيقال « أيهات » مثل هراق وأراق ، قال :

• أيهات منك الحياة أيهـاتا[2] •

قال الكسائىّ : فمن كسر التاء وقف عليها بالهاء ، فقال : «هَيْهَاه» ، ومَنْ فتحها وقف إن شاء بالتاء وإن شاء بالهاء .

قوله عليه السلام: « ومضت الدنيا لحال بالها » ، كلمة تقال فيما انقضى وفرط أمره ، ومعناها مضى بما فيه إن كان خيرا ، وإن كان شرا .

قوله عليه السلام : « فما بكت عليهم السماء » ؛ هو من كلام الله تعالى ؛ والمراد أهل السماء وهم الملائكة وأهل الأرض وهم البشر، والمعنى أنهم لايستحقون أن يتأسّف عليهم ، وقيل : أراد المبالغة فى تحقير شأنهم لأنّ العرب كانت تقول فى العظيم القدر يموت : بكته السماء ، وبكته النجوم ، قال الشاعر :

فالشَّمْسُ طالعةٌ لَيْسَتْ بكاسِفَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ والقمرَا[3]

فنفى عنهم ذلك ، وقال : ليسوا من يقال فيه مثل هذا القول ، وتأوّلها ابن عباس رضى الله عنه لما قيل له : أتبكى السماء والأرض على أحد ؟ فقال : نعم يبكيه مصلاه فى الأرض ومصعد عمله فى السماء ؛ فيكون نفى البكاء عنهما كناية عن أنه لم يكن لهم فى الأرض عمل صالح يرفع منهما إلى السماء .

---

(١) اللسان ١٧ : ٤٥١ من رجز نسبه الى حميد الأرقط .

(٢) انظر اللسان ١٧ : ٤٥٢ (٣) لجرير ، ديوانه ٣٠٤

(٢٣٨)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

(ومن الناس مَنْ يسمّي هذه الخطبة بالقاصعة ، وهي تتضمن ذمّ إبليس لعنه الله ، على استكباره وتركه السجود لآدم عليه السلام وأنه أول من أظهر العصبية وتبع الحمية . وتحذيرَ الناس من سلوك طريقته):

الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي لَبِسَ الْعِزَّ وَالْكِبْرِيَاءَ ؛ وَاخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُمَا حِمىً وَحَرَماً عَلَى غَيْرِهِ، وَاصْطَفَاهُمَا لِجَلَالِهِ ، وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ .

ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ ؛ لِيَمِيزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ ، وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ وَمَحْجُوبَاتِ الْغُيُوبِ : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾[1] ؛ اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ ، فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ ، فَعَدُوُّ اللهِ إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ ، وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ ؛ الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ ، وَنَازَعَ اللهَ رِدَاءَ الْجَبْرِيَّةِ ، وَادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ .

أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللهُ بِتَكَبُّرِهِ ، وَوَضَعَهُ اللهُ بِتَرَفُّعِهِ ؟ فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَدْحُوراً ، وَأَعَدَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ سَعِيراً !

* * *

---

(١) سورة ص ٧١ ـ ٧٤

الشَّرْحُ :

يجوز أن تسمّى هذه الخطبة « القاصعة » من قولهم : قَصَعَت الناقة بجِرّتها ، وهو أن تردّها إلى جوفها ، أو تخرجها من جوفها فتملأ فاها ، فلمّا كانت الزواجر والمواعظ فى هذه الخطبة مردّدة من أولها إلى آخرها ، شبّهها بالناقة التى تقصع الجِرّة . ويجوز أن تسمى القاصعة لأنها كالقاتلة لإبليس وأتباعه من أهل العصبيّة ، من قولهم : قَصَعت القملة ، إذا هشمتَها وقتلتها : ويجوز أن تسمّى القاصعة ، لأنّ المستمع لها المعتبر بها يذهب كِبْره ونخوته ، فيكون من قولهم : قصع الماء عطشه ، أى أذهبه وسكّنه ، قال ذو الرُّمّة بيتا فى هذا المعنى :

فانصاعَتِ الحُقْبُ لم تَقْصَعْ صرائرَها ... وقد تَنَشَّحْ فلا رِىٌّ ولا هِيمُ [١]

الصّرائر : جمع صَريرة ، وهى العطش ؛ ويجوز أن تسمّى القاصعة ، لأنّها تتضمّن تحقير إبليس وأتباعه وتصغيرهم ، من قولهم : قصعت الرجل إذا امتهنتَه وحقّرتَه ، وغلام مقصوع ، أى قمىء لا يشبّ ولا يزداد .

والعصبيّة على قسمين : عصبيّة فى الله وهى محمودة ، وعصبيّة فى الباطل وهى مذمومة ؛ وهى التى نهى أمير المؤمنين عليه السلام عنها ، وكذلك الحَمِيّة . وجاء فى الخبر : « العصبيّة فى الله تورث الجنة ، والعصبية فى الشيطان تورث النار » ؛ وجاء فى الخبر : « العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى فيهما قصمته » ؛ وهذا معنى قوله عليه السلام : « اختارهما لنفسه دون خلقه ... » إلى آخر قوله : « من عباده » .

قال عليه السلام : « ثم اختبر بذلك ملائكته المقرّبين مع علمه بمضمراتهم » ؛ وذلك لأنّ اختباره سبحانه ليس ليعلم بل ليعلم غيره من خلقه طاعة مَنْ يطيع وعصيان من يعصى ، وكذلك ، قوله سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ

(١) ديوانه ٥٨٨ . انصاعت : ذهبت هاربة . والحقب : الحمر الوحشية . وروايته : « وقد نشحن »

الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾[١]، النون فى « لنعلم » نون الجمع لا نون العظمة، أى لتصير أنت وغيرك من المكلّفين عالمين لمن يطيع ومن يعصى ، كما أنا عالم بذلك فتكونوا كأنكم مشاركين لى فى العلم بذلك .

فإن قلت : وما فائدة وقوفهم على ذلك وعلمهم به ؟

قلت : ليس بممتنع أن يكون ظهورُ حال العاصى والمطيع وعلم المكلّفين أو أكثرهم أو بعضهم به يتضمّن لُطفاً فى التكليف !

فإن قلت : إنّ الملائكة لم تكن تعلم ما البشر ، ولا تتصور ماهيّته ، فكيف قال لهم ﴿إنّى خالقٌ بشَراً مِنْ طينٍ﴾ ؟

قلت : قد كان قال لهم : إنى خالق جسماً من صفته كيت وكيت ، فلمّا حكاه اقتصر على الاسم . ويجوز أن يكون عرّفهم من قبل أن لفظة « بشر » على ماذا تقع ، ثم قال لهم : إنّى خالقٌ هذا الجسم المخصوص الذى أعلمتكم أن لفظة « بَشَر » واقعةٌ عليه من طين .

قوله تعالى : ﴿فإذَا سَوَّيْتُه﴾ ؛ أى إذا أكملت خلقه .

فقعوا له ساجدين : أمرهم بالسجود له . وقد اختلف فى ذلك فقال قوم : كان قبلة ، كما الكعبة اليوم قبلة ، ولا يجوز السّجود إلا لله . وقال آخرون : بل كان السُّجود له تكرمةً ومحنة ، والسجود لغير الله غير قبيح فى العقل إذا لم يكن عبادة ولم يكن فيه مفسدة .

وقوله تعالى : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، أى أحللتُ فيه الحياة ، وأجريتُ الرُّوح إليه فى عروقه ، وأضاف الروح إليه تبجيلا لها ، وسمّى ذلك نفخا على وجه الاستعارة ، لأنّ العرب تتصوّر من الروح معنى الريح ، والنفخ يصدق على الريح ، فاستعار لفظة « النفخ » توسُّعا .

---

(١) سورة البقرة ١٤٣

وقالت الحكماء : هذا عبارة عن النفس الناطقة .

فإن قلت : هل كان إبليس من الملائكة أم لا ؟

قلت : قد اختُلف فى ذلك ، فمن جعله منهم احتجّ بالاستثناء ، ومَنْ جعله من غيرهم احتجّ بقوله تعالى : ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ ، وجعل الاستثناء منقطعا ، وبأنّ له نسلا وذرّية ، قال تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ﴾ [1] ، والملائكة لا نسل لهم ولا ذرّية ، وبأنّ أصلَه نار والملائكة أصلها نور ، وقد مرّ لنا كلام فى هذا فى أول الكتاب .

قوله : « فافتخر على آدم بخلقه ، وتعصّب عليه لأصله » ، كانت خلقتُه أهونَ من خلقة آدم عليه السلام ، وكان أصلُه من نار وأصل آدم عليه السلام من طين .

فإن قلت : كيف حكم على إبليس بالكفر ، ولم يكن منه إلا مخالفة الأمر ، ومعلوم أنّ تارك الأمر فاسق لا كافر ؟

قلت : إنّه اعتقد أنّ الله أمره بالقبيح ولم يرَ أمْره بالسجود لآدم عليه السلام حكمة ، وامتنع من السجود تكبّرا ، وردّ على الله أمره ، واستخفّ بمن أوجب الله إجلاله ، وظهر أنّ هذه المخالفة عن فساد عقيدة ، فكان كافراً .

فإن قلت : هل كان كافرا فى الأصل أم كان مؤمنا ثمّ كفر ؟

قلت : أمّا المرجئة فأكثرهم يقول : كان فى الأصل كافرا ، لأنّ المؤمن عندهم لا يجوز أن يكفر ، وأمّا أصحابنا فمّا كان هذا الأصل عندهم باطلاً توقّفوا فى حال إبليس ، وجوّزوا كلا الأمرين .

---

(١) سورة الكهف ٥٠ .

قوله عليه السلام : « رداء الجَبرية » الباء مفتوحة ، يقال : فيه جبَرِيّة ، وجبروَة ، وجَبَروت ، وجَبُّورة ، كفرُّوجة أى كِبْر ، وأنشدوا :

فإنك إن عاديتنى غَضِب الحصا عليك وذو الجُبُّورة المتغطرِفُ[1]

وجعله مدحورا ، أى مطرودا مبعداً ، دحره الله دُحورا ، أى أقصاه وطرده .

***

الأصل :

وَلَوْ أَرَادَ ٱللهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ ٱلْأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ ، وَيَبْهَرُ ٱلْعُقُولَ رُوَاؤُهُ ، وَطِيبٍ يَأْخُذُ ٱلْأَنْفَاسَ عَرْفُهُ ، لَفَعَلَ ؛ وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ ٱلْأَعْنَاقُ خَاضِعَةً ، وَلَخَفَّتِ ٱلْبَلْوَى فِيهِ عَلَى ٱلْمَلَائِكَةِ ، وَلٰكِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ ٱبْتَلَى خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ تَمْيِيزاً بِالِاخْتِبَارِ لَهُمْ ، وَنَفْياً لِلِاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ ، وَإِبْعَاداً لِلْخُيَلَاءِ مِنْهُمْ ، فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ ٱللهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ ٱلطَّوِيلَ ، وَجَهْدَهُ ٱلْجَهِيدَ ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ ٱللهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ ، لَا يُدْرَى أَمِنْ سِنِي ٱلدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي ٱلْآخِرَةِ ، عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى ٱللهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ !

كَلَّا مَا كَانَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً ، إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ لَوَاحِدٌ ، وَمَا بَيْنَ ٱللهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي إِبَاحَةِ حِمًى حَرَّمَهُ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ .

***

الشّرْحُ :

خَطِفت الشىء بكسر الطاء ، أخطفه ، إذا أخذته بسرعة استلاباً ، وفيه لغة أخرى :

(١) لمغلس بن لقيط الأسدى ، وانظر الصحاح وحواشيه (جبر) .

خَطَف بالفتح ، ويخطَف بالفتح ويخطِف بالكسر ، وهى لغة رديئة قليلة لا تكاد تعرف ، وقد قرأ بها يونس فى قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾[1] .

والرُّواء ، بالهمزة والمد : المنظر الحسن . والعَرْف : الريح الطيبة .

والخُيلاء ، بضم الخاء وكسرها : التكبر ، وكذلك الخالُ والمخِيلة ، تقول : اختال الرجل وخال أيضا ، أى تكبّر .

وأحبِط عمله : أبطل ثوابه ، وقد حبط العمل حَبْطا بالتسكين وحُبوطا . والمتكلّمون يسمّون إبطال الثواب إحباطا وإبطال العقاب تكفيراً .

وجَهده بفتح الجيم : اجتهاده وجِدّه ، ووصفه بقوله : « الجهد » أى المستقصى ، من قولهم : مرعى جَهِيد ، أى قد جهده المال الراعى واستقصى رَعْيه .

وكلامه عليه السلام يدلّ على أنه كان يذهب إلى أنّ إبليس من الملائكة لقوله : « أخرج منها ملَكا » .

والموادعة : الموادعة والمصالحة ، يقول : إن الله تعالى خلق آدم من طين ، ولو شاء أن يخلقه من النور الذى يخطف أو من الطيب الذى يعبق لَفَعل ، ولو فعل لهال الملائكة أمرُه وخضعوا له ، فصار الابتلاء والامتحان والتكليف بالسجود له خفيفا عليهم، لعظمته فى نفوسهم ، فلم يستحقّوا ثواب العمل الشاقّ ، وهذا يدلّ على أنّ الملائكة تشمّ الرائحة كما نشمّها نحن ، ولكنّ الله تعالى يبتلى عباده بأمور يجهلون أصلها اختباراً لهم .

فإن قلت : مامعنى قوله عليه السلام : « تمييزا بالاختبار لهم » .

قلت: لأنه ميّزهم عن غيرهم من مخلوقاته ، كالحيوانات العُجْم ، وأبانهم عنهم ، وفضّلهم عليهم بالتكليف والامتحان .

---

(١) سورة البقرة ٢٠

قال : « ونفيا للاستكبار عنهم » ؛ لأن العبادات خضوع وخشوع وذلّة ، ففيها نفي الخُيَلاء والتكبّر عن فاعليها ، فأمرهم بالاعتبار بحال إبليس الذى عَبَدَ الله ستة آلاف سنة ؛ لا يُدْرَى أمِنْ سِنِي الدنيا أم من سنى الآخرة ! وهذا يدلّ على أنه قد سمع فيه نصًّا من رسول الله صلى الله عليه وآله مجملًا لم يفسّره له ، أو فسّره له خاصة ، ولم يفسّره أميرُ المؤمنين عليه السلام للناس لما يعلمه فى كتمانه عنهم من المصلحة .

فإن قلت : قوله : « لا يُدْرَى » على ما لم يسمّ فاعله يقتضى أنه هو لا يدرِى .

قلت : إنه لا يقتضى ذلك ، ويكفى فى صدق الخبر إذا ورد بهذه الصيغة أن يجهله الأكثرون .

فأمّا القولُ فى سِنِى الآخرة كم هى ؟ فاعلم أنه قد وَرَدَ فى الكتاب العزيز آيات مختلفات :

إحداهن قوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (١) .

والأخرى قوله : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (٢) .

والثالثة قوله : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (٣) .

وأولَى ما قيل فيها أنّ المراد بالآية الأولى مدّة عمر الدنيا ، وسمّى ذلك يوما ، وقال : إنّ الملائكة لا تزال تعرُج إليه بأعمال البشر طول هذه المدّة حتى ينقضى التكليف ، وينتقل الأمر إلى دار أخرى . وأمّا الآيتان الأخيرتان فمضمونهما بيان كميّة أيام الآخرة ، وهو أنّ كل يوم منها مثل ألف سنة من سنى الدنيا .

---

(١) سورة المعارج ٤
(٢) سورة السجدة ٥
(٣) سورة الحج ٤٧

فإن قلت : فعلى هذا كم تكون مدّة عبادة إبليس إذا كانت ستة آلاف سنة من سنى الآخرة ؟

قلت : يكون مايرتفع من ضرب أحد المضروبين فى الآخر ، وهو ألفا ألف ألف ، ثلاث لفظات ، الأولى منهن مثناة ، ومائتاألف ألف لفظتان ، وستون ألف ألف سنة لفظتان أيضا من سنى الدنيا . ولما رأى أمير المؤمنين عليه السلام هذا المبلغ عظيما جدا علم أنّ أذهان السامعين لا تحتمله ، فلذلك أبهم القول عليهم ، وقال : « لا يُدْرَى أمِنْ سِنِى الدّنيا أم مِنْ سِنِى الآخرة » .

فإن قلت : فإذا كنتم قد رجّحتم قولَ مَنْ يقول : إنّ عمر الدنيا خمسون ألف سنة ، فكم يكون عمرُها إن كان الله تعالى أراد خمسين ألف سنة من سنى الآخرة ؟ لأنّه لا يؤمَن أن يكونَ أراد ذلك إذا كانت السنة عنده عبارة عن مدّة غير هذه المدة التى قد اصطلح عليها الناس ؟

قلت : يكون مايرتفع من ضرب خمسين ألفا فى ثلثمائة وستين ألف سنة من سِنى الدنيا ومبلغ ذلك ثمانية عشر ألف ألف ألف سنة من سِنى الدنيا ثلاث لفظات ، وهذا القول قريب من القول المحكىّ عن الهند .

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ فى تاريخه روايات كثيرة بأسانيد أوردها عن جماعة من الصّحابة أنّ إبليس كان إليه ملك السماء وملك الأرض ، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجنّ ، وإنما سُمّوا الجن لأنهم كانوا خُزّان الجنان ، وكان إبليس رئيسهم ومقدّمهم . وكان أصل خَلْقهم من نار السّموم ، وكان اسمه الحارث ، قال : وقد روى أنّ الجنّ كانت فى الأرض ، وأنهم أفسدوا فيها ، فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم وطردهم إلى جزائر البحار ، ثم تكبّر فى نفسه ، ورأى أنه قد صنع شيئا عظيما لم يصنعه غيره . قال : وكان شديد الاجتهاد فى العبادة .

وقيل : كان اسمه عزازيل ، وأنّ الله تعالى جعله حَكماً وقاضياً بين سكان الأرض قبل خلق آدم ، فدخله الكبر والعجب لعبادته واجتهاده وحكمه فى سكان الأرض وقضائه بينهم ، فانطوى على المعصية حتى كان من أمره مع آدم عليه السلام ما كان .

قلت : ولا ينبغى أن نصدّق من هذه الأخبار وأمثالها إلا ما ورد فى القرآن العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أو فى السّنّة ، أو نقل عمّن يجب الرجوع إلى قوله ، وكلّ ماعدا ذلك فالكذب فيه أكثر من الصدق ، والباب مفتوح ، فليقل كلُّ أحدٍ فى أمثال هذه القصص ماشاء .

واعلم أنّ كلام أمير المؤمنين فى هذا الفصل يطابق مذهبَ أصحابنا فى أنّ الجنّة لايدخلها ذو معصية ، ألا تسمع قوله : « فمن بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته كلّا،ما كان الله ليُدخِل الجنة بشرا بأمر أخرج به منها ملكا،إنّ حكمه فى أهل السماء وأهل الأرض لواحد».

فإن قلت : أليس من قولكم إن صاحب الكبيرة إذا تاب دخل الجنة ؟ فهذا صاحب معصية وقد حكمتم له بالجنّة ؟

قلت : إن التوبة أحبطت معصيته فصار كأنه لم يعص .

فإن قلت إن أمير المؤمنين عليه السلام إنما قال: « فمن ذا بعد إبليس يَسْلَم على الله بمثل معصيته » ، ولم يقل : « بالمعصية » المطلقة ؟ والمرجئة لاتخالف فى أنّ مَنْ وافى القيامة بمثل معصية إبليس لم يكن من أهل الجنّة .

قلت : كلّ معصية كبيرة فهى مثل معصيته ، ولم يكن إخراجه من الجنّة لأنه كافر ، بل لأنه عاصٍ مخالف للأمر ، ألا ترى أنه قال سبحانه : ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾[1] ، فعلّل إخراجه من الجنة بتكبره لا بكفره .

فإن قلت : هذا مناقض لما قدّمت فى شرح الفصل الأول .

---

(١) سورة الأعراف : ١٣٠

قلت : كلّا ، لأنى فى الفصل الأوّل علّلت استحقاقه اسم الـكفر بأمر زائد على المعصية المطلقة ، وهو فساد اعتقاده ، ولم أجعـل ذلك علّة فى خروجه من الجنة ، وهاهنـا علّلت خروجه من الجنّة بنفس المعصية ، فلا تناقض .

فإن قلت : ما معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام . « ما كان الله ليدخل الجنّة بشرا بأمر أخرج به منها مَلَـكا » ؟ وهل يظنّ أحد أو يقول: إنّ الله تعالى يُدخل الجنة أحداً من البشر بالأمر الذى أخرج به هاهنا إبليس ! كلّا ، هذا مالا يقوله أحد ، وإنما الذى يقوله المرجئة: إنّه يدخل الجنة مَنْ قد عصى وخالف الأمر ـ كما خالف الأمر إبليس ـ برحمته وعفوه، وكما يشاء ، لا أنّه يدخله الجنّة بالمعصية ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضى نفىَ دخول أحد الجنّة بالمعصية لأنّ الباء للسببية ؟

قلت الباء : هاهنا ليست للسببية كما يتوهّمه هذا المعترض ؛ بل هى كالباء فى قولهم : خرج زيد بثيابه ، ودخل زيد بسلاحه ، أى خرج لابساً ، ودخل متسلّحاً ، أى يصحبه الثياب ويصحبه السلاح ، فـكذلك قوله عليه السلام : « بأمر أخرج به منها ملَـكاً » ، معناه أنّ الله تعالى لايدخِل الجنة بشراً يصحبه أمر أخرج الله به مَلَـكا منها .

● ● ●

الأصـلُ :

فاحذَرُوا عِبادَ اللهِ عَدُوَّ اللهِ أنْ يُعْدِيَـكُمْ بِدائِهِ ، وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِنِدائِهِ ، وَأَنْ يُجْلِبَ عَلَيْـكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ ، فَلَعَمْرِى لَقَدْ فَوَّقَ لَـكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ ، وَأَغْرَقَ إِلَيْـكُمْ بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَـكَانٍ قَرِيبٍ ، فَقَالَ : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [1] ، قَذْفاً بِغَيْبٍ بَعِيدٍ ، وَرَجْماً بِظَنٍّ

---

(١) سورة الحجر : ٣٩

غير مصيب: صدّقه به أبناء الحميّة، وإخوان العصبيّة، وفرسان الكبر والجاهليّة، حتى إذا انقادت له الجامحة منكم، واستحكمت الطّماعية منه فيكم، فنجمت الحال من السرّ الخفيّ إلى الأمر الجليّ، استفحل سلطانه عليكم، ودلف بجنوده نحوكم، فأقحموكم ولجات الذلّ، وأحلّوكم ورطات القتل، وأوطأوكم إثخان الجراحة، طعناً في عيونكم، وحزّاً في حلوقكم، ودقّاً لمناخركم، وقصداً لمقاتلكم، وسوقاً بخزائم القهر إلى النار المعدّة لكم، فأصبح أعظم في دينكم حرجاً، وأورى في دنياكم قدحاً، من الذين أصبحتم لهم مناصبين، وعليهم متألّبين.

فاجعلوا عليه حدّكم، وله جدّكم. فلعمر الله لقد فخر على أصلكم، ووقع في حسبكم، ودفع في نسبكم، وأجلب بخيله عليكم، وقصد برجله سبيلكم. يقتنصونكم بكلّ مكان، ويضربون منكم كلّ بنان، لا تمتنعون بحيلة، ولا تدفعون بعزيمة، في حومة ذلّ، وحلقة ضيق، وعرصة موت، وجولة بلاء.

فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبيّة، وأحقاد الجاهليّة، فإنّما تلك الحميّة تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته، ونزغاته ونفثاته، واعتمدوا وضع التذلّل على رؤوسكم، وإلقاء التعزّز تحت أقدامكم، وخلع التكبّر من أعناقكم، واتّخذوا التواضع مسلحة بينكم وبين عدوّكم إبليس وجنوده؛ فإنّ له من كلّ أمّة جنوداً وأعواناً، ورجلاً وفرساناً؛ ولا تكونوا كالمتكبّر على ابن أمّه من غير ما فضل جعله الله فيه، سوى ما ألحقت العظمة بنفسه من عداوة الحسب، وقدحت الحميّة في قلبه من نار الغضب، ونفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر الذي أعقبه الله به الندامة، وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة.

* * *

الشرح :

موضع « أن يُعدِيَكم » نصب على البدل من « عدو الله » . وقال الراوندىّ : يجوز أن يكون مفعولا ثانيا ، وهذا ليس بصحيح لأن « حذر » لا يتعدى إلى المفعولين ، والعَدْوَى : مايُعدِى من جَرَبٍ أو غيره ، أعدى فلانٌ فلانا من خُلُقه أو من علته ، وهو مجاوزته من صاحبه إلى غيره ، وفى الحديث : « لا عَدْوَى فى الإسلام » .

فإن قلت : فإذا كان النبىّ صلى الله عليه وآله قد أبطل أمر العَدْوَى ، فكيف قال أمير المؤمنين : « فاحذروه أن يُعدِيَكم » ؟

قلت : إنّ النبىّ صلّى الله عليه وآله أبطلَ ما كانت العرب توهّمه من عَدْوَى الجرَب فى الإبل وغيرها ، وأميرُ المؤمنين عليه السلام حذّر المكلّفين من أن يتعلّموا من إبليس الكِبْرَ والحَميّة ، وشبّه تعلّمهم ذلك منه بالعَدْوَى لاشتراك الأمرين فى الانتقال من أحدِ الشخصين إلى الآخر .

قوله عليه السلام : « يستفزّكم » أى يستخفّكم ، وهو من ألفاظ القرآن : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ [1] أى أزعجه واستخفّه واطرُدْه . والخيل : الخيّالة ، ومنه الحديث : « ياخَيْلَ الله اركبى » .

والرَّجْل : اسم جمع لراجل كرَكْب اسم جمع لراكبٍ ، وصَحْب اسم جمع لصاحبٍ وهذه أيضا من ألفاظ القرآن العزيز : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ ﴾ [2] وقرئ ﴿ ورَجِلِك ﴾ [3] بكسر الجيم على أن « فَعِلاً » بالكسر بمعنى فاعل نحو تَعِب وتاعِب ،

---

(١) سورة الإسراء ٦٤ (٢) سورة الإسراء ٦٤

(٣) هى قراءة حفص ؛ وانظر تفسير القرطبى ١٠ : ٢٨٨

ومضاه ، وقد تضمّ الجيم أيضا ، فيكون مثل قولك رجل حَدِث وحَدُث وندِس وندُس .

فإن قلت : فهل لإبليس خيل تركبها جنده ؟

قلت : يجوز أن يكون ذلك ، وقد فسّره قوم بهذا . والصحيح أنه كلام خرج مخرج المثَل ، شبّهت حاله فى تسلّطه على بنى آدم بمن يُغير على قوم بخيله ورجله فيستأصلهم . وقيل: بصوتك، أى بدعائك إلى القبيح . وخيله ورجله : كلّ ماش وراكب من أهل الفساد من بنى آدم .

قوله : « وفوّقت السهم » جعلت له فُوقًا ، وهو موضع الوَتَر ، وهذا كناية عن الاستعداد ، ولا يجوز أن يفسّر قوله : « قد فوّق لكم سهم الوعيد » بأنه وضع الفُوق فى الوتر ليرمَى به ، لأنّ ذاك لا يقال فيه قد فوّق ، بل يقال : أفقت السّهم وأوفقته أيضا ، ولا يقال : أفوقته ، وهو من النوادر .

وقوله : « وأغرق إليكم بالنّزع » ، أى استوفى مدّ القوس وبالغ فى نزعها ليكون مرماه أبعدَ ، ووقعُ سهامِه أشدّ .

قوله : « ورماكم من مكان قريب » ، لأنه كما جاء فى الحديث : « يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، ويخالط القلب » ، ولا شىء أقرب من ذلك .

والباء فى قوله : « بما أغويتَنِي » متعلق بفعل محذوف تقديره : أجازيك بما أغويتَنِي تزيينى لهم القبيح ، فـ«ما» على هذا مصدرية أى أجازيك بإغوائك لى تزيينى لهم القبيح ، فحذف المفعول . ويجوز أن يكون الباء قسما كأنه أقسم بإغوائه إياه ليزيّننّ لهم .

فإن قلت : وأىّ معنى فى أن يقسم بإغوائه ؟ وهل هذا مما يقسم به ؟

قلت : نعم ،لأنه ليس إغواء الله تعالى إيّاه خلْق الغىّ والضلال فى قلبه ، بل تكليفه

إياه السّجود الذى وقع النىّ عنده من الشيطان ، لا من الله ، فصار حيث وقع عنده ، كأنه موجب عنه ، فنسب إلى البارى ، والتّكليف تعريض للثواب ولذّة الأبد ، فكان جديرا أن يقسم به ، وقد أقسم فى موضع آخر ، فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[1] ، فأقسم بالعزّة ، وهاهنا أقسم بالأمر والتّكليف . ويجوز فيه وجه ثالث ، وهو ألّا تكون الباء قَسَماً ، ويقدّر قَسَمٌ محذوف ، ويكون المعنى : بسبب ما كلّفتنى فأفضى إلى غوايتى ، أقسِمُ لأفعلنّ بهم نحو مافعلتَ بى ، وهو أن أزيّنَ لهم المعاصىَ التى تكون سبب هلاكهم .

فإن قلت : ليس هذا نحو مافعله البارى به ، لأنّ البارى أمره بالحسن فأباه ، وعَدَل عنه إلى القبيح ، والشّيطان لا يأمرنا بالحسن فنكرهه ونعدل عنه إلى القبيح ، فكيف يكون ذلك نحو وافقته مع البارى !

قلت : المشابهة بين الواقعتين فى أنّ كلّ واحدة منهما تقع عندها المعصية ، لا على وجه الإجبار والقَسْر ، بل على قَصْد الاختيار ، لأنّ معصية إبليس كانت من نفسه ، ووقعت عند الأمر بالسجود اختياراً منه لا فعلا من البارى ، ومعصيتنا نحن عند التّزيين والوسوسة تقع اختيارا منّا لا اضطرارا يضطرنا إبليس إليه ، فلمّا تشابهت الصورتان فى هذا المعنى حَسُن قوله : « بِما فَعَلْتَ بِى كذا لأفعلنّ بهم نحوه » .

فإن قلت : مامعنى قوله : « فى الأرض » ؟ ومن أين كان يعلم إبليس أنّ آدم سيصير له ذرّيّة فى الأرض ؟

قلت : أمّا علمه بذلك فمن قول الله تعالى له وللملائكة : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[2] ، أما لفظة « الأرض » ، فالمراد بها هاهنا الدنيا التى هى دار التكليف ، كقوله تعالى :

---

(١) سورة ص ٨٢ (٢) سورة البقرة ٣٠

﴿ وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ (١) ،ليس يريد به الأرض بعينها بل الدنيا وما فيها من الملاذّ وهوى الأنفس .

قوله عليه السلام : « قذفاً بغيبٍ بعيد » ، أى قال إبليس هذا القول قَذْفاً بغيب بعيد ، والعرب تقول للشيء المتوهّم على بعد : هَذَا قَذْفٌ بغيب بعيد ، والقذفُ فى الأصل: رَمْى الحجر وأشباهه ، والغيب الأمر الغائب ، وهذه اللفظة من الألفاظ القرآنية ، قال الله تعالى فى كفّار قريش :﴿ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (٢) ،أى يقولون : هذا سحر : أو هذا من تعليم أهل الكتاب ، أو هذه كهانة ، وغير ذلك مما كانوا يرمُونه عليه الصلاة والسلام به .وانتصب « قذفاً » على المصدر الواقع موقع الحال ،وكذلك « رَجْماً ». وقال الراوندىّ : انتصبا لأنّهما مفعول له ، وليس بصحيح ، لأنّ المفعول له ما يكون عـذراً وعلّة لوقوع الفعل ، وإبليس ماقال ذلك الكلام لأجل القَذْف والرّجْم ، فلا يكون مفعولا له .

فإن قلت : كيف قال عليه السلام : « قذفاً من مكان بعيد ، ورَجْماً بظنٍّ غـير مصيب » ، وقد صحّ ماتوهّمه وأصاب فى ظنّه ، فإن إغواءه وتزيينه تمّ على النّاس كلّهم إلا على المخلصين .

قلت : أمّا أولا فقد رُوى : « ورجما بظنٍّ مصيب » بحذف « غير » ، ويؤكد هذه الرواية قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا ﴾ (٣) وأما ثانيا على الرواية التى هى أشهر فنقول : أما قذفا من مكان بعيد ، فإنه قال ماقال على سبيل التوهّم والحسبان لأمر مستبعَد لايعلم صحته ولا يظنها ،وليس وقوع ماوقع من المعاصى وصحة ماتوهّمه بمخرج لكون قوله الأول: « قذفا بغيب بعيد »،وأمّا « رَجْماً بظنٍّ غير مصيب»،

(١) سورة الأعراف ١٧٦
(٢) سورة سبأ ٥٣
(٣) سورة سبأ ٢٠

فيجب أن يحمل قوله : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ[1] ﴾ على الغواية بمعنى الشِّرْك أو الكفر ؛ ويكون الاستثناء وهو قوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ[1] ﴾ معناه : إلا المعصومين من كلّ معصية ، وهذا ظنّ غير مصيب لأنه ما أغوى كلّ البشر الغواية التي هي الكفر والشِّرك إلا المعصومين العصمة المطلقة ، بل أغوى بعضهم كذلك ، وبعضهم بأنْ زيّنَ له الفسق دون الكفر ، فيكون ظنّه أنّه قادر على إغواء البشر كافّة بمعنى الضّلال بالكفر ظنًّا غير مصيب .

قوله : « صدّقه به أبناء الحيَّة » موضع « صدّقه » جر لأنه صفة « ظنّ » ، وقد روى : « صدّقه أبناء الحيَّة » من غير ذكر الجار والمجرور ، ومَنْ رواه بالجارّ والمجرور كان معناه : صدقه في ذلك الظن أبناء الحيَّة ، فأقام الباء مقام « في » .

قوله : « حتى إذا انقادت له الجامحة منكم » ، أي الأنفس الجامحة أو الأخلاق الجامحة .

قوله « فنجمت فيه الحال » أي ظهرت ، وقد روى : « فنجمت الحال من السرّ الخفيّ » من غير ذكر الجار والمجرور ، ومن رواه بالجارّ والمجرور فالمعنى : فنجمت الحال في هذا الشأن المذكور بينه وبينكم من الخفاء إلى الجَلاء .

واستفحل سلطانه : قويَ واشتدّ وصار فَحْلاً ، واستفحل جواب قوله : « حتى إذا » .

دلف بجنوده : تقدّم بهم .

والولَجات : جمع ولَجَة بالتحريك ، وهي موضع ، أو كهف يستتر فيــه المارّة من مطر أو غيره .

وأقحموكم : أدخلوكم . والورطة : المهلكة .

قوله : « وأوطأوكم إثخان الجراحة » ، أي جعلوكم واطئين لذلك ، والإثخان : مصدر أثخن في القتل ، أي أكثر منه وبالغ حتى كثف شأنه ، وصار كالشيء الثَّخين ، ومعنى

---

(١) سورة ص : ٨٢ ، ٨٣

إيطاء الشيطان بنى آدم ذلك إلقاؤه إيّاهم فيه ، وتوريطهم وحمله لهم عليه . فالإثخان على هذا منصوب لأنه مفعول ثانٍ ؛ لا كما زعم الراوندىّ أنه انتصب بحذف حرف الخفض .

قوله عليه السلام : « طَعْناً فى عيونكم » ، انتصب « طعنا » على المصدر ، وفعله محذوف ، أى فعلوا بكم هذه الأفعال فطعنوكم فى عيونكم طعنا ، فأمّا من روى : « وأوطأوكم لإثخان الجراحة » باللّام فإنه يجعل « طعنا » منصوبا على أنه مفعول به ، أى أوطأوكم طعناً وحزّاً ، كقولك : أوطأته ناراً ، وأوطأته عَشْوةً ، ويكون « لإثخان الجراحة » مفعولا له ، أى أوطأوكم الطعن ليثخنوا جراحكم . وينبغى أن يكون « قصدا » و « سوقا » خالصَيْن للمصدرية ، لأنه يبعد أن يكون مفعولا به .

واعلم أنّه لمّا ذكر الطعنَ نسبه إلى العيون ، ثم ولمّا ذكر الحزّ ، وهو الذبح نسبه إلى الحلوق ، ولما ذكر الدقّ ، وهو الصدم الشديد أضافه إلى المناخر ، وهذا من صناعة الخطابة التى علّمه الله إيّاها بلا تعليم ، وتعلّمها الناس كلّهم بعده منه .

والخزائم : جمع خزامة ، وهى حلقة من شعر تجعل فى وَتَرة أنف البعير فيشدّ فيهـا الزمام .

وتقول : قد وَرَى الزَّند ، أى خرجت ناره ، وهذا الزند أوْرَى من هذا ، أى أكثر إخراجا للنار . يقول : فأصبح الشيطان أضرّ عليكم وأفسد لحالكم من أعدائكم الّذين أصبحتم مناصبين لهم ، أى معادين ، وعليهم متألبين ، أى مجتمعين .

فإن قلت : أمّا أعظم فى الدين حرجاً فمعلوم ، فأى معنى لقوله : « وأورى فى دنياكم قَدْحا » ، وهل يُفسِد إبليسُ أمرَ الدّنيا كما يفسد أمر الدين ؟

قلت : نعم ، لأنّ أكثر القبائح الدينيّة مرتبطة بالمصالح والمفاسد الدنيويّة ، ألا ترى أنّه إذا أغرى السارق بالسرقة أفسدَ حال السارق من جهة الدّين وحال المسروق منه من جهة الدّنيا ،

وكذلك القول فى الغصب والقتل وما يحدث من مضارّ الشرور الدنيويّة من اختلاط الأنساب واشتباه النسل، وما يتولّد من شرب الخمر والسكر الحاصل عنها من أمور يحدثها السكران خبطاً بيده ، وقذفاً بلسانه ، إلى غير ذلك من أمثال هذه الأمور وأشباهها .

قوله عليه السلام : « فاعملوا عليه حدّكم » ، أى شباتكم وبأسكم .

وله جِدّكم : من جددت فى الأمر جدّا ، أى اجتهدت فيه وبالغت .

ثم ذكر أنّه فخر على أصل بنى آدم ، يعنى أباهم آدم عليه السلام حيث امتنع من السجود له ، وقال : « أنا خير منه » .

ووقع فى حسبكم : أى عاب حسبكم وهو الطين ، فقال : إنّ النار أفضلُ منه .

ودفع فى نسبكم مثله .

وأجلب بخيله عليكم ، أى جمع خيّالته وفرسانه وألّبها .

ويقتنصونكم : يتصيّدونكم . والبنان : أطراف الأصابع ، وهو جمع، واحدته بنانة ، ويجمع فى القلة على بنانات ، ويقال : بنان مخضّب ، لأنّ كلّ جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء فإنه يذكّر ويوحّد .

والحومة : معظم الماء والحرب وغيرها ، وموضع هذا الجار والمجرور نصب على الحال ، أى يقتنصونكم فى حومة ذلّ .

والجولة : الموضع الذى تجول فيه .

وكَمَن فى قلوبكم : استتر ، ومنه الكمين فى الحرب .

ونزغات الشيطان : وساوسه التى يفسد بها . ونفثاته مثله .

قوله : « واعتمدوا وضع التذلّل على رءوسكم ، وإلقاء التعزّز تحت أقدامكم » كلامٌ شريف جليل المحلّ ، وكذلك قوله عليه السلام : « واتّخذوا التواضع مسلحةً بينكم وبين عدوّكم إبليس وجنوده » ، والمسلحة : خيلٌ معدّةٌ للحماية والدفاع .

ثم نهاهم أن يكونوا كقابيل الذى حسد أخاه هابيل فقتله ، وهما أخوان لأب وأمّ ، وإنما قال : « ابن أمّه » ، فذكر الأمّ دون الأب ، لأنّ الأخوين من الأمّ أشدّ حُنُوًّا ومحبّة والتصاقا من الأخوين من الأب ، لأنّ الأمّ هى ذات الحضانة والتربية .

وقوله : « من غير ما فصل » ؛ ماهاهنا زائدة ، وتعطى معنى التأكيد ؛ نهاهم عليه السلام أن يحسدوا النعم ، وأن يبغوا ويفسدوا فى الأرض ، فإنّ آدم لما أمر ولده بالقربان قرّب قابيلُ شرّ ماله ـ وكان كافراً ـ وقرّب هابيل خَيْرَ ماله ـ وكان مؤمنا ـ فتقبّل الله تعالى من هابيل ، وأهبط من السماء ناراً فأكلته ، قالوا : لأنه لم يكن فى الأرض حينئذ فقير يصل القربان إليه ، فحسده قابيل ـ وكان أكبر منه سنًّا ـ فقال : لأقتلنك ، قال : هابيل إنّما يتقبل الله من المتقين ، أى بذنبك وجرمك كان عدم قبول قُربانك لانسلاخك من التقوى ، فقتله فأصبح نادماً ، لا ندم التوبة بل ندم الحيرة ورقّة الطبع البشرىّ ، ولأنه تعب فى حمله كما ورد فى التنزيل أنه لم يفهم ماذا يصنع به حتى بعث الله الغراب .

قوله عليه السلام : « وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة » ، لأنه كان ابتدأ بالقتل ، ومَنْ سنّ سنّة شرّ كان عليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة ، كما أنّ مَنْ سَنّ سنّة خير كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه ، أنّ الروايات اختلفت فى هذه الواقعة ، فروى قوم أنّ الرجلين كانا من بنى إسرائيل وليسا من ولد آدم لصُلبه ، والأكثرون خالفوا فى ذلك .

ثم اختلف الأكثرون ، فروى قوم أنّ القربان من قابيل وهابيل كان ابتداء ، والأكثرون قالوا : بل أراد آدم عليه السلام أن يزوّج هابيل أخت قابيل توءمته ، ويزوّج

قابيل أخت هابيل توءمته ، فأبى قابيل ، لأنّ توءمته كانت أحسن ، فأمرهما أبوهما بالقربان ، فمن تُقبّل قربانه نكح الحسناء . فتقبّل قربان هابيل ، فقتله أخوه كما ورد فى الكتاب العزيز .

وروى الطبرى مرفوعا أنه صلى الله عليه وآله قال : « ما من نفس تُقتل ظلما إلا كان على ابن آدم عليه السلام الأوّل كِفْل منها ، وذلك بأنه أول من سنّ القتل » ، وهذا يشيّد قول أمير المؤمنين عليه السلام .

● ● ●

الأصل :

ألا وقد أمعنتم فى البغى ، وأفسدتم فى الأرض ، مُصارحةً لله بالمُناصبة ، ومبارزةً للمؤمنين بالمحاربة . فالله الله فى كِبْرِ الحميّة ، وفخرِ الجاهلية ! فإنّه ملاقحُ الشنآن ، ومنافخُ الشيطان ؛ التى خدع بها الأمم الماضية ، والقرون الخالية ، حتّى أعنقوا فى حنادس جهالته ، ومهاوى ضلالته ، ذُلُلا عن سياقه ، سُلُسًا فى قياده ؛ أمراً تشابهت القلوبُ فيه ؛ وتتابعت القرونُ عليه ؛ وكِبْرًا تضايقت الصدورُ به .

ألا فالحذرَ الحذرَ من طاعة ساداتكم وكبرائكم ! الّذين تكبّروا عن حسبهم ، وترفّعوا فوق نسبهم ، وألقوا الهجينة على ربّهم ، وجاحدوا الله على ما صنع بهم ؛ مكابرةً لقضائه ، ومغالبةً لآلائه ، فإنّهم قواعد أساس العصبيّة ، ودعائم أركان الفتنة ، وسيوفُ اعتزاء الجاهليّة .

فاتّقوا الله ولا تكونوا لنعمه عليكم أضداداً ، ولا لفضله عندكم حُسّاداً ،

وَلَا تُطِيعُوا الأَدْعِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ، وَهُمْ آسَاسُ الْفُسُوقِ، وَأَحْلَاسُ الْعُقُوقِ؛ اتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلَالٍ، وَجُنْداً بِهِمْ يَصُولُ عَلَى النَّاسِ، وَتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، اسْتِرَاقاً لِعُقُولِكُمْ، وَدُخُولاً فِي عُيُونِكُمْ، وَنَفْثاً فِي أَسْمَاعِكُمْ، فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ، وَمَوْطِئَ قَدَمِهِ، وَمَأْخَذَ يَدِهِ.

فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَصَوْلَاتِهِ، وَوَقَائِعِهِ وَمَثُلَاتِهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ، وَاسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ.



الشرح :

أمعنتم في البغي : بالغتم فيه ، من أمعن في الأرض؛ أي ذهب فيها بعيدا . ومصارحته، أي مكاشفة .

والمناصبة : المعاداة .

وملاقح الشنآن : قال الراوندي : الملاقح هي الفحول التي تلقح ؛ وليس بصحيح ، نص الجوهري على أن الوجه لواقح كما جاء في القرآن : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾[1] .

وقال : هو من النوادر ، لأن الماضي رباعي . والصحيح أن ملاقح هاهنا جمع مَلْقح وهو المصدر ، من لقحت كضربت مضربا وشربت مشربا .

ويجوز فتح النون من الشنآن وتسكينها ؛ وهو البغض .

ومنافخ الشيطان : جمع مَنْفَخ ، وهو مصدر أيضا ، من نفخ ، ونفخ الشيطان ونفثه

واحد ، وهو وسوسته وتسويله ، ويقال لمتطاول إلى ماليس له : قد نفخ الشيطان فى أنفه. وفى كلامه عليه السلام ، بقوله لطلحة وهو صريع ، وقد وقف عليه ، وأخذ سيفه : « سيفٌ طالما جلىّ به الكُرَب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الشيطان نفخ فى أنفه ! » .

قوله : وأعنقوا : أسرعوا ، وفرس مِعْناق ، والسَّيْر العَنَق ، قال الراجز :

يا نَاقُ سِيرى عَنَقًا فَسِيحَا ... إلى سُلَيمانَ فَنَسْتَرِيحَا

والحنادس : الظلَم .

والمهاوى : جمع مَهْواة بالفتح ؛ وهى الهُوّة يتردّى الصيد فيها ، وقد تهاوى الصَّيْد فى المهواة ، إذا سقط بعضه فى أثر بعض .

قوله عليه السلام : « ذللا عن سياقه » ، انتصب على الحال ، جمع ذَلُول ، وهو السهل المقادة ، وهو حال من الضمير فى « أعنقوا » ، أى أسرعوا منقادين لسوقه إياهم .

وسُلُسا : جمع سَلِس، وهو السَّهل أيضا ، وإنما قسم « ذللا » و« سلسا » بين « سياقه » و « قياده » لأنّ المستعمل فى كلامهم : قدتُ الفرس فوجدته سَلِسًا أو صعبا ، ولا يستحسنون: سقته فوجدته سلسا أو صعبا ، وإنما المستحسن عندهم: سقته فوجدته ذَلُولا أو شَمُوسا .

قوله عليه السلام : « أمرا » منصوب بتقدير فعل ، أى اعتمدوا أمرا ، « وكبرا » ، معطوف عليه ، أو ينصب « كبرا » على المصدر بأن يكون اسما واقعا موقعه ، كالعطاء موضع الإعطاء .

وقال الراوندى : « أمرا » منصوب هاهنا لأنه مفعول به . وناصبه المصدر الذى هو سياقه وقياده ، تقول: سقطت سياقا وقدت قيدا ، وهذا غير صحيح لأنّ مفعول هذين المصدرين محذوف تقديره: عن سياقه إياهم وقياده إياهم ؛ هذا هو معنى الكلام ، ولو فرضنا مفعول

أحد هذين المصدرين «أمرا» لفسد معنى الكلام. وقال الراوندى أيضا : ويجوز أن يكون «أمرا» حالا . وهذا أيضا ليس بشيء ، لأنّ الحال وصف هيئة الفاعل أو المفعول ، و «أمرا» ليس كذلك .

قوله عليه السلام : «تشابهت القلوب فيه» ، أى أنّ الحمية والفخر والكبر والعصبيّة ما زالت القلوب متشابهة متماثلة فيها .

وتتابعت القُرون عليه : جمع قَرْن بالفتح ؛ وهو الأمّة من الناس .

وكِبْرا تضايقت الصدور به أى كبر فى الصدور حتى امتلأت به وضاقت عنه لكثرته .

ثم أمر بالحذر من طاعة الرؤساء أرباب الحمية، وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ [1]

وقد كان أمَرَ فى الفصل الأوّل بالتواضع لله ، وههنا عن التواضع للرؤساء ، وقد جاء فى الخبر المرفوع : «ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء ! وأحسنُ منه تكبّر الفقراء على الأغنياء» .

الذين تكبّروا عن حسبهم ، أى جهلوا أحسبهم ، ولم يفكّروا فى أصلهم من النُّطَف المستقذَرة من الطين المنتن ، قال الشاعر :

مابال من أوله نُطْفَـــةٌ ... وجيفَـــةٌ آخرُه يَفْخَرُ

يصبح لا يملك تقديمَ ما ... يرجُو ولا تأخير مايحـذَرُ

قوله عليه السلام : «وألقوا الهُجَيِّنة على ربهم» روى «الهجينة» على «فَعِيلة» ، كالطبيعة والخليقة،وروى«الهُجَنة» على «فُعْلَة» ، كالمصعة واللُّقمة ، والمراد بهما الاستهجان ، من قولك : هو يهجّن كذا أى يقبّحه ، ويستهجنه أى يستقبحه . أى نسبوا مافى الأنساب

---

(١) سورة الأحزاب ٦٧

من القبيح بزعمهم إلى ربهم ، مثل أن يقولوا للرجل : أنت عجمىّ ونحن عرب ، فإنّ هذا ليس إلى الإنسان ، بل هو إلى الله تعالى ، فأىّ ذنب له فيه !

قوله : « وجاحدوا الله » ، أى كابروه وأنكروا صنعه إليهم .

وآساس بالمد : جمع أساس .

واعتزاء الجاهلية : قولهم : يالفلان ! وسمع أبىّ بن كعب رجلاً يقول : يالفلان ! فقال: عَضِضْتَ بهَنِ أبيك ! فقيل له : ياأبا المنذر ما كنت فحّاشا ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « مَنْ تعزّى بعزاء الجاهلية فأعِضّوه بهَنِ أبيه ولا تكْنُوا ».

قوله : « فلا تكونوا لنعمة الله أضدادا » ؛ لأنّ البغىَ والكِبْر يقتضيان زوالَ النعمة وتبدّلها بالنقمة .

قوله : « ولا تطيعوا الأدعياء » ، يريد هاهنا بالأدعياء ، الذين ينتحلون الإسلام ويبطنون النفاق .

ثم وصفهم فقال : « الذين شربتم بصفوكم كدَرَهم » ، أى شربتم كدَرَهم مستبدلين ذلك بصفوكم . ويروى : « الذين ضربتم » ، أى مزجتم . ويروى : « شَرَيْتُمْ » أى بعتم واستبدلتم .

والأحلاس : جمع حِلْس ، وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له ، فقيل لكل ملازم أمر : هو حِلْس ذلك الأمر .

والتّرجمان ، بفتح التاء : هو الذِى يفسّر لسانا بلسان غيره ، وقد تُضم التاء . ويروى: « ونثّاً فى أسماعكم » من نثّ الحديث، أى أفشاه .

• • •

الأصْلُ :

فَلَوْ رَخَّصَ اللهُ فِي الْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ ؛ وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ ، وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ ، فَأَلْصَقُوا بِالْأَرْضِ خُدُودَهُمْ ، وَعَفَّرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ ، وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَكَانُوا قَوْمًا مُسْتَضْعَفِينَ ؛ قَدِ اخْتَبَرَهُمُ اللهُ بِالْمَخْمَصَةِ ، وَابْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ ، وَامْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ ، وَمَخَضَهُمْ بِالْمَكَارِهِ .

فَلَا تَعْتَبِرُوا الرِّضَا وَالسُّخْطَ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ ، جَهْلًا بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ ، وَالِاخْتِبَارِ فِي مَوْضِعِ الْغِنَى وَالْإِقْتَارِ ؛ فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[1].

* * *

الشَّرْحُ :

التكابر : التعاظم ، والغرض مقابلة لفظة « التواضع » لتكون الألفاظ مزدوجة .

وعفّر وجهه : ألصقه بالعفر .

وخفضوا أجنحتهم : ألانوا جانبهم .

والمخمصة : الجوع . والمجهدة : المشقة ، وأمير المؤمنين عليه السلام كثير الاستعمال لمفعل ومفعلة بمعنى المصدر ، إذا تصفحت كلامه عرفت ذلك .

ومخضهم ، أي طهرهم ، وروى « محصهم » بالحاء والصاد المهملة ، أي حرّكهم وزلزلهم .

---

(١) سورة المؤمنون ٥٥ ، ٥٦ .

ثم نهى أن يعتبر رضا الله وسخطه بما نراه من إعطائه الإنسان مالا وولدا ؛ فإن ذلك جهل بمواقع الفتنة والاختبار .

وقوله تعالى : ﴿ أيحسبون .. ﴾ ، الآية دليل على ماقاله عليه السلام ، والأدلة العقلية أيضا دلّت على أنّ كثيرا من الآلام والغموم والبلوى إنما يفعله الله تعالى ، للألطاف والمصالح . وما الموصولة فى الآية يعود إليها محذوف ومقدّر لا بدّ منه ؛ وإلّا كان الكلام غير منتظم ، ولا غير مرتبط بعضه ببعض ، وتقديره : نسارع لهم به فى الخيرات .

• • •

الأصل :

فَإِنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ ، بِأَوْلِيَائِهِ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ ؛ وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ـ عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ ٱلصُّوفِ ، وَبِأَيْدِيهِمَا ٱلْعِصِيُّ ، فَشَرَطَا لَهُ ـ إِنْ أَسْلَمَ ـ بَقَاءَ مُلْكِهِ ، وَدَوَامَ عِزِّهِ ؛ فَقَالَ : أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هٰذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ ٱلْعِزِّ ، وَبَقَاءَ ٱلْمُلْكِ ؛ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ ٱلْفَقْرِ وَٱلذُّلِّ ، فَهَلَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ؛ إِعْظَامًا لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ ، وَٱحْتِقَارًا لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ !

وَلَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ ٱلذِّهْبَانِ ، وَمَعَادِنَ ٱلْعِقْيَانِ ، وَمَغَارِسَ ٱلْجِنَانِ ؛ وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ ٱلسَّمَاءِ ، وَوُحُوشَ ٱلْأَرَضِينَ ؛ لَفَعَلَ ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ ٱلْبَلَاءُ ، وَبَطَلَ ٱلْجَزَاءُ ، وَٱضْمَحَلَّتِ ٱلْأَنْبَاءُ ، وَلَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ ٱلْمُبْتَلَيْنَ ؛ وَلَا ٱسْتَحَقَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ ٱلْمُحْسِنِينَ ، وَلَا لَزِمَتِ ٱلْأَسْمَاءُ مَعَانِيَهَا ؛ وَلٰكِنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ ؛ وَضَعَفَةً فِيمَا

تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ ، مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلَأُ الْقُلُوبَ وَالْعُيُونَ غِنًى ، وَخَصَاصَةٍ تَمْلَأُ الْأَبْصَارَ وَالْأَسْمَاعَ أَذًى .

* * *

الشَّرْحُ :

مدارع الصوف : جمع مِدْرَعة ،بكسر الميم، وهي كالكساء ، وتدرّع الرجل وتمدْرع إذا لبسها . والعِصِيّ : جمع عصا .

وتقول : هذا سِوار المرأة ، والجمع أسوِرة، وجمع الجمع أساورة ، وقرئ: ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ﴾(١). وقد يكون جمع أساور ، قال سبحانه : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾(٢) ، قال أبو عمرو بن العلاء : أساور هاهنا : جمع إسوار وهو السِّوار .

والذِّهبان بكسر الدال : جمع ذهَب ، كخرَب لذكر الحُبارى وخِرْبان . والعِقْيان الذهب أيضا .

قوله عليه السلام : « واضمحلّت الأنباء » أي تلاشت وفنيت . والأنباء : جمع نَبَأ ، وهو الخبر ، أي لسقط الوعد والوعيد وبطلا .

قوله عليه السلام : « ولا لزمت الأسماء معانيها » ، أي مَنْ يسمّى مؤمنا أو مسلما حينئذ ، فإنّ تسميته مجاز لا حقيقة ؛ لأنّه ليس بمؤمن إيمانا مِنْ فعله وكَسْبه ، بل يكون ملجأ إلى الإيمان بما يشاهده من الآيات العظيمة .

والمبتلَيْن ، بفتح اللام : جمع مبتلًى ، كالمعطَيْن والمرتضَيْن، جمع معطى ومرتضى .
والخصاصة : الفقر .

---

(١) سورة الزخرف ٥٣ (٢) سورة الحج ٢٣

وهـذا الكلام هو مايقوله أصحابنا بعينه فى تعليل أفعال البارى سبحانه بالحكمة والمصلحة ، وأنّ الغرض بالتكليف هو التعريض للثواب ، وأنه يجب أن يكون خالصاً من الإلجاء ، ومِنْ أن يفعل الواجب بوجه غير وجه وجوبه ، يرتدع عن القبيح لوجه غير وجه قبحه .

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى التاريخ : أنّ موسى قدم هو وأخوه هارون مصر على فرْعون ، لما بعثهما الله تعالى إليه حتى وقفا على بابه يلتمسان الإذْن عليه ، فمكثا سنين يغدُوان على بابه ويروحان ، لا يعلم بهما ؛ ولا يجترىء أحد على أن يخبره بشأنهما ـ وقد كانا قالا لمن بالباب : إنّ رسولا ربّ العالمين إلى فرعون ـ حتى دخل عليه بطّال له يلاعبه ويضحكه ، فقال له : أيها الملك إنّ على الباب رجلا يقول قولا عجيبا عظيما ، ويزعم أن له إلهاً غيرك ، قال : ببابى ! قال : نعم ، قال : أدخلوه ، فدخل وبيده عصاه ، ومعـه هارون أخوه ، فقال : أنا رسول رب العـالمين إليك ... وذكر تمام الخبر .

فإن قلت : أىّ خاصيّة فى الصوف ولُبْسه ؟ ولم اختاره الصالحون على غيره ؟

قلت : ورد فى الخبر أنّ أول لباس لبسه آدم لما هبط إلى الأرض صوف كبش قيّضه الله له ، وأمره أن يذبحه فيأكل لحمه ويلبس صوفه ؛ لأنّه أهبط عريانَ من الجنة فذبحه ، وغزلت حواء صوفه ، فلبس آدم منه ثوباً ، وألبس حواء ثوبا آخر ، فلذلك صار شعار الأولياء وانتسبت إليه الصوفيّة .

● ● ●

الأصل :

وَلَوْ كَانَتِ الأَنبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَا تُرَامُ ، وَعِزَّةٍ لَا تُضَامُ ، وَمُلْكٍ تُمَدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحَالِ ؛ لَكَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الاعْتِبَارِ ، وَأَبْعَدَ لَهُمْ مِنَ الاسْتِكْبَارِ ، وَلَآمَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ ، أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ ، فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً ، وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً ؛ وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الاتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ ، وَالتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ ، وَالْخُشُوعُ لِوَجْهِهِ ، وَالاسْتِكَانَةُ لِأَمْرِهِ ، وَالاسْتِسْلَامُ لِطَاعَتِهِ ؛ أُمُوراً لَهُ خَاصَّةً ، لَا يَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ .



الشرح :

تمدّ نحوه أعناق الرجال ؛ أى لعظمته ؛ أى يؤمله المؤملون ويرجوه الراجون ، وكلّ مَنْ أمّل شيئاً فقد طمح ببصره إليه معنى لا صورة ، فكنّى عن ذلك بمدّ العنق .

وتُشدّ إليه عُقَد الرحال : يسافر أرباب الرغبات إليه ، يقول : لو كان الأنبياء ملوكا ذوى بأس وقهر لم يمكن إيمان الخلق وانقيادهم إليهم ، لأنّ الإيمان فى نفسه واجب عقلا ، بل كان لرهبة لهم أو رغبة فيهم ، فكانت النيات مشتركة . هذا فرض سؤال وجواب عنه ، كأنه قال لنفسه : لم لا يجوز أن يكون إيمانهم على هذا التقدير لوجوبه ، ولخوف ذلك النبى ، أو لرجاء نفع ذلك النبى صلى الله عليه وآله ؟ فقال : لأنّ النيات تكون حينئذ مشتركة ، أى يكون المكلّف قد فعل الإيمان لكلا الأمرين . وكذلك تفسير قوله : « والحسنات مقتسمة » ؛ قال : ولا يجوز أن تكون طاعة الله تعالى تعل إلّا لكونها طاعة له لا غير ، ولا يجوز أن يشوبها ويخالطها من غيرها شائبة .

فإن قلت : ما معنى قوله : « لـكان ذلك أهون على الخلق فى الاعتبار ، وأبعد لهم من الاستـكبار » ؟

قلت : أى لو كان الأنبياء كالملوك فى السّطوة والبطش ؛ لـكان المكلّف لا يشقّ عليه الاعتبار والانزجار عن القبائح مشقّته عليه إذا تركه لقبحه لا لخوف السيف ، وكان بعدُ المكلفين عن الاستـكبار والبغى لخوف السّيف والتأديب أعظمَ من بعدهم عنهما إذا تركوهما لوجه قبحهما ، فـكان يكون ثواب المـكلّف ؛ إمّا ساقطا ، وإمّا ناقصا .

* * *

الأصْـلُ :

وَكُلَّمَا كَانَتِ الْبَلْوَى وَالاخْتِبَارُ أَعْظَمَ، كَانَتِ الْمَثُوبَةُ وَالْجَزَاءُ أَجْزَلَ ؛ أَلاَ تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ اخْتَبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ ؛ بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ ، فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لِلنَّاسِ قِيَاماً ، ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقَاعِ الْأَرْضِ حَجَراً ، وَأَقَلِّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدَراً ، وَأَضْيَقِ بُطُونِ الْأَوْدِيَةِ قُطْراً . بَيْنَ جِبَالٍ خَشِنَةٍ ، وَرِمَالٍ دَمِثَةٍ ، وَعُيُونٍ وَشِلَةٍ ، وَقُرًى مُنْقَطِعَةٍ ؛ لَا يَزْكُو بِهَا خُفٌّ ، وَلَا حَافِرٌ وَلَا ظِلْفٌ ، ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ ؛ فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ ، وَغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ ، تَهْوِى إِلَيْهِ ثِمَارُ الْأَفْئِدَةِ ؛ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ ، وَمَهَاوِى فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ ، وَجَزَائِرِ بِحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ ، حَتَّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلاً ، يُهَلِّلُونَ لِلَّهِ حَوْلَهُ ، وَيَرْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ ، شُعْثاً غُبْراً لَهُ ، قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَشَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ ، ابْتِلَاءً عَظِيماً ، وَامْتِحَاناً شَدِيداً ، وَاخْتِبَاراً مُبِيناً ، وَتَمْحِيصاً بَلِيغاً ، جَعَلَهُ اللهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ ، وَوُصْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ .

وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمَّ الْأَشْجَارِ، دَانِيَ الثِّمَارِ، مُلْتَفَّ الْبُنَى، مُتَّصِلَ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمْرَاءَ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ مُحْدِقَةٍ، وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ، وَرِيَاضٍ نَاضِرَةٍ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ، عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ.

وَلَوْ كَانَ الْإِسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالْأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا؛ مِنْ زُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ، وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، وَنُورٍ وَضِيَاءٍ، لَخَفَّفَ ذَلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ.

وَلَكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً ذُلُلاً لِعَفْوِهِ.

•••

الشَّرْحُ :

كانت المثوبة، أى الثواب.

وأجزل: أكثر، والجزيل: العظيم، وعطاء جَزْل وجَزِيل والجمع جزال، وقد أجزلت له من العطاء، أى أكثرت.

وجعله للناس قياما، أى عمادا، وفلان قيام أهله، أى يقيم شئونهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾[1].

وأوعرُ بقاع الأرض حجراً، أى أصعبها، ومكانٌ وعْر، بالتسكين: صعب المسلك أو المقام.

(١) سورة النساء ٥

وأقل تناثق الدُّنيا مدَراً ؛ أصل هذه اللفظة من قولهم : « امرأة متناق » ، أى كثيرة الحبل والوِلادة ، ويقال : ضيعة مِنتاق أى كثيرة الرَّيع ، فجعل عليه السلام الضِّياع ذوات المدَر التى تثار للحرث نتائق ، وقال : إنَّ مكّة أقلها صلاحاً للزرع ، لأنّ أرضها حجرية .

والقُطر : الجانب ، ورمالٌ دمِثة : سهلة ، وكلّ كان الرَّمل أسهَل ؛ كان أبعد عن أن ينبت .

وعيون وشِلة ، أى قليلة الماء ، والوَشَل ، بفتح الشين : الماء القليل ، ويقال : وشَل الماء وَشَلاناً ، أى قطر .

قوله : « لا يزكو بها خُفّ » ، أى لا تزيد الإبل فيها أى لا تسمن ، والخُفّ هاهنا هو الإبل ، والحافر : الخيل والحمير ، والظِّلف : الشاة ، أى ليس حولها مرعى يرعاه الغنم فتسمن .

وأن يَثنُوا أعطافهم نحوه ، أى يقصِدُوه ويحجّوه ، وعِطفا الرّجل : جانباه .

وصار مثابة ، أى يُثاب إليه ويُرجَع نحوه مرّة بعد أخرى ، وهذه من ألفاظ الكتاب العزيز [١] .

قوله عليه السلام : « لمنتجَع أسفارهم » ، أى لنُجعتها ، والنُّجعة : طلب الكلأ فى الأصل ، ثم سمى كلّ مَنْ قصد أمراً يروم النفع منه منتجِعاً .

قوله : « وغاية لملقَى رحالهم » ، أى صار البيت هو الغاية التى هى الغرض والمقصد ، وعنده تلقى الرِّحال ؛ أى تحطّ رحال الإبل عن ظهورها ، ويبطل السفر ، لأنهم قد انتهوا إلى الغاية المقصودة .

---

(١) وهو قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ .

قوله : « تَهوِى إليه ثمار الأفئدة » ، ثمرة الفؤاد : هو سويداء القلب ، ومنه قولهم للولد : هو ثمرة الفؤاد ، ومعنى « تهوِى إليه » أى تتشوّقه وتحنّ نحوه .

والمفاوز : هى جمع مَفَازة ، الفلاة سُمِّيَتْ مَفَازة ، إمّا لأنها مهلكة ، من قولهم : فَوّز الرَّجُل ، أى هلك ، وإمّا تفاؤلاً بالسلامة والفوز ، والرّواية المشهورة . « من مفاوزِ قفار » بالإضافة . وقد روى قوم : « من مفاوزَ » بفتح الزاء ، لأنه لاينصرف ، ولم يضيفوا ، جعلوا « قفار » صفة .

والسحيقة : البعيدة .

والمهاوِى : الساقط .

والفجاج : جمع فَجّ ، وهو الطريق بين الجبلين .

قوله عليه السلام : « حتى يهزّوا مناكبهم » ، أى يحرّكهم الشوق نحوه إلى أن يسافروا إليه ، فكنّى عن التحريك بالمناكب .

و ذُللا ، حال ، إمّا منهم وإمّا من المناكب ، وواحد المناكب ، منكِب بكسر الكاف ، وهو مجمع عظم العَضُد والكتف .

قوله : « ويهلّلون » ، يقولون : لا إله إلا الله ، وروى : « يُهِلّون لله » أى يرفعون أصواتهم بالتلبية ونحوها .

ويرمُلون ، الرَّمَل : السعى فوقَ المشى قليلا .

شُعْثا غُبْراً ؛ لا يتعهدون شعورهم ولا ثيابهم ولا أبدانهم ، قد نبذوا السراويل وراموا ثيابهم وقمصانهم المخيطة .

وشوّهوا بإعفاء الشعور ، أى غيّروا وقبحوا حاسن صورهم ، بأنْ أعفوْا شعورهم فلم يحلقوا مافضل منها وسقط على الوجه ونبت فى غيره من الأعضاء التى جرت العادة بإزالتها عنها .

والتمحيص : التَّطْهير ، من محّصت الذهب بالنار إذا صفّيته مما يشوبه ، والتمحيص أيضا : الامتحان والاختبار . والمشاعر : معالم النُّسُك .

قوله : «وسهل وقرار» ، أى فى مكان سهل يستقرّ فيه الناس ولا ينالهم من المقام به مشقة.

وجمّ الأشجار : كثيرها . وداني الثمار : قريبها .

وملتفّ البِنَى : مشتبك العمارة .

والبُرّة : الواحدة من البُرّ ، وهو الحنطة .

والأرياف . جمع ريف وهو الخصب والمرعى فى الأصل ، وهو هاهنا السّواد والمزارع .

ومحدِقة : محيطة . ومغدِقة : غزيرة ، والغدَق : الماء الكثير .

وناضرة : ذات نضارة ورونق وحُسْن .

قوله : « ولو كانت الإساس[1] » ، يقول : لو كانت إساس البيت التى حمل البيت عليها وأحجاره التى رفع بها من زمردة وياقوتة فالمحمول والمرفوع كلاهما مرفوعان ، لأنهما صفة اسم كان والخبر «من زمردة» ، وروى : « بين زمردة » ، ويجوز أن تحمل لفظتى المفعول وهما المحمول والمرفوع ضمير البيت ، فيكون قائما مقام اسم الفاعل ، ويكون موضع الجار والمجرور نصبا ، ويجوز ألا تحملهما ذلك الضمير ، ويجعل الجار والمجرور هو السادّ مسدّ الفاعل ، فيكون موضعه رفعا .

وروى : « مضارعة الشكّ » بالضاد المعجمة ، ومعناه مقاربة الشك ودنوّه من النفس ، وأصله من مضارعة القِدْر إذا حان إدراكها ، ومن مضارعة الشمس إذا دنت للمغيب .

وقال الراوندى فى تفسير هذه الكلمة : من مصارعة الشك ، أى مماثلته ومشابهته ، وهذا بعيد ، لأنه لا معنى للمماثلة والمشابهة هاهنا ، والرواية الصحيحة بالصاد المهملة .

قوله عليه السلام : «ولنفى متعلّج الرّيب » ، أى اعتلاجه ، أى ولنفى اضطراب الشكّ فى القلوب . وروى « يستعبدهم » و « يتعبّدهم » ، والثانية أحسن .

---

(١) الإساس ، بالكسر : جمع أس .

والمجاهد : جمع مَجْهدة ، وهى المشقّة .

وأبوابا فُتُحا ، أى مفتوحة. وأسبابا ذُللا ، أى سهلة .

***

واعلم أنّ محصول هذا الفصل أنه كلّما كانت العبادة أشقّ كان الثواب عليها أعظم ، ولو أنّ الله تعالى جعل العبادات سهلة على المكلّفين لما استحقّوا عليها من الثواب إلّا قدراً يسيرا ، بحسب ما يكون فيها من المشقّة اليسيرة .

فإن قلت : فهل كان البيت الحرام موجوداً أيام آدم عليه السلام ، ثم أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه ؟

قلت : نعم هكذا روى أرباب السِّيرة وأصحاب التواريخ ؛ روى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى " تاريخه " عن ابن عباس، أنّ الله تعالى أوحى إلى آدم لمّا أهبطه إلى الأرض: أنّ لى حرَمًا حِيال عَرْشى ، فانطلِق فابنِ لى بيتًا فيه ، ثم طُفْ به كما رأيت ملائكتى تحفّ بعرشى ، فهنالك أستجيبُ دعاءك ودعاء مَنْ يحفّ به من ذُرّيتك . فقال آدم : إنّى لستُ أقوى على بنائه ، ولا أهتدى إليه ، فقيّض الله تعالى له مَلَكا ، فانطلق به نحو مكّة - وكان آدم فى طريقه كلّما رأى روضة أومكانا يعجبه سأل الملك أن ينزل به هناك ليبنى فيه - فيقول الملك : إنه ليس هاهنا حتى أقدمه مكّة ، فبنى البيت من خمسة جبال : طور سيناء ، وطور زيتون ، ولُبنان ، والجوديّ ، و بنى قواعدَه من حِراء ، فلمّا فرغ خرج به الملك إلى عرفات، فأراه المناسكَ كلّها التى يفعلها الناس اليوم ، ثم قدِم به مكّة وطاف بالبيت أسبوعا ، ثم رجع إلى أرض الهند فمات .

وروى الطبرى فى التاريخ أن آدم حجّ من أرض الهند إلى الكعبة أربعين حجّة على رجليه .

وقد روى أن الكعبة أنزلت من السماء وهي ياقوتة أو لؤلؤة ؛ على اختلاف الروايات، وأنها بقيت على تلك الصورة إلى أن فسدت الأرض بالمعاصي أيام نوح ، وجاء الطوفان فرفع البيت ، وبنى إبراهيم هذه البنية على قواعده القديمة .

وروى أبو جعفر ، عن وهب بن منبه أن آدم دعا ربه فقال : يارب أما لأرضك هذه عامر يسبحك ويقدسك فيها غيرى ! فقال الله : إنى سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدى ويقدسنى ، وسأجعل فيها بيوتاً ترفع لذكرى ، يسبحنى فيهـا خلقى ، ويذكر فيها اسمى ، وسأجعل من تلك البيوت بيتاً أختصه بكرامتى ، وأوثره باسمى ، فأسميه بيتى ، وعليه وضعت جلالتى وخصصته بعظمتى ، وأنا مع ذلك فى كل شىء ، أجعل ذلك البيت حرماً آمناً يحرم بحرمته من حوله ، ومن تحته ، ومن فوقه ، فمن حرمه بحرمتى استوجب كرامتى ، ومن أخاف أهله فقد أباح حرمتى ، واستحق سخطى ؛ وأجعله بيتاً مباركاً يأتيه بنوك شعثاً غبراً على كل ضامر من كل فج عميق ، يرجون بالتلبيـة رجيجاً ؛ ويعجون بالتكبير عجيجاً ، من اعتمده لا يريد غيره ووفد إلى وزارنى واستضاف بى ، أسعفته بحاجته ؛ وحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه ؛ تعمره يا آدم مادمت حياً، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة ، وقرناً بعد قرن .

قال : ثم أمر آدم أن يأتى إلى البيت الحرام الذى أهبط له إلى الأرض فيطوف به كما كان يرى الملائكة تطوف حول العرش ، وكان البيت حينئذ من درة أو من ياقوتة ، فلما أغرق الله تعالى قوم نوح رفعه ، وبقى أساسه فبوأه الله لإبراهيم فبناه .

***

الأصل :

فالله الله في عاجل البغي ، وآجل وخامة الظلم ، وسوء عاقبة الكبر ، فإنها مصيدة إبليس العظمى ، ومكيدته الكبرى ، التي تساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة ، فما تكدي أبداً ، ولا تشوي أحداً ؛ لا عالماً لعلمه ، ولا مقلاً في طمره .

وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات والزكوات ، ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات ، تسكيناً لأطرافهم ، وتخشيعاً لأبصارهم ، وتذليلاً لنفوسهم ، وتخفيضاً لقلوبهم ، وإذهاباً للخيلاء عنهم ، ولما في ذلك من تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعاً ، والتصاق كرائم الجوارح بالأرض تصاغراً ، ولحوق البطون بالمتون من الصيام تذللاً ؛ مع ما في الزكاة من صرف ثمرات الأرض ، وغير ذلك إلى أهل المسكنة والفقر .

انظروا إلى ما في هذه الأفعال من قمع نواجم الفخر ، وقدع طوالع الكبر !

* * *

الشرح :

بلدة وخمة ووخيمة : بينة الوخامة ، أي وبيئة .

مصيدة إبليس ، بسكون الصاد وفتح الياء : آلته التي يصطاد بها .

وتساور قلوب الرجال : تواثبها ، وسار إليه يسور ، أي وثب ، والمصدر السور ، ومصدر «تساور» المساورة ، ويقال : إن لغضبه سورة ، وهو سوار ، أي وثاب معربد ،

وسَوْرة الشراب : وثوبه فى الرأس ، وكذلك مساورة السموم التى ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام .

وماتكدِي : ماتردّ عن تأثيرها، من قولك : أكدى حافر الفرس، إذا بلغ الكُدْية، وهى الأرض الصُّلبة ، فلا يمكنه أن يحفر .

ولا تُشوِي أحدا : لا تخطئ المَقتل وتصيب غيره ؛ وهو الشَّوَى ، والشوى : الأطراف ، كاليد والرجل .

قال : لا تردّ مكيدته عن أحد لا عن عالم لأجل علمه ، ولا عن فقير لطمره ، والطِّمر : الثوب الخلَق .

و «ما» فى قوله : « ومن ذلك ما حرس الله» زائدة مؤكدة ، أى ومن هذه المكايد التى هى البغى والظلم والكبر حرس الله عباده ، و «من» متعلقة بـ «حرس» . وقال الراوندى : يجوز أن تكون مصدرية ، فيكون موضعها رفعاً بالابتداء ، وخبر المبتدأ قوله : « لما فى ذلك ». وقال أيضاً : يجوز أن تكون نافية ، أى لم يحرس الله عباده عن ذلك إلجاء وقهراً ، بل فعلوه اختياراً من أنفسهم ، والوجه الأول باطل ، لأن « عن » على هذا التقدير تكون من صلة المصدر ، فلا يجوز تقديمها عليه ، وأيضاً فإنّ لما فى ذلك لو كان هو الخبر ، لتعلّق لام الجر بمحذوف ، فيكون التقدير : حراسة الله لعباده عن ذلك كائنة لما فى ذلك من تعفير الوجوه بالتراب ؛ وهذا كلام غير مُفيد ولا منتظم إلاّ على تأويل بعيد لا حاجة إلى تعسّفه ، والوجه الثانى باطل ، لأنّ سياقة الكلام تدلّ على فساده ، ألا ترى قوله : «تسكينا وتخشيعا» ، وقوله : « لما فى ذلك من كذا » ، وهذا كلّه تعليل الحاصل الثابت لا تعليل المنفىّ المعدوم .

ثم بيّن عليه السلام الحكمة فى العبادات ، فقال : إنه تعالى حرَس عباده بالصلوات

التى افترضها عليهم من تلك المكايد ، وكذلك بالزكاة والصوم ليسكّن أطرافهم ، ويخشّع أبصارهم ، فجعل التسكين والتخشيع عذراً وعلة للحراسة ، ونصب اللفظات على أنها مفعول له .

ثم علل السكون والخشوع الذى هو علة الحراسة لما فى الصلاة من تعفير الوجه على التراب ، فصار ذلك علة العلة . قال : وذلك لأن تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعا يوجب هَضْم النفس وكسرها وتذليلها .

وعتاق الوجوه : كرائمها .

وإلصاق كرائم الجوارح بالأرض كاليدين والساقين تصاغراً يوجب الخشوع والاستسلام ، والجوع فى الصوم الذى يلحق البطن فى المتن يقتضى زوال الأَشَر والبطَر ، ويوجب مذلة النفس وقمعها عن الانهماك فى الشهوات ، وما فى الزكاة من صَرْف فواضل المكاسب إلى أهل الفقر والمسكنة يوجبُ تطهيرَ النفوس والأموال ومواساة أرباب الحاجات بما تسمحُ به النفوس من الأموال، وعاصم لهم من السرقات وارتكاب المنكرات ، ففى ذلك كلّه دفع مكايد الشيطان .

وتخفيض القلوب : حطها عن الاعتلاء والتيه .

والخُيَلاء : التكبّر . والمسكنة : أشدّ الفقر فى أظهر الرأيين . والقَمْع القهر .

والنواجم : جمع ناجمة ، وهى مايطلع و يظهر من الكبر وغيره .

والقَدْع ، بالدال المهملة : الكفّ ، قدعت الفرس ، وكبحته باللجام ، أى كففته .

والطوالع ، كالنواجم .

* * *

الأَصْلُ :

وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ الْجُهَلَاءِ ، أَوْ حُجَّةٍ تَلِيطُ بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرَكُمْ ، فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرٍ مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ . أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لِأَصْلِهِ ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ ، فَقَالَ : أَنَا نَارِيٌّ وَأَنْتَ طِينِيٌّ . وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الْأُمَمِ فَتَعَصَّبُوا لِآثَارِ مَوَاقِعِ النِّعَمِ ، فَقَالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ .

فَإِنْ كَانَ لَابُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ ، وَمَحَامِدِ الْأَفْعَالِ ، وَمَحَاسِنِ الْأُمُورِ ، الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجَدَاءُ وَالنُّجَدَاءُ مِنْ بُيُوتَاتِ الْعَرَبِ ، وَيَعَاسِيبِ الْقَبَائِلِ ؛ بِالْأَخْلَاقِ الرَّغِيبَةِ ، وَالْأَحْلَامِ الْعَظِيمَةِ ، وَالْأَخْطَارِ الْجَلِيلَةِ ، وَالْآثَارِ الْمَحْمُودَةِ .

فَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ الْحَمْدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجِوَارِ ، وَالْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ ، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ ، وَالْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ ، وَالْأَخْذِ بِالْفَضْلِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ ، وَالْإِعْظَامِ لِلْقَتْلِ ، وَالْإِنْصَافِ لِلْخَلْقِ ، وَالْكَظْمِ لِلْغَيْظِ ، وَاجْتِنَابِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد روى : « تحتمل » بالتاء ، وروى « تحمل » ، والمعنى واحد .

والتمويه : التلبيس من موّهت النحاس ، إذا طليته بالذهب ليخفى .

ولاط الشيء بقلبي يلوط ويليط ، أي التصق .

والمترف : الذي أطغته النعمة .

وتفاضلت فيها ، أى تزايدت .

والمُجداء : جمع ماجد ، والمجد الشرف فى لآباء ، والحسب والكرم يكونان فى الرّجل وإن لم يكونا فى آبائه . هكذا قال ابنُ السكِّيت ، وقد اعترض عليه بأن المجيد من صفات الله تعالى ، قال سبحانه : ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾[1] على قراءة مَنْ رفع ، والله سبحانه يتعالى عن الآباء ، وقد جاء فى وصف القرآن المجيد ، قال سبحانه : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾[2] .

والنُّجداء : الشجعان ، واحدهم نَجيد ، وأمّا نَجِد ونَجُد ، بالكسر والضم ، فجمعه أنجاد ، مثل يَقِظ وأيقاظ .

وبيوتات العرب : قبائلها . ويعاسيب القبائل : رؤساؤها ، واليَعسوب فى الأصل : ذكر النحل وأميرها .

والرغيبة : الخصلة يُرغَب فيها .

والأحلام : العقول . والأخطار : الأقدار .

ثم أمرهم بأن يتعصبّوا لخلال الحمد وعددها ، وينبغى أن يحمل قوله عليه السلام : « فإنكم تتعصّبون لأمر مايعرف له سبب ولا علّة » ، على أنّه لا يعرف له سبب مُناسب ، فكيف يمكن أن يتعصبّوا لغير سبب أصلا !

وقيل : إنّ أصل هذه العصبية ، وهذه الخطبة ؛ أنّ أهلَ الكوفة كانوا قد فسدُوا فى آخر خلافة أمير المؤمنين ، وكانوا قبائلَ فى الكوفة ، فكان الرّجل يخرج من منازل قبيلته فيمرّ بمنازل قبيلة أخرى ، فينادِى باسم قبيلته : يالَلنَّخَع ! مثلا ، أو يالَكِندة ! نداء عالياً يقصد به الفتنة وإثارة الشرّ ، فيتألّب عليه فتيان القبيلة التى مر بها فينادون : يالَتميم !

---

(١) سورة البروج ١٥ (٢) سورة البروج ٢١

وبالرّبيعة ! ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه ، فيمضي إلى قبيلته فيستصرخها ، فتُسلّ السيوف وتثور الفتن ، ولا يكون له أصل في الحقيقة إلّا تعرُّض الفِتيان بعضهم ببعض .

***

الأصل :

وَاحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلاتِ بِسُوءِ الْأَفْعَالِ ، وَذَمِيمِ الْأَعْمَالِ . فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ ؛ فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ حَالَهُمْ ، وَزَاحَتِ الْأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ ، وَمُدَّتِ الْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَانْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ ، وَوَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ ؛ مِنَ الِاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ ، وَاللُّزُومِ لِلْأُلْفَةِ ، وَالتَّحَاضِّ عَلَيْهَا ، وَالتَّوَاصِي بِهَا .

وَاجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ ، وَأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ ؛ مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ ، وَتَشَاحُنِ الصُّدُورِ ، وَتَدَابُرِ النُّفُوسِ ، وَتَخَاذُلِ الْأَيْدِي .

***

الشرح :

المَثُلات : العقوبات .

وذميم الأفعال : ما يذمّ منها .

وتفاوت حاليْهم : اختلافهما . وزاحت الأعداء : بعدت . وله ، أي لأجله .

والتحاضّ عليها : تفاعل يستدعي وقوعَ الحضّ ، وهو الحثّ من الجهتين ، أي يحثّ بعضهم بعضاً .

والفِقْرة: واحدة فِقَر الظّهر ، ويقال لمن قد أصابته مصيبة شديدة : قد كُسِرت فِقرته .

والمُنّة : القوّة

وتضاغُن القلوب وتشاحنها واحد . وتخاذل الأيدى : ألا ينصُر الناس بعضهم بعضا .

***

الأصْـلُ :

وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ ؛ كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْحِيصِ وَالْبَلَاءِ ! أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلَائِقِ أَعْبَاءً ، وَأَجْهَدَ الْعِبَادِ بَلَاءً ، وَأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالًا ! اتَّخَذَتْهُمُ الْفَرَاعِنَةُ عَبِيداً فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، وَجَرَّعُوهُمُ الْمُرَارَ ، فَلَمْ تَبْرَحِ الْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَكَةِ وَقَهْرِ الْغَلَبَةِ ؛ لَا يَجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعٍ ، وَلَا سَبِيلًا إِلَى دِفَاعٍ ، حَتَّى إِذَا رَأَى اللهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ ، وَالِاحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَايِقِ الْبَلَاءِ فَرَجاً ، فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ ، وَالْأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ ، فَصَارُوا مُلُوكاً حُكَّاماً ، وَأَئِمَّةً أَعْلَاماً ، وَقَدْ بَلَغَتِ الْكَرَامَةُ مِنَ اللهِ لَهُمْ ، مَا لَمْ تَذْهَبِ الْآمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ .

***

الشّـرْحُ :

تدبّروا ، أى تأملوا . والتّمحيص : التطهير والتصفية .

والأعباء : الأثقال ، واحدها عِبْء .

وأجهد العباد : أتعبهم .

والفراعنة : العُتاة ، وكلّ عاتٍ فرعون .

وساموهم سوء العذاب : ألزموهم إيّاه ؛ وهذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ

الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾(١) .

والمُرار : بضم الميم : شجر مُرٌّ فى الأصل ، واستعير شرب المُرار لكل مَنْ يلقى شديد المشقة .

ورأى الله منهم جدّ الصبر ، أى أشدّه .

وأئمة أعلاما ، أى يُهتدَى بهم ، كالعَلَم فى الفلاة .

* * *

الأصـلُ :

فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الْأَمْلَاءُ مُجْتَمِعَةً ، وَالْأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً ، وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً ، وَالْأَيْدِي مُتَرَادِفَةً ، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً ، وَالْبَصَائِرُ نَافِذَةً ، وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً . أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرَضِينَ ، وَمُلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ !

فَانْظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ ، وَتَشَتَّتَتِ الْأُلْفَةُ ، وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالْأَفْئِدَةُ ؛ تَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ ، قَدْ خَلَعَ اللهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ ، وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنْكُمْ .

* * *

الشـرحُ :

الأملاء : الجماعات ، الواحد ملأ .

---

(١) سورة البقرة ٤٩

ومترادفة : متعاونة . البصائر نافذة ، يقال : نفذت بصيرتى فى هذا الخبر ، أى اجتمع همّى عليه ، ولم يبق عندى تردّد فيه ، لعلمى به وتحقيق إياه .

وأقطار الأرَضين : نواحيها ، وتشتّت . تفرّقت .

وتشعّبوا : صاروا شعوبا وقبائل مختلفين .

وتفرّقوا متحزّبين : اختلفوا أحزابا ، وروى : « متحازبين » .

وغضارة النعمة : الطيّب الليِّن منها .

والقَصَصُ : الحديث .

يقول : انظروا فى أخبار مَنْ قبلكم من الأمم ، كيف كانت حالهم فى العزّ والمُلْك لمّا كانت كلمتُهم واحدة ، وإلى ماذا آلت حالهم حين اختلفت كلمتُهم ! فاحذروا أن تكونوا مثلَهم ، وأن يحلّ بكم إن اختلفتم مثل ما حلّ بهم .

* * *

الأصل :

فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ الْأَحْوَالِ ، وَأَقْرَبَ اشْتِبَاهَ الْأَمْثَالِ !

تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّتِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ ، لَيَالِيَ كَانَتِ الْأَكَاسِرَةُ وَالْقَيَاصِرَةُ أَرْبَاباً لَهُمْ ، يَحْتَازُونَهُمْ عَنْ رِيفِ الْآفَاقِ ، وَبَحْرِ الْعِرَاقِ ، وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا ، إِلَى مَنَابِتِ الشِّيحِ ، وَمَهَافِي الرِّيحِ ، وَنَكَدِ الْمَعَاشِ ؛ فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ ، إِخْوَانَ دَبَرٍ وَوَبَرٍ . أَذَلَّ الْأُمَمِ دَاراً ، وَأَجْدَبَهُمْ قَرَاراً ، لَا يَأْوُونَ إِلَى جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِهَا ، وَلَا إِلَى ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا ، فَالْأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ ، وَالْأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ ؛ فِي بَلَاءِ أَزْلٍ ، وَأَطْبَاقِ جَهْلٍ ؛ مِنْ بَنَاتٍ مَوْءُودَةٍ وَأَصْنَامٍ مَعْبُودَةٍ ، وَأَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ ، وَغَارَاتٍ مَشْنُونَةٍ .

* * *

الشرح :

لقائل أن يقول : ماعرف أحداً من بنى إسحاق و بنى إسرائيل احتازتهم الأكاسرة والقياصرة عن ريف الآفاق إلى البادية ومنابت الشيح ، إلا أن يقال : يهود خيبر والنضير و بنى قُرَيظة و بنى قَينُقاع ، وهؤلاء نفر قليل لا يعتد بهم . ويُعلَم من فحوى الخطبة أنهم غيرُ مرادين بالكلام ، ولأنه عليه السلام قال : تركوهم إخوان دَبَر ووَبَر ، وهؤلاء لم يكونوا من أهل الوبَر والدَّبَر ، بل من أهل المَدَر ؛ لأنهم كانوا ذوى حصون وآطام . والحاصل أن الذين احتازتهم الأكاسرة والقياصرة من الريف إلى البادية ، وصاروا أهل وَبَر ولدُ إسماعيل؛ لا بنو إسحاق و بنو إسرائيل !

والجواب أنه عليه السلام ذكر فى هذه الكلمات ، وهى قوله : « فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبنى إسحاق و بنى إسرائيل المقهورين والقاهرين جميعاً » ؛ أما المقهورون فبنو إسماعيل، وأما القاهرون فبنو إسحاق و بنو إسرائيل، لأن الأكاسرة من بنى إسحاق ؛ ذكر كثير من أهل العلم أن فارس من ولد إسحاق ، والقياصرة من ولد إسحاق أيضاً ، لأن الروم بنو العِيص بن إسحاق ، وعلى هذا يكون الضمير فى «أمرهم» ، و « تشتتهم » و « تفرقهم » يرجع إلى بنى إسماعيل خاصة .

فإن قلت : فبنو إسرائيل ، أى مدخل لهم هاهنا ؟

قلت : لأن بنى إسرائيل لما كانوا ملوكاً بالشام فى أيام أجاب الملك وغيره ، حاربوا العرب من بنى إسماعيل غير مرة ، وطردوهم عن الشام ، وألجئوهم على المقام ببادية الحجاز . ويصير تقدير الكلام : فاعتبروا بحال ولد إسماعيل مع بنى إسحاق و بنى إسرائيل ؛ فجاء بهم فى صدر الكلام على العموم ، ثم خصص فقال : الأكاسرة والقياصرة ؛ وهم داخلون فى عموم ولد إسحاق ، وإنما لم يخصص عموم بنى إسرائيل لأن العرب لم تكن تعرف ملوك

ولد يعقوب ، فيذكر لهم أسماءهم فى الخطبة، بخلاف ولد إسحاق فإنهم كانوا يعرفون ملوكهم من بنى ساسان ومن بنى الأصفر .

* * *

قوله عليه السلام « فما أشدّ اعتدال الأحوال ! » ، أى ما أشبه الأشياء بعضها ببعض ! وإنّ حالكم لشبيهة بحال أولئك فاعتبروا بهم .

قوله : « يحتازونهم عن الريف » يبعدونهم عنه ، والريف : الأرض ذات الخِصْب والزّرع ، والجمع أرياف ؛ وراقت الماشية أى رعت الرّيف ، وقد أرفنا أى صرنا إلى الريف ، وأرافت الأرض أى أخصبت ، وهى أرض ريِّفة ، بتشديد الياء .

وبحر العراق : دجلة والفرات ، أمّا الأكاسرة فطردوهم عن بحر العراق ، وأما القياصرة فطردوهم عن ريف الآفاق ، أى عن الشام وما فيه من المرعَى والمنتجَع .

قوله عليه السلام : « أربابًا لهم » ، أى ملوكًا ، وكانت العرب تسمّى الأكاسرة أربابًا ، ولمّا عظم أمر حُذيفة بن بدر عندهم سمّوه ربَّ مَعَدّ .

ومنابت الشِّيح : أرض العرب ، والشِّيحُ : نَبْتٌ معروف .

ومَهافِى الريح : المواضع التى تهفو فيها ، أى تهبّ وهى الفيافى والصحارى .

ونَكَد المعاش : ضيقه وقلّته .

وتركوهم عالةً ، أى فقراء ، جمع عائل ، والعائل ذو العَيْلة ، والعَيْلة : الفقر ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾[1] ، قال الشاعر :

تُعَيِّرنا أنّـــا عالةٌ   صَعَالِيكُ نحن وأنتمْ ملوكُ

---

(١) سورة التوبة ٢٨

نظيره قائد وقادة ، وسائس وساسة .

وقوله : « إخوانَ دَبَرٍ ووَبَرٍ » الدّبَر مصدر دَبِر البعيرُ ، أي عقره القَتَب . والوبَر للبعير بمنزلة الصوف للضأن والشعر للمعز .

قوله : « أذلّ الأمم دارا » ؛ لعدم المعاقل والحصون المنيعة فيها .

وأجدبهم قرارا ، لعدم الزّرع والشجر والنخل بها . والجدْب : المحْل .

ولا يأوون : لا يلتجئون ولا ينضمّون .

والأزْل : الضّيق . وأطباق جهل : جمع طَبَق ، أي جَهْل متراكم بعضُه فوق بعض .

وغارات مشنونة : متفرّقة ، وهي أصعب الغارات .

• • •

[فصل في ذكر الأسباب التي دعت العرب إلى وأد البنات

مِنْ بنات موءودة ؛ كان قومٌ من العرب يئِدُون البنات ، قيل : إنهم بنو تميم خاصّة ، وإنه استفاض منهم في جيرانهم . وقيل : بل كان ذلك في بني تميم ، وقيس ، وأسد ، وهُذَيل ، وبكر بن وائل ، قالوا : وذلك أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله دعا عليهم ، فقال : « اللهمّ اشدد وطْأتك على مُضَر ، واجعل عليهم سنين كسِني يوسفَ » ، فأجدَبُوا سبع سنين حتى أكلوا الوَبَر بالدم ، وكانوا يسمّونه العِلْهِز ، فوأدوا البنات لإملاقهم وفقرهم ، وقد دلّ على ذلك بقوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ [1] ، قال : ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ [2] .

وقال قوم : بل وأدوا البنات أنَفَةً ، وزعموا أنّ تميماً منعت النعمان الإتاوة سنة من

---

(١) سورة الإسراء ٣١ (٢) سورة الممتحنة ١٢

السنين ، فوجّه إليهم أخاه الريّان بن المنذر ، وجُلّ مَنْ معه من بكر بن وائل ، فاستاق النَّعَم وسَبَى الذرارِىّ ، وفى ذلك يقول بعض بنى يشكر :

لمّا رأَوْا رايةَ النعمان مقبلةً ... قالوا : ألا ليتَ أدْنَى دارِنا عَدَنُ !
ياليتَ أمّ تميمٍ لم تكن عرفتْ ... مُرًّا ، وكانت كمن أودَى به الزمنُ
إنْ تقتُلوا فأعيارٌ مجدَّعةٌ ... أو تُنعِموا فقديمًا منكم المِنَنُ
منكم زُهَيرٌ وعتّاب ومحتضِنٌ ... وابنا لَقِيطٍ وأَوْدى فى الوغَى قَطَنُ

فوفدت بنو تميم إلى النعمان ، واستعطفوه ، فرقّ عليهم ، وأعاد عليهم السَّبْى ، وقال : كلّ امرأة اختارت أباها ردّت إليه ، وإن اختارت صاحبها تركت عليه ، فكلّهن اخترن آباءهنّ ، إلّا ابنةَ قيس بن عاصم ، فإنها اختارت مَنْ سباها ، وهو عمرو بن المشمرج اليشكرىّ ، فنذر قيس بن عاصم المنقرىّ التميمىّ ألّا يولد له بنت إلا وأدها ، والوأد أن يحفر لها فى التراب ويُثقل وجهها به حتى تموت ، ثم اقتدى به كثير من بنى تميم ، قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾[1] ، أى على طريق التبكيت والتوبيخ لمن فعل ذلك أو أجازه ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ[2] ﴾ .

ومن جيّد شعر الفرزدق قوله فى هجاء جرير :

ألَمْ تَرَ أنّا بَنِى دارمٍ ... زُرارةُ منّا أبو معبدِ[3]
ومنّا الذى منع الوائداتِ ... وأحيا الوليدَ فلم يُوأَدِ[4]
ألسنا بأصحاب يوم النِّسارِ ... وأصحاب ألويةِ المِرْبَدِ

---

(١) سورة التكوير ٨ ، ٩
(٢) سورة المائدة ١١٦
(٣) ديوانه ٢٠٢ ، ٢٠٣
(٤) يعنى جدّه صعصعة بن ناجية .

أَلَسْنَا الَّذِينَ تَمِيمٌ بِهِمْ ... تَسَامَى وتفخر فى المَشْهَدِ !

وناجية الخَيْرِ والأَقْرَعَا ... نِ وقَبْرٌ بكاظمة للوُرَّدِ[1]

إذا ما أتى قَبْرَه عائذٌ ... أناخ على القَبْرِ بالأَسْعَدِ[2]

أيطلب مجد بنى دارم ... عطيّة كالجُعَلِ الأسود !

قُرَنْبَى يَحُكُّ قفا مُقْرِفٍ ... لئيمٍ مآثره قُعْدُدِ[3]

ومجد بنى دارم فوقَهُ ... مكان السِّماكَيْن والفرقدِ

وفى الحديث : أنّ صَعصعة بن ناجية بن عِقال لمّا وفد على رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : يارسولَ الله ، إنّى كنتُ أعملُ فى الجاهليّة عملا صالحا ، فهل ينفعنى ذلك اليوم ؟ قال عليه السلام : وما عملت ؟ قال : ضلّت ناقتين عُشَرَاوين ،[4] فركبت جَمَلا ومضيت فى بُغائهما[5] ، فرفع لى بيت حريد[6] ، فقصدته ، فإذا شيخ جالس بفنائه فسألته عن الناقتين ، فقال : ما نارهما[7] ؟ قلت : ميسم بنى دارم ، قال : هما عندى ، وقد أحيا الله بهما قوماً من أهلك من مُضَر ، فجلست معه ليخرجهما إلىّ ، فإذا عجوز قد خرجت من كِسْر البيت ، فقال لها : ما وضعتْ ، فإن كان سَقْباً[8] شاركنا فى أموالنا ، وإن كان حائلا[9] وأدْناها ، فقالت العجوز : وضعت أنثى ، فقلت له : أتبيعها ؟ قال : وهل تبيع العرب أولادَها ! قلت : إنّما أشترى حياتَها ، ولا أشترى رقّها ، قال : فبكم ؟ قلت : احتَكِم ، قال : بالناقتين والجمل ، قلت : ذاك لك على أن يبلغنى الجمل وإياها ! قال : بعتُك ، فاستنقذتها

---

(١) ناجية : هو ابن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع . والأقرعان : الأقرع وفراس ابنا حابس بن عقال .

(٢) الأسعد : نجم طالعه سعد .

(٣) القرنبى : ضرب من الخنافس أرقط طويل القوائم ، والقعدد : اللئيم الآباء .

(٤) العشراء من النياق : التى مضى لحلها عشرة أشهر ، كالنفساء .

(٥) فى بغائهما : فى طلبهما . (٦) الحريد : المنزل المتنحى .

(٧) فى النهاية واللسان : ما ناراها ؟ والنار هنا : السمة بالمكوى ؛ سميت باسم النار .

(٨) السقب : ولد الناقة ساعة يولد ؛ وهو خاص بالذكر .

(٩) الحائل : الأنثى من ولد الناقة ساعة تولد ؛ ولا يقال : « سقبة » .

منه بالجمل والناقتين ، وآمنت بك يارسول الله ، وقد صارتْ لى سنّة فى العرب أن أشترى كلّ موءودَة بناقتين عُشَراوين وجمل ، فعندى إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا موءودة قد أنقذتهنّ ، فقال عليه السلام: «لا ينفعك ذاك لأنك لم تبتغ به وجه الله ، وإن تعمل فى إسلامك عملاً صالحاً تثب عليه »[1].

وروى الزُّبير فى «الموفّقيّات» أنّ أبا بكر قال فى الجاهليّة لقيس بن عاصم المِنقرى : ماحملك على أن وأدت ؟ قال : مخافة أن يخلف عليهن مثلك .

* * *

الأصْلُ :

فانظُروا إلى مَوَاقِعِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا ، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ ، وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ ، كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا ، وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا ، وَالْتَفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِى عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا ، فَأَصْبَحُوا فِى نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ ، وَفِى خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَاكِهِينَ ؛ قَدْ تَرَبَّعَتِ الْأُمُورُ بِهِمْ ، فِى ظِلِّ سُلْطَانٍ قَاهِرٍ ، وَآوَتْهُمُ الْحَالُ إِلَى كَنَفِ عِزٍّ غَالِبٍ ، وَتَعَطَّفَتِ الْأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِى ذُرَى مُلْكٍ ثَابِتٍ ؛ فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَمُلُوكٌ فِى أَطْرَافِ الْأَرَضِينَ ، يَمْلِكُونَ الْأُمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ ، وَيُمْضُونَ الْأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ ، لَا تُغْمَزُ لَهُمْ قَنَاةٌ ، وَلَا تُقْرَعُ لَهُمْ صَفَاةٌ .

* * *

الشَّرْحُ :

لمّا ذكر ما كانت العرب عليه من الذلّ والضّيْم والجهل ، عاد فذكر ما أبدل الله

---

(١) انظر الفائق ٣ : ١٣٣

به حالهم ، حين بعث إليهم محمداً صلى الله عليه وآله ، فعقد عليه طاعتهم كالشيء المنتشر المحلول ، فعقدها بملّة محمد صلى الله عليه وآله .

والجداول : الأنهُر .

والتفّت الملة بهم ، أي كانوا متفرّقين فالتفّت ملة محمد بهم ، أي جمعتهم ، ويقال : التفّ الحبل بالحطَب ، أي جمعه ، ولفّ الحطب بالحبل ، أي اجتمع به .

و«في» في قوله : « في عوائد بركتها » متعلّقة بمحذوف ؛ وموضع الجار والمجرور نصب على الحال ، أي جمعتهم الملة كائنةً في عوائد بركتها ، والعوائد : جمع عائدة ، وهي المنفعة . تقول: هذا أعوَدُ عليك ، أي أنفع لك . وروى : « والتقت الملة » بالقاف أي اجتمعت بهم، من اللقاء . والرواية الأولى أصح .

وأصبحوا في نعمتها غرقين، ومبالغة في وصف ماهم فيه من النعمة .

وفاكهين: ناعمين. وروى «فكهين» أي أشِرين، وقد قرئ بهما في قوله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾[1] وقال الأصمعيّ : فاكهين : مازحين ، والفاكهة المازحة ، ومن أمثالهم : « لا تفاكِهْ أمَةً، ولا تَبُلْ عَلَى أكمة » ؛ فأما قوله تعالى : ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾[2] ، فقيل : تندمون ، وقيل : تعجبون .

و «عن» في قوله : « وعن خضرة عيشها» متعلّقة بمحذوف ، تقديره : فأصبحوا فاكهين فكاهة صادرة عن خضرة عيشها ، أي خضرة عيش النعمة سبب لصدور الفكاهة والمُزاح عنه .

وتربّعت الأمور بهم ، أي أقامت ، من قولك : ربَع بالمكان ، أي أقام به .

---

(١) سورة الدخان ٢٧

(٢) سورة الواقعة ٦٥

وآوتهم الحال؛ بالمدّ أى ضمّتهم وأنزلتهم ، قال تعالى : ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ[1] ﴾، أى ضمّه إليه وأنزله ، ويجوز «أوتهم» بغير مدّ . أفعلت فى هذا المعنى وفعلت واحد ؛ عن أبى زيد.

والكنف :الجانب ، وتعطّفت الأمور عليهم : كناية عن السيادة والإقبال ، يقال :قد تعطّف الدّهر على فلان ، أى أقبل حظّه وسعادته ، بعد أن لم يكن كذلك .

وفى ذُرَا مُلْكٍ : بضم الذال أى فى أعاليه ، جمع ذروة ، ويكنى عن العزيز الذى لا يُضام ، فيقال : لا يغمز له قناة،أى هو صلب . والقناة إذا لم تلن فى يد الغامز كانت أبعد عن الحطم والكسر .

ولا تُقرع لهم صفاة ؛ مثل يضرب لمن لا يطمع فى جانبه لعزّته وقوّته .

* * *

الأصل :

أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ ، وَثَلَمْتُمْ حِصْنَ اللهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ بِأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ امْتَنَّ عَلَى جَمَاعَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ؛ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هَذِهِ الْأُلْفَةِ الَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا ، وَيَأْوُونَ إِلَى كَنَفِهَا ، بِنِعْمَةٍ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيمَةً ، لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ ، وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ .

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَعْرَابًا ، وَبَعْدَ الْمُوَالَاةِ أَحْزَابًا ، مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِاسْمِهِ ، وَلَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا رَسْمَهُ ، تَقُولُونَ : النَّارَ وَلَا الْعَارَ! كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِئُوا الْإِسْلَامَ عَلَى وَجْهِهِ انْتِهَاكًا لِحَرِيمِهِ ، وَنَقْضًا لِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ اللهُ لَكُمْ حَرَمًا فِي أَرْضِهِ ، وَأَمْنًا بَيْنَ خَلْقِهِ .

وَإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ حَارَبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ ، ثُمَّ لَا جَبْرَائِيلَ

---

(١) سورة يوسف ٦٩ .

وَلَا مِيكَائِيلَ، وَلَا مُهَاجِرِينَ وَلَا أَنْصَارَ يَنْصُرُونَكُمْ ، إِلَّا الْمُقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَكُمْ .

وَإِنَّ عِنْدَكُمُ الْأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَقَوَارِعِهِ ، وَأَيَّامِهِ وَوَقَائِعِهِ ، فَلَا تَسْتَبْطِئُوا وَعِيدَهُ جَهْلاً بِأَخْذِهِ ، وَتَهَاوُناً بِبَطْشِهِ ، وَيَأْساً مِنْ بَأْسِهِ ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقَرْنَ الْمَاضِيَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لِتَرْكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَلَعَنَ اللهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي، وَالْحُلَمَاءَ لِتَرْكِ التَّنَاهِي !

* * *

الشَّرْحُ :

نفضتم أيديكم : كلمة تقال فى اطراح الشىء وتركه ، وهى أبلغ من أن تقول : تركتم حبلَ الطاعة ، لأنّ من يخلى الشىء من يده ثم ينفض يده منه يكون أشدّ تخلية له ممن لا ينفضها بل يقتصر على تخليته فقط ، لأن نفضها إشعار وإيذان بشدّة الاطّراح والإعراض .

والباء فى قوله : « بأحكام الجاهلية » متعلقة بـ « ثلمتم »، أى ثلمتم حصن الله بأحكام الجاهلية التى حكمتم بها فى ملّة الإسلام .

والباء فى قوله: « بنعمة لا يَعرف » ، متعلقة بـ « امتنّ » . و« فى » من قوله « فيما عقد » متعلّقة بمحذوف، وموضعها نصب على الحال ، وهذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[1]. وقوله : ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾[2] .

وروى : « تتقلّبون فى ظلها » .

---

(١) سورة الأنفال ٦٣ (٢) سورة آل عمران ٧٩

قوله: « صرتم بعد الهجرة أعرابًا »؛ الأعراب على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مَنْ آمن به من أهل البادية ، ولم يهاجر إليه، وهم ناقصو المرتبة عن المهاجرين لجفائهم وقسوتهم وتوحّشهم ، ونشئهم فى بُعْدٍ من مخالطة العلماء ، وسماع كلام الرسول صلى الله عليه وآله ، وفيهم أنزل : ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾(١)؛ وليست هذه الآية عامة فى كلّ الأعراب بل خاصّة ببعضهم ، وهم الّذين كانوا حول المدينة ، وهم جُهَينة ، وأسلم ، وأشجع ، وغِفَار ، وإليهم أشار سبحانه بقوله : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ﴾(٢). وكيف يكون كلّ الأعراب مذموما ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ ٱللَّهِ ﴾(٣)، وصارت هذه الكلمة جارية مجرى المثل .

وأنشد الحجاج على منبر الكوفة :

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِعَصْلَبِيِّ (٤) أَرْوَعَ خَرَّاجٍ من الدَّوِّيِّ (٥)

* مهاجر ليس بأعرابى(٦) *

وقال عثمان لأبى ذرّ : أخشى أن تصير بعد الهجرة أعرابيًّا .

وروى : « ولا يعقلون من الإيمان » .

وقولهم : « النارَ ولا العارَ » ، منصوبتان بإضمار فعل ، أى ادخلوا النار ولا تلتزموا العار ، وهى كلمة جارية مجرى المثل أيضا ، يقولها أرباب الحميّة والإباء ، فإذا قيلت فى حقّ كانت صوابا ، وإذا قيلت فى باطل كانت خطأ .

وأكفأت الإناء وكفأته : لغتان ، أى كببته .

---

(١) سورة التوبة ٩٧

(٢) سورة التوبة ١٠١

(٣) سورة التوبة ٩٩

(٤) العصلبى : الشديد الخلق .

(٥) أروع : أى ذكىّ . يقول : خرّاج من كل غماء شديدة ، ويقال للصحراء : دوّيّة ، وهى التى لا تكاد تنقضى ، منسوبة إلى الدوّ ، والدوّ : صحراء ملساء لا علم بها .

(٦) الكامل للمبرد ١ : ٢٨١ (طبعة نهضة مصر) .

قوله : « ثم لا جبرائيلَ ولا ميكائيلَ ولا مهاجرين » ، الرواية المشهورة هكذا بالنصب، وهو جائز على التشبيه بالنكرة ، كقولهم : معضلة ولا أبا حسن لها . قال الراجز :

« لا هيثمَ الليلة للمطىّ »

وقد روى بالرفع فى الجميع .

والمقارعة منصوبة على المصدر . وقال الراوندى : هى استثناء منقطع ، والصواب ما ذكرناه ، وقد روى : « إلّا المقارعةُ » بالرفع ، تقديره : ولا نصير لكم بوجه من الوجوه إلا المقارعة .

والأمثال التى أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام هى ما تضمنه القرآن من أيام الله ونقماته على أعدائه ، وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (١) .

والتناهى : مصدر تناهى القوم عن كذا ، أى نهى بعضهم بعضا ، يقول : لعن الله الماضين من قبلكم ، لأن سفهاءهم ارتكبوا المعصية ، وحلماءهم لم ينهوهم عنها ، وهذا من قوله تعالى : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٢) .

• • •

الأصل :

أَلَا وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ ٱلْإِسْلَامِ ، وَعَطَّلْتُمْ حُدُودَهُ ، وَأَمَتُّمْ أَحْكَامَهُ .

أَلَا وَقَدْ أَمَرَنِي ٱللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ ٱلْبَغْيِ وَٱلنَّكْثِ وَٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ ، فَأَمَّا ٱلنَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ ، وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ ، وَأَمَّا ٱلْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ ، وَأَمَّا شَيْطَانُ ٱلرَّدْهَةِ فَقَدْ كُفِيتُهُ بِصَعْقَةٍ سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةُ قَلْبِهِ ، وَرَجَّةُ صَدْرِهِ ،

---

(١) سورة إبراهيم ٤٥ — (٢) سورة المائدة ٧٩

وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ ؛ وَلَئِنْ أَذِنَ اللهُ فِي الْكَرَّةِ عَلَيْهِمْ ، لَأُدِيلَنَّ مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَشَذَّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشَذُّرًا .

* * *

الشَّرْحُ :

قد ثبت عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال له عليه السلام : « ستقاتلُ بعدي النّاكثين والقاسطين والمارقين » ، فكان النّاكثون أصحابَ الجمل ، لأنّهم نكثوا بيعته عليه السلام ، وكان القاسطون أهلَ الشّام بصفّين ، وكان المارقون الخوارجَ في النّهروان ، وفي الفرق الثلاث ، قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ [1] ، وقال : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [2] ، وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « يخرج من ضئضئ هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السّهم من الرميّة؛ ينظر أحدكم في النّصل فلا يجد شيئا ، فينظر في الفوق [3] ، فلا يجد شيئا ، سبق الفرث والدم » . وهذا الخبر من أعلام نبوّته صلى الله عليه وآله ومن أخباره المفصلة بالغيوب .

وأمّا شيطانُ الرَّدْهة ، فقد قال قوم : إنّه ذو الثُّدَيَّة صاحب النّهروان ، ورووا في ذلك خبرا عن النبيّ صلّى الله عليه وآله ، وممّن ذكر ذلك واختاره الجوهريّ صاحب " الصّحاح [4] " ، وهؤلاء يقولون : إنّ ذا الثُّدَيّة لم يقتَلْ بسيف ، ولكنّ الله رماه يوم النّهروان بصاعقة ، وإليها أشار عليه السلام بقوله : « فقد كُفِيته بصَعْقة سمعت لها وَجْبة

(١) سورة الفتح ١٠ (٢) سورة الجن ١٥

(٣) الفوق : مشق رأس السهم حيث يقع الوتر .

(٤) الصحاح ٨ : ٢٢٣٢ ، وفيه : قال الخليل : الردهة : شبه أكمة كثيرة الحجارة . وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم ذكر المقتول بالنهروان ، فقال : « شيطان الردهة » .

قلبه » ، وقال قوم : شيطان الرَّدْهة أحد الأبالسة للرَّدَة من أعوان عدوّ الله إبليس ، ورووا فى ذلك خبرا عن النبىّ صلى الله عليه وآله ، وأنّه كان يتعوّذ منه . والرَّدْهة : شبه نُقْرة فى الجَبَل يجتمع فيها الماء ، وهذا مثل قوله عليه السلام : « هذا أزبّ العقبة » ، أى شيطانُها ، ولعلّ أزبّ العَقَبة هو شيطان الرَّدْهة بعينه ، فتارة يردُ بهذا اللّفظ ، وتارة يردُ بذلك اللفظ . وقال قوم :شيطان الرَّدْهة ماردٌ يتصوّر فى صورة حيّة،ويكون عَلَى الرَّدْهة. وإنما أخذوا هذا من لَفْظة « الشيطان » لأنّ الشيطان الحيّة ، ومنه قولهم : شيطان الحماطة، والحماطة شجرة مخصوصة ، ويقال : إنها كثيرة الحيّات .

قوله : « ويتشذّر فى أطراف الأرض » ، يتمزّق ويتبدّد ، ومنه قولهم : ذهبُوا شَذَرَ مَذَر .

والبقيّة التى بقيَتْ من أهل البَغْى : معاوية وأصحابه ، لأنه عليه السلام لم يكن أتى عليهم بأجمعهم ، وإنّما وقعت الحربُ بينه وبينهم بمكيدة التحكيم .

قوله عليه السلام : « ولئن أذنَ الله فى الكَرّة عليهم » ، أى إن مُدّ لى فى العمر لأديلنّ منهم ، أى لتكوننّ الدّوْلة لى عليهم ، أدلت من فلان أى غلبته وقهرته ، وصرت ذَا دولةٍ عليه .

• • •

[استدلال قاضى القضاة على إمامة أبى بكر وردّ المرتضى عليه]

واعلم أن أصحابنا قد استدلوا على صحة إمامة أبى بكر بقوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ (١)﴾ ثم قال قاضي القضاة في المغني : وهذا خبر من الله تعالى ، ولابدّ أن يكون كائناً على ما أخبر به ، والذين قاتلوا المرتدّين هم أبو بكر وأصحابه ، فوجب أن يكونوا هُم الذين عناهم الله سبحانه بقوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، وذلك يوجب أن يكونوا على صواب .

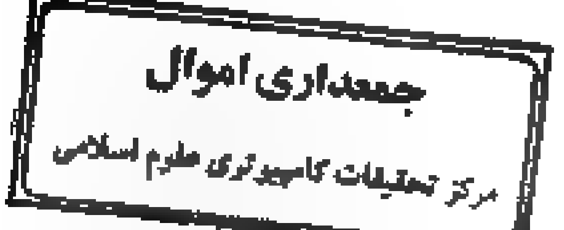
واعترض المرتضى رحمه الله على هذا الاحتجاج في " الشافي " فقال : من أينَ قلت : إنّ الآية نزلتْ في أبي بكر وأصحابه ؟ فإن قال : لأنّهم الّذين قاتلوا المرتدّين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا أحدَ قاتلهم سواهم ، قيل له : ومَنِ الّذي سلّم لك ذلك ؟ أوَ ليس أميرُ المؤمنين عليه السلام قد قاتل النّاكثين والقاسطين والمارقين بعد الرسول صلى الله عليه وآله وهؤلاء عندنا مرتدون عن الدين ، و يشهد بصحة التأويل زائداً على احتمال القول له ، ماروى عن أمير المؤمنين عليه السلام من قوله يوم البصرة : والله ماقوتل أهلُ الآية حتى اليوم ، وتلاها ، وقد رُوى عن عمّار وحُذيفة وغيرهما مثل ذلك .

فإن قال : دليلي على أنّها في أبي بكر وأصحابه قولُ أهل التفسير ، قيل له : أوَ كلّ أهل التفسير قال ذلك ؟ فإن قال : نعم ، كابَر لأنّه قد رُوى عن جماعةِ التأويل الذي ذكرناه ، ولو لم يكن إلّا ماروِى عن أمير المؤمنين عليه السلام ووجوه أصحابه الذين ذكرناهم لكفى ، وإن قال: حجّتي قولُ بعض المفسرين ، قلنا : وأىّ حجّة في قول البعض ! ولِمَ صار البعضُ الّذي قال ما ذكرت أولَى بالحقّ من البعض الذي قال ماذكرنا !

ثم يقال له : قدْ وجدْنا الله تعالى قد نعت المذكورين في الآية بنعوت يجب أن

---

(١) سورة المائدة ٥٤



نزاعنا ، لنعلم أفى صاحبنا هى أم فى صاحبك ! وقد جعله الرّسولُ صلى الله عليه وآله فى خَيْبر حينَ فرّ مَنْ فرّ من القوم عن العدوّ صاحب هذه الأوصاف ، فقال : لأعطيَنّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسولَه ، ويحبّه الله ورسولُه ، كرّارا غير فرّار ؛ فدفعها إلى أمير المؤمنين عليه السلام .

ثم قوله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[1] ، يقتضى ماذكرنا ، لأنه من المعلوم بلا خلاف حالُ أمير المؤمنين عليه السلام فى التخاشع والتواضع ، وذمّ نفسه ، وقمع غضبه ، وأنه مارُئى قطّ طائشاً ولا متطيّرا فى حالٍ من الأحوال ، ومعلوم حال صاحبيكم فى هذا الباب ، أمّا أحدُهم فإنه اعترف طوعاً بأنّ له شيطاناً يعتريه عند غضبه ، وأمّا الآخر فكان معروفاً بالجدّ والعجلة ، مشهورا بالفظاظة والغلظة ، وأما العزّة على الكافرين ، فإنّما تكون بقتالهم وجهادهم والانتقام منهم ، وهذه حالٌ لم يسبق أميرَ المؤمنين عليه السلام إليها سابق ، ولا لحقه فيها لاحق .

ثم قال تعالى . ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾[1] ، وهذا وصفُ أمير المؤمنين المستحقّ له بالإجماع ، وهو منتفٍ عن أبى بكر وصاحبه إجماعا ، لأنه لا قتيل لهما فى الإسلام ، ولا جهاد بين يدى الرّسُول صلّى الله عليه وآله ، وإذا كانت الأوصاف المراعاة فى الآية حاصلة لأمير المؤمنين عليه السلام ، وغير حاصلة لمن ادّعيتم ، لأنّها فيهم على ضربين : ضرب معلوم انتفاؤه كالجهاد ، وضَرْب مختلَف فيه كالأوصاف التى هى غير الجهاد ، وعلى مَنْ أثبتها لهم الدّلالة على حصولها ، ولا بدّ من أن يرجع فى ذلك إلى غير ظاهر الآية ، لم يبق فى يده من الآية دليل .

هذه جُمْلة ماذكره المرتضى رحمه الله ، ولقد كان يمكنه التخلّص من الاحتجاج بالآية

---

(١) سورة المائدة : ٥٤ .

على وجهٍ ألطفَ وأحسن وأصحَّ مما ذكره ، فيقول : المراد بها مَن ارتدَّ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله فى واقعة الأسود العنسىّ باليمن ، فإنّ كثيرا من المسلمين ضلّوا به وارتدّوا عن الإسلام ، وادّعوا له النبوّة ، واعتقدوا صدقَه ، والقوم الّذين يحبّهم الله ويحبونه : القوم الّذين كاتبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وأغراهم بقتله ، والفتك به ، وهم فيروز الديلمىّ وأصحابُه . والقصّة مشهورة .

وقد كان له أيضاً أن يقول: لم قلت : إنّ الذين قاتلهم أبو بكر وأصحابُه كانوا مرتدّين! فإنّ المرتدّ من ينكر دينَ الإسلام بعد أن كان قد تديّن به ، والذين منعوا الزكاة لم ينكروا أصلَ دين الإسلام ، وإنّما تأوّلوا فأخطئوا ؛ لأنهم تأوّلوا قول الله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾[1]؛ فقالوا : إنّما ندفع زكاة أموالنا إلى مَنْ صلاته سكَنٌ لنا ، ولم يبق بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله مَنْ هُوَ بهذه الصفة ؛ فسقط عنّا وجوب الزكاة ، ليس هذا من الردّة فى شىء ، وإنّما سمّاهم الصحابة أهلَ ردّة على سبيل المجاز ، إعظاماً لما قالوه وتأوّلوه .

فإن قيل : إنّما الاعتمادُ على قتال أبى بكر وأصحابه لمسيلمة وطُلَيحة اللّذَيْن ادّعيا النبوّة ، وارتدّ بطريقهما كثيرٌ من العرب ، لا على قتال مانعى الزكاة !

قيل : إنّ مُسَيلِمة وطُلَيْحة جاهَدَهما رسولُ الله صلى الله عليه وآله قبل موته بالكتُب والرّسل، وأنفذ لقتلهما جماعةً من المسلمين ، وأمرهم أن يفتكوا بهما غيلةً إن أمكنهم ذلك؛ واستنفر عليهما قبائلَ من العرب ، وكلُّ ذلك مفصّل مذكور فى كتب السِّيَر والتواريخ ، فلم لا يجوز أن يكون أولئك النفر الّذين بعثهمْ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله للفتك بهما ، هم المعنيّون بقوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ إلى آخر الآية ! ولم يقلْ فى الآية : «يجاهدون

---

(١) سورة التوبة ١٠٣

فيقتلون » ، وإنما ذكر الجهاد فقط ، وقد كان الجهاد من أولئك النفر حاصلا وإن لم يبلغوا الغرض ، كما كان الجهاد حاصلا عند حصار الطائف وإنْ لم يبلغ فيه الغرض .

وقد كان له أيضا أن يقول : سياقُ الآية لا يدلّ على ماظنّه المستدِلّ بها ؛ من أنّه مَنْ يرتدد عن الدّين ، فإن الله يأتى بقوم يحبّهم ويحبّونه يحاربونه لأجل رِدّته ، وإنما الذى يدلّ عليه سياق الآية أنّه مَنْ يرتدّ منكم عن دينه بترك الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وسمّاه ارتداداً على سبيل المجاز ـ فسوف يأتى الله بقوم يحبّهم ويحبّونه ، يجاهدون فى سبيل الله معه عِوَضاً عنكم ، وكذلك كان كلّ مَنْ خذَل النبىّ صلى الله عليه وآله وقعَد عن النهوض معه فى حروبه ، أغناه الله تعالى عنه بطائفة أخرى من المسلمين جاهدوا بين يديه !

وأما قول المرتضى رحمه الله : إنها أنزلت فى الناكثين والقاسطين والمارقين الذين حاربهم أميرُ المؤمنين عليه السلام فبعيد ، لأنّهم لا يطلق عليهم لفظ «الردّة» عندنا ، ولا عند المرتضى وأصحابه ، أما اللفظ فبالاتفاق ، وإن سمّوهم كفارا . وأمّا المعنى فلأنّ فى مذهبهم أنّ من ارتدّ ـ وكان قد ولد على فطرة الإسلام ـ بانت امرأتُه منه ، وقسم ماله بين ورثته ، وكان على زوجته عدّة المتوفّى عنها زوجها ؛ ومعلوم أنّ أكثر محاربى أمير المؤمنين عليه السلام كانوا قد وُلِدوا فى الإسلام ، ولم يحكم فيهم بهذه الأحكام .

وقوله : « إنّ الصفات غير متحقّقة فى صاحبكم » ، فلعمرى إنّ حظ أمير المؤمنين عليه السلام منها هو الحظُّ الأوفى ، ولكن الآية ما حصّت الرئيس بالصّفات المذكورة ، وإنما أطلقها على المجاهدين ، وهم الذين يباشرون الحرب ؛ فهب أنّ أبا بكر وعمر ما كانا بهذه الصفات ، لِمَ لا يجوز أن يكون مدحاً لمن جاهدين أيديهما من المسلمين ، وباشر الحرب ، وهم شجعان المهاجرين والأنصار الذين فتحوا الفتوح ، ونشروا الدّعوة ، وملكوا الأقاليم !

وقد استدلّ قاضي القضاة أيضا على صحة إمامة أبي بكر ؛ ـ وأسند هذا الاستدلال إلى شيخنا أبي علي ـ بقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾[3] ، يعني قوله تعالى : ﴿ لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾ . ثم قال سبحانه : ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[4] ، فبيّن أنّ من يدعو هؤلاء المخلّفين من الأعراب إلى قتال قوم أولى بأس شديد غير النبيّ صلّى الله عليه وآله ، لأنّه تعالى قد بيّن أنّهم لا يخرجون معه ، ولا يقاتلون معه عدوًّا ، بآية متقدّمة ، ولم يدعُهم بعد النبي صلى الله عليه وآله إلى قتال الكفّار إلا أبو بكر وعمر وعثمان ، لأنّ أهل التأويل لم يقولوا في هذه الآية غيرَ وجهين من التأويل ، فقال بعضهم : عَنَى بقوله : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ، بني حنيفة ، وقال بعضهم : عَنَى فارس والرّوم ؛ وأبو بكر هو الذي دعا إلى قتال بني حنيفة وقتال آل فارس والروم ، ودعاهم بعده إلى قتال فارس والرّوم عُمر ، فإذا كان الله تعالى قد بيّن أنهم بطاعتهم لهما يؤتهم أجرا حسنا ، وإن تولّوا عن طاعتهما يعذبهم عذابا أليما ، صحّ أنّهما على حقّ ، وأنّ طاعتهما طاعةٌ لله تعالى ، وهذا يوجب صحة إمامتهما .

---

(١) سورة الفتح ١١
(٢) سورة التوبة ٨٣
(٣) سورة الفتح ١٥
(٤) سورة الفتح ١٦

فإن قيل : إنما أراد الله بذلك أهل الجمل وصفّين !

قيل:هذا فاسد من وجهين : أحدهما قوله تعالى : ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾، والذين حاربوا أمير المؤمنين كانوا على الإسلام ، ولم يقاتلوا على الكفر .والوجه الثانى أنا لا نعرف من الذين عناهم الله تعالى بهذا مَنْ بقى إلى أيام أمير المؤمنين عليه السلام ، كما علمنا أنهم كانوا باقين فى أيام أبى بكر .

اعترض المرتضى رحمه الله على هذا الكلام من وجهين : أحدهما أنه نازع فى اقتضاء الآية، داعياً يدعو هؤلاء المخلفين غير النبى صلى الله عليه وآله ، وذلك لأن قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾[1] إنما أراد به سبحانه الذين تخلفوا عن الحديبية بشهادة جميع أهل النقل وإطباق المفسرين.

ثم قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1] ، وإنما التمس هؤلاء المخلفون أن يخرجوا إلى غنيمة خيبر ، فمنعهم الله تعالى من ذلك ، وأمر نبيه أن يقول لهم : لن تتبعونا إلى هذه الغزاة ، لأنّ الله تعالى كان حكم من قبل بأنّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ، وأنه لا حظّ لمن لم يشهدها ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ

---

(١) سورة الفتح ١١ ، ١٢

مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ ، وإنما أراد أنّ الرسولَ سيدعُوكم فيما بعد إلى قتال قومٍ أولى بأسٍ شديد ، وقد دعاهم النبي صلى الله عليه وآله بعد ذلك إلى غزَوات كثيرة ، إلى قوم أولى بأسٍ شديد ، كمُؤتة وحُنَين وتبُوك وغيرها ، فمن أين يجب أن يكونَ الداعى لهؤلاء غير النبى صلى الله عليه وآله ، مع ما ذكرناه من الحروب التى كانت بعد خيبر !

وقوله : إن معنى قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ ، إنما أراد به مابيّنه فى قوله : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ ؛ فتبوك سنة تسع ، وآية الفتح نزلت فى سنة ستّ ، فكيف يكون قبلها !

وليس يجب أن يقال فى القرآن بالإرادة فقط بما يحتمل من الوجوه فى كلّ موضع دون الرجوع إلى تاريخ نزول الآىِ ، والأسباب التى وردت عليها ، وتعلّقت بها .

ومما يبيّن لك أنّ هؤلاء المخلّفين غير أولئك لو لم نرجع فى ذلك إلى نقل وتاريخ ، قوله تعالى فى هؤلاء : ﴿ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[1] ، فلم يقطع منهم على طاعة ولا معصية ، بل ذكر الوعد والوعيدَ على مايفعلونه من طاعة أو معصية ، وحكمُ المذكورين فى آية سورة التوبة بخلاف هذه ، لأنه تعالى بعد قوله : ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَالِفِينَ ۝ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ۝ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾[2] ، واختلاف أحكامهم وصفاتهم يدلّ

---

(١) سورة الفتح : ١٦

(٢) سورة التوبة : ٨٣ ـ ٨٥ .

على اختلافهم ، وأنّ المذكورين فى آية سورة الفتح غيرُ المذكورين فى آية سورة التوبة .

وأما قوله : لأنّ أهلَ التأويل لم يقولوا فى هذه الآية غير وجهين من التأويل فذكرها باطل ؛ لأنّ أهلَ التأويل قد ذكروا شيئاً آخر لم يذكره ، لأنّ ابن المسيّب روى عن أبى رَوْق عن الضحّاك فى قوله تعالى : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ... ﴾ الآية ، قال : هم ثَقيف . وروى هُشَيم عن أبى بِشْر ، عن سَعيد بن جُبَير ، قال : هم هَوَازن يوم حُنَين .

وروى الواقدىّ ، عن معمر ، عن قتادة، قال : هم هوازن وثقيف ، فكيف ذكر من أقوال المفسرين مايوافقهُ مع اختلاف الرواية عنهم ! على أنّا لا نرجع فى كلّ مايحتمله تأويل القرآن إلى أقوال المفسّرين ، فإنهم ربما تركوا مما يحتمله القول وجهاً صحيحا ؛ وكم استخرج جماعةٌ من أهلِ العدل فى مُتشابه القرآن من الوجوه الصحيحة التى ظاهر التنزيل بها أشبه ، ولها أشدّ احتمالا ، مما لم يسبق إليه المفسرون ، ولا دخل فى جملة تفسيرهم وتأويلهم .

والوجه الثانى سلّم فيه أنّ الداعى هؤلاء المخبين غير النبىّ صلى الله عليه وآله ، وقال: لا يمتنعُ أن يعنى بهذا الدّاعى أمير المؤمنين عليه السلام ، لأنّه قاتل بعده النّاكثين والقاسطين والمارقين . وبشّره النبى صلى الله عليه وآله بأنّه يقاتلهم ، وقد كانوا أولى بأس شديد بلا شبهة .

قال : فأمّا تعلق صاحب الكتاب بقوله : ﴿ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ ، وأنّ الذين حاربهم أمير المؤمنين عليه السلام كانوا مسلمين ، فأوّل ما فيه أنهم غير مسلمين عنده وعند أصحابه؛ لأنّ الكبائر تُخرج من الإسلام عندهم كما تخرج عن الإيمان إذ كان الإيمانهو الإسلام

على مذهبهم . ثم إنّ مذهبنا فى محارِبِى أمير المؤمنين عليه السلام معروفٌ ، لأنهم عندنا كانوا كفارا بمحاربته لوجوه :

الأول منها : أن مَنْ حاربه كان مستحلاً لقتاله ، مظهرا أنه فى ارتكابه على حقّ ؛ ونحن نعلم أنّ مَنْ أظهر استحلال شرب جُرْعة خمر هو كافر بالإجماع ؛ واستحلال دماء المؤمنين فضلا عن أفاضلهم وأكابرهم أعظم من شرب الخمر واستحلاله ، فيجب أن يكونوا من هذا الوجه كفّارا .

الثانى : أنه عليه السلام قال له بلا خلاف بين أهل النقل : « حَرْبك ياعلىّ حَرْبى ، وسِلْمك سلمى » ، ونحن نعلم أنه لم يرد إلّا التشبيه بينهما فى الأحكام ، ومن أحكام محاربى النبى صلى الله عليه وآله الكفر بلا خلاف .

الثالث : أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله قال له بلا خلاف أيضاً : « اللهمّ والِ مَنْ والاه ، وعادِ مَنْ عاداه ، وانصر مَنْ نصره ، واخذل من خذله » ، وقد ثبت عندنا أنّ العداوة من الله لا تكون إلّا للكفّار الذين يعادونه دون فسّاق أهل الملّة .

الرابع : قوله : إنا لا نعلمُ بقاء هؤلاء المخلّفين إلى أيام أمير المؤمنين عليه السلام فليس بشىء ، لأنه إذا لم يكن ذلك معلوما ومقطوعا عليه ، فهو مجوّز وغير معلوم خلافه ، والجواز كافٍ لنا فى هذا الموضع .

ولو قيل له : من أين علمتَ بقاء المخلّفين المذكورين فى الآية على سبيل القطع إلى أيام أبى بكر ؟ لكان يفزع إلى أن يقول : حكم الآية يقتضى بقاءهم حتى يتمّ كونُهم مدعوّين إلى قتال أولى البأس الشديد على وجه يلزمهم فيه الطاعة ، وهذا بعينه يمكن أن يقال له ، ويعتمد فى بقائهم إلى أيام أمير المؤمنين عليه السلام على مايوجبه حكم الآية .

فإن قيل : كيف يكونُ أهل الجمل وصِفّين كفّاراً ولم يسرْ أميرُ المؤمنين عليه السلام

فيهم سيرة الكفّار، لأنّه ماسلم، ولا غنم أموالهم، ولا تبع موليّهم!

قلنا: أحكام الكفر تختلفُ، وإن شملهم اسمُ «الكفر»، لأنّ فى الكفار مَنْ يُقْتَل ولا يسترق، وفيهم مَنْ يُؤخذ منه الجزية ولا يحلّ قتله إلا بسبب طارئ غير الكفر، ومنهم من لا يجوز نكاحه على مذهب أكثر المسلمين، فعلى هذا يجوز أن يكون أكثر هؤلاء القوم كفّاراً، وإن لم يسِرْ فيهم بجميع سيرة أهل الكفر، لأنّا قد بيّنا اختلاف أحكام الكفّار، ويرجع فى أنّ حكمهم مخالف لأحكام الكفار إلى فعله عليه السلام وسيرته فيهم. على أنّا لا نجدُ فى الفُسّاق مَنْ حكمه أن يقتل مقبلاً، ولا يقتل موليّا، ولا يجهز على جريحه، إلى غير ذلك من الأحكام التى سيّرها فى أهل البَصْرة وصِفّين.

فإذا قيل فى جواب ذلك: أحكامُ الفسق مختلفة، وفعلُ أمير المؤمنين هو الحجّة فى أنّ حكم أهل البصرة وصفّين مافعله.

قلنا مثل ذلك حرفاً بحرف، ويمكن مع تسليم أنّ الداعى لهؤلاء المخلّفين أبو بكر، أن يقال: ليس فى الآية دلالة على مدح الداعى ولا على إمامته، لأنّه قد يجوز أن يدعوَ إلى الحقّ والصواب مَنْ ليس عليهما، فيلزم ذلك الفعل من حيث كان واجبا فى نفسه، لا لدعاء الدّاعى إليه، وأبو بكر إنّما دعا إلى دفع أهل الرّدّة عن الإسلام، وهذا يجب على المسلمين بلا دعاء داع، والطاعة فيه طاعة لله تعالى، فمن أين له أنّ الداعى كان على حقّ وصواب! وليس فى كونِ مادعا إليه طاعةً مايدلّ على ذلك.

ويمكن أيضا أن يكون قوله تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾ إنّما أراد به دعاء الله تعالى لهم بإيجاب القتال عليهم، لأنه إذا دلّهم على وجوب قتال المرتدّين، ورفعهم عن بيضة الإسلام، فقد دعاهم إلى القتال، ووجبت عليهم الطاعة، ووجب لهم الثواب إن أطاعوا، وهذا أيضا تحتمله الآية.

فهذه جملة ما ذكره المرتضى رحمه الله فى هذا الموضع؛ وأكثره جيد لا اعتراض عليه ؛ وقد كان يمكنه أن يقول: لوسلّمنا بكلّ هذا لكان ليس فى قوله : ﴿ لَن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾ الآية ما يدلّ على أنّ النبي صلى الله عليه وآله لا يكون هو الداعى لهم إلى القوم أولى البأس الشديد ، لأنه ليس فيها إلا محض الإخبار عنهم بأنّهم لا يخرجون معه ، ولايقاتلون العدوّ معه ، وليس فى هذا ماينفى كونه داعيا لهم ، كما أنه عليه السلام قال : «أبو لهب لا يؤمن بي » ، لم يكن هذا القول نافيا لكونه يدعوه إلى الإسلام .

وقوله : ﴿ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ ليس بأمر على الحقيقة ، وإنما هو تهديد كقوله : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [١] ولا بدّ لمرتضى ولقاضى القضاة جميعا من أن يحملا صيغة « افعل » على هذا المحمل ، لأنه ليس لأحدهما يسوغ أن يحمل الأمر على حقيقته ، لأنّ الشارع لا يأمر بالقعود وترك الجهاد مع القدرة عليه ، وكونه قد تعيّن وجوبه .

فإن قلت : لو قدّرنا أنّ هذه الآية ، وهى قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ، أنزلت بعد غزوة تبوك ، وبعد نزول سورة «براءة» ، التى تتضمّن قوله تعالى : ﴿ لَن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾ ، وقدرنا أنّ قوله تعالى : ﴿ لَن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾ ليس إخبارا محضا كما تأوّلته أنت وحملت الآية عليه ، بل معناه لا أخرجكم معى ولا أشهدكم حرب العدوّ ، هل كان يتم الاستدلال ؟

قلت : لا ؛ لأنّ للإماميّة أن تقولّ : يجوز أن يكون الداعي إلى حرب القوم أولى البأس الشديد مع تسليم هذه المقدّمات كلّها هو رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه دعاهم إلى حرب الرّوم فى سَريّة أسامة بن زيد فى صفر من سنة إحدى عشرة ، لمّا سيّره إلى البلقاء ، وقال له : سر إلى الروم إلى مقتل أبيك ، فأوطئهم الخيولَ ، وحشد معه أكثر المسلمين ، فهذا الجيش قد دُعِيَ فيه المخلفون من الأعراب الذين قعدوا عن الجهاد

---

(١) سورة الشورى : ٤٠

فى غزاة تبوك إلى قوم أولى بأس شديد ، ولم يخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا حاربوا معه عدوًّا .

فإن قلت : إذا خرجوا مع أسامة ، فكأنما خرجوا مع رسول الله ، وإذا حاربوا مع أسامة العدوّ ، فكأنما حاربوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد كان سبق أنهم لا يخرجون مع رسول الله صلى الله عليه وآله ولا يحاربون معه عدوًّا .

قلت : وإذا خرجوا مع خالد بن الوليد وغيره فى أيام أبى بكر ، ومع أبى عُبيدة وسعد فى أيام عمر ؛ فكأنما خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وحاربوا العدوّ معه أيضاً .

فإن اعتذرت بأنه وإن شابه الخروج معه والحرب معه إلا أنه على الحقيقة ليس معه ، وإنما هو مع امرئ من قبل خلفائه .

قيل لك : وكذلك خروجهم مع أسامة ومحاربة العدوّ معه ، وإن شابه الخروج مع النبى ومحاربة العدوّ معه ، إلا أنه على الحقيقة ليس معه ، وإنما هو مع بعض أمرائه .

ويمكن أن يعترض الاستدلال بالآية ، فيقال : لا يجوز حملها على بنى حنيفة ، لأنهم كانوا مسلمين ، وإنما منعوا الزكاة مع قولهم : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » صلى الله عليه وآله ، ومنع الزكاة لا يخرج به الإنسان عن الإسلام عند المرجئة ، والإمامية مرجئة ؛ ولا يجوز حملها على فارس والروم ، لأنه تعالى أخبر أنه لا واسطة بين قتالهم وإسلامهم ، كما تقول : إما كذا وإما كذا ، فيقتضى ذلك نفى الواسطة ، وقتال فارس والروم بينه وبين إسلامهم واسطة ، وهو دفع الجزية ، وإنما تنتفى هذه الواسطة فى قتال العرب ، لأن مشركى العرب لا تؤخذ منهم الجزية ، فالآية إذن دالة على أن المخلفين سيُدعَون إلى قوم أولى بأس شديد الحكم فيهم ، إما قتلهم وإما إسلامهم ، وهؤلاء هم مشركو العرب ، ولم يحارب مشركى العرب إلا رسول الله صلى الله عليه وآله ، فالداعى لهم إذاً هو رسولُ الله ، وبطل الاستدلال بالآية .

***

الأصل :

أنا وضعتُ في الصِّغَر بِكَلاكِلِ العربِ ، وكَسرتُ نَواجِمَ قُرونِ ربيعةَ ومُضرَ ، وقد علمتم موضعي من رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ ؛ بالقرابةِ القريبةِ ، والمنزلةِ الخصيصةِ ، وضَمَّني في حِجرِهِ ، وأنا وليدٌ يضُمُّني إلى صدرِهِ ، ويَكنُفُني في فِراشِهِ ، ويُمِسُّني جسدَهُ ، ويُشِمُّني عَرفَهُ ؛ وكان يَمضغُ الشيءَ ثم يُلقِمُنيهِ ، وما وجدَ لي كَذبةً في قولٍ ، ولا خَطلةً في فعلٍ .

ولقد قرنَ اللهُ بهِ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ مِن لَدُن أن كان فطيماً أعظمَ مَلَكٍ من ملائكتِهِ ، يَسلُكُ بهِ طريقَ المكارمِ ، ومحاسنَ أخلاقِ العالَمِ ، ليلَهُ ونهارَهُ .

ولقد كنتُ أتَّبِعُهُ اتّباعَ الفصيلِ أثرَ أُمِّهِ ، يَرفعُ لي في كلِّ يومٍ من أخلاقِهِ عَلَماً ، ويأمرُني بالاقتداءِ بهِ ، ولقد كان يُجاوِرُ في كلِّ سنةٍ بحِراءَ فأراهُ ، ولا يراهُ غيري ، ولم يجمعْ بيتٌ واحدٌ يومئذٍ في الإسلامِ غيرَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ وخديجةَ وأنا ثالثُهما ، أرى نورَ الوحيِ والرسالةِ ، وأشمُّ ريحَ النبوّةِ .

ولقد سمعتُ رنّةَ الشيطانِ حين نزلَ الوحيُ عليهِ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ، ما هذهِ الرنّةُ ؟ فقال : هذا الشيطانُ ، قد أيِسَ من عبادتِهِ ، إنّك تسمعُ ما أسمعُ ، وترى ما أرى ، إلا أنّك لستَ بنبيٍّ ، ولكنّك لوزيرٌ ، وإنّك لعلى خيرٍ .

* * *

الشرح :

الباء في قوله : « بكلاكل العرب » زائدة . والكلاكل : الصدور ، الواحد كَلكَل ، والمعنى أني أذللتهم وصرعتهم إلى الأرض .

ومواجم قرون ربيعة ومضر : مَنْ نجم منهم وظهر ، وعلا قدرُه ، وطار صيته .

فإن قلت : أمّا قهره لِمُضرَ فمعلوم ، فما حال ربيعة ، ولم نعرف أنه قتل منهم أحدا ؟ قلت : بلَى قد قتل بيده وبجيشه كثيرا من رؤسائهم في صِفّين والجمل ، فقد تقدم ذكر أسمائهم من قبل ، وهذه الخطبة خطب بها بعد انقضاء أمر النهروان .

والعَرْف بالفتح : الريح الطّيبة ، ومضَغ الشيء يمضَغه بفتح الضاد .

والخطلة في الفعل : الخطأ فيه ، وإيقاعه على غير وجهه . وحِراء : اسم جبل بمكّة معروف .

والرّنة : الصوت .

* * *

[ذكر ما كان من صلة علىّ برسول الله في صغره]

والقرابة القريبة بينه وبين رسول الله صلّى الله عليه وآله دون غيره من الأعمام ، كونه ربّاه في حِجْره ، ثم حامَى عنه ونصَره عند إظهار الدّعوة دونَ غيره من بنى هاشم ، ثمّ ما كان بينهما من المُصاهرة التى أفضتْ إلى النّسل الأطْهر دون غيره من الأصهار . ونحن نذكر ما ذكره أرباب السِّيَر من معانى هذا الفصل .

روى الطبرىّ في تاريخه ، قال : حدّثنا ابن حُميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : حدّثنى محمد ابن إسحاق قال : حدثنى عبدُ الله بن نجيح ، عن مجاهد ، قال : كان من نعمة الله عزّ وجلّ على علىّ بن أبي طالب عليه السلام ، وما صنع الله له ، وأراده به من الخير ، أنّ قريشا أصابتْهم أزْمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيالٍ كثير ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله للعبّاس — وكان من أيسر بنى هاشم — ياعبّاس ، إنّ أخاك أبا طالب كثيرُ العيال ، وقد ترَى ما أصاب النّاسَ من هذه الأزمة ، فانطلق بنا ، فلنخفّف عنه من عياله ، آخذُ من بيته واحدا ، وتأخذُ واحداً ،

فنكفيهما عنه . فقال العبّاس : نعم ، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب ، فقالا له : إنّا نريد أن نخفّف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه ، فقال لهما : إن تركتما لى عقيلاً فاصنعا ما شئتما ، فأخذ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله عليًّا فضمّه إليه ، وأخذ العبّاس جعفراً رضى الله عنه ، فضمّه إليه ، فلم يزل علىّ بن أبى طالب عليه السلام مع رسول الله صلّى الله عليه وآله حتى بعثه الله نبيًّا ، فاتّبعه علىٌّ عليه السلام ، فأقرّ به وصدّقه ، ولم يزل جعفرٌ عند العبّاس حتى أسلم واستغنى عنه (١) .

قال الطبرىّ : وحدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثنا محمد بن إسحاق ، قال : كان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله إذ حضرت الصّلاة خرج إلى شعاب مكّة ، وخرج معه علىّ بن أبى طالب عليه السلام مستخفياً من عمّه أبى طالب ، ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصلّيان الصّلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ماشاء الله أن يمكثا .

ثم إنّ أبا طالب عثر عليهما وهما يصلّيان ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله : يابنَ أخى ، ماهذا الذى أراك تدين به ؟ قال : ياعمّ هذا دينُ الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم — أو كما قال — بعثنى الله به رسولًا إلى العباد ، وأنت ياعمّ أحقّ مَنْ بذلتُ له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى ، وأحقّ مَنْ أجابنى إليه ، وأعاننى عليه — أو كما قال . فقال أبو طالب : يابنَ أخى ، إنّى لا أستطيع أن أفارقَ دينى ودين آبائى ، وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك شىء تكرهه مابقيتُ .

قال الطبرى : وقد روى هؤلاء المذكورون أنّ أبا طالب قال لعلىّ عليه السلام : يابنىّ ، ماهذا الذى أنت عليه ؟ فقال : ياأبتِ ، إنّى آمنتُ بالله ورسوله ، وصدّقته بما

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٣١٣ (طبعة المعارف)

جاء به ، وصلّيت لله معه ، قال : فزعموا أنه قال له : أما إنّه لا يدعو إلا إلى خير ، فالزمه (١) .

وروى الطّبريّ في تاريخه أيضاً ، قال : حدّثنا أحمدُ بن الحسين التّرمذيّ ، قال : حدّثنا عبد الله بن موسى ، قال : أخبرنا العلاء ، عن المنهال بن عمرو ، وعن عبد الله بن عبد الله قال : سمعتُ عليّاً عليه السلام ، يقول : أنا عبدُ الله ، وأخو رسوله ، وأنا الصّدّيق الأكبر ، لا يقولها بعدى إلا كاذب مُفْترٍ ؛ صَلّيْتُ قَبْلَ النّاس بِسَبْع سنين (٢) .

وفي غير رواية الطبريّ : أنا الصّدّيق الأكبر وأنا الفاروق الأوّل ، أسلمت قبل إسلام أبي بكر ، وصلّيت قبل صلاته بسبع سنين . كأنّه عليه السلام لم يرتضِ أنْ يذكر عمر ولا رآه أهلًا للمقايسة بينه وبينه ؛ وذلك لأنّ إسلام عمر كان متأخّراً .

وروى الفضلُ بن عبّاس رحمه الله ، قال : سألتُ أبي عن ولد رسول الله صلى الله عليه وآله الذّكور ، أيّهم كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله له أشدّ حبّاً ؟ فقال : عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقلت له : سألتُك عن بَنيه ، فقال : إنه كان أحبّ عليه من بنيه جميعا وأرأف ، ما رأيناه زايله يوما من الدّهر منذ كان طفلًا ، إلا أنْ يكون في سفر لخديجة ، وما رأينا أباً أبرّ بابنٍ منه لعليّ ، ولا ابناً أطوع لأبٍ من عليّ له .

وروى الحُسين بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام ، قال : سمعتُ زيداً أبي عليه السلام يقول : كان رسول الله يمضغ اللّحمة والتّمرة حتى تلين ، ويجعلهما في فم عليّ عليه السلام وهو صغير في حِجْره ؛ وكذلك كان أبي عليّ بنُ الحسين عليه السلام يفعل بي ؛ ولقد كان يأخذ الشيء من الورك وهو شديد الحرارة ، فيبرّده في الهواء ، أو ينفخ عليه حتى يبرد ، ثم يُلقِمُنيه ؛ أفيشفقُ عليّ من حرارة لقمة ولا يشفق عليّ من النار ! لو كان أخي إماماً بالوصيّة كما يزعم هؤلاء ، لكان أبي أفضى بذلك إليّ ، ووقاني من حرّ جهنم .

(١) تاريخ الطبري ٢ : ٣١٤ (المعارف) (٢) تاريخ الطبري ٢ : ٣١٠ (المعارف)

وروى جبير بن مُطْعِم ، قال : قال أبي مُطْعِم بن عديّ لنا ونحن صبيان بمكة: ألا ترون حبّ هذا الغلام ــ يعني عليّا ــ لمحمد واتّباعه له دون أبيه ! واللّات والعُزّى، لوددتُ أنّ ابني بفتيان بني نوفل جميعا !

وروى سَعيد بن جُبير ، قال : سألت أنسَ بن مالك ، فقلت : أرأيتَ قولَ عمر عن الستة : إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله مات وهو عنهم راض ؟ ألم يكن راضيًا عن غيرهم من أصحابه ؟ فقال : بلى ، مات رسولُ الله صلى الله عليه وآله وهو راضٍ عن كثير من المسلمين ؛ ولكن كان عن هؤلاء أكثر رضًا ، فقلت له : فأيّ الصّحابة كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله له أحمَد ؟ أو كما قال ــ قال : ما فيهم أحدٌ إلّا وقد سخط منه فعلًا ، وأنكر عليه أمرًا ، إلا اثنان : عليّ بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قُحافة ، فإنهما لم يقترفا منذ أتى الله بالإسلام أمرًا أسخطا فيه رسول الله صلى الله عليه وآله .

* * *

[ذكر حال رسول الله عند نشوئه]

وينبغي أنْ نذكر الآن ما ورد في شأن رسول الله صلّى الله عليه وآله وعِصْمته بالملائكة، ليكونَ ذلك تقريرا وإيضاحا لقوله عليه السلام : «ولقد قرن الله به من لدن كان فطيما أعظم ملكٍ من ملائكته» ، وأن نذكر حديث مُجاورته عليه السلام بحراء ،وكون عليّ عليه السلام معه هناك ؛ وأن نذكر ما وردَ في أنه لم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غيرَ رسول الله صلّى الله عليه وآله وعليًّا وخديجة، وأن نذكرَ ما ورد في سماعه رنّة الشيطان، وأن نذكر ما ورد في كونه عليه السلام وزيرًا للمصطفى صلوات الله عليه .

أمّا المقام الأول فروى محمّد بن إسحاق بن يسار في كتاب " السيرة النبوية " ، ورواه أيضًا محمد بن جرير الطبري في تاريخه ، قال : كانتْ حليمة بنت أبي ذُؤيب السّعْدية

أمّ رسول الله صلى الله عليه وآله التي أرضعته تحـدّث أنها خرجت من بلدها ومعها زوجها وابنٌ لها ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر يلتمسنَ الرُّضَاع[١] بمكة، في سنة شَهباء[٢] لم تُبْقِ شيئاً، قالت: فخرجتُ على أتانٍ لي قَمْرَاء[٣] عجفاء، ومعنا شارفٌ[٤] لنا، ما تَبِضّ[٥] بقطرة، ولا ننام ليلنا أجمع من بكاء صبيّنا الذي معنا من الجوع، ما في ثدييَّ ما يُغنيه ولا في شارفنا ما يغذّيه[٦]، ولكنّا نرجو الغيثَ والفرَج. فخرجت على أتاني تلك، ولقد أراثت بالركب ضعفا وعجفا[٧]، حتى شقّ ذلك عليهم، حتى قدمنا مكة نلتمس الرُّضَاع[٨] فما منّا امرأة إلّا وقد عُرِض عليها محمد صلى الله عليه وآله فتأباه إذا قيل لها إنّه يتيم؛ وذلك أنّا إنّما كنّا نرجو المعروف من أبي الصبيّ، فكنّا نقول: يتيم، ما عسى أن تصنع أمّه وجدّه! فكنّا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة ذهبتْ معي إلا أخذتْ رضيعاً غيري؛ فلمّا اجتمعنا للانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجعَ من بين صواحبي لم آخذ رضيعاً؛ والله لأذهبنّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه، قال: لا عليك أن تفعلي! وعسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، فذهبتُ إليه فأخذته؛ وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره. قالت: فلمّا أخذته رجعت إلى رَحْلي، فلمّا وضعته في حِجْري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فرضع حتى رَوِيَ وشرب معه أخوه حتى رَوِيَ. وما كنّا ننام قبل ذلك من بكاء صبيّنا جوعاً، فنام؛ وقام زوجي إلى شارفنا تلك فنظر إليها فإذا أنّها حافِل[٩]؛ فحلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا ريّاً وشبَعاً؛ فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول

(١) ابن هشام: «نلتمس الرضعاء».
(٢) سنة شهباء: تريد بها سنة الجدب، وذلك أن الأرض حينئذ تكون بيضاء لا نبات فيها.
(٣) القمرة بالضم: لون إلى الخضرة، أو بياض فيه كدرة، وحمار أقمر، وأتان قمراء. القاموس.
(٤) الشارف: الناقة المسنة.
(٥) قال أبو ذر الخشني: ما تبض، بالضاد المعجمة، معناه: ما تنشع ولا ترشح، ومن رواه بالصاد المهملة، فمعناه: «لا يبرق عليها أثر لبن، من البصيص، وهو اللمعان». (٦) قال ابن هشام: «ما يغذيه».
(٧) ابن هشام: «فلقد أذمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً».
(٨) ابن هشام: «الرضعاء».
(٩) حفل: أي ممتلئة الضرع.

صاحبي حين أصبحنا : أتعلمين [1] والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة ، فقلت : والله إني لأرجو ذلك ، ثم خرجنا وركبت أتاني تلك ، وحملته معي عليها ، فوالله لقطعتُ بالركب ما يقدر عليها شيء من حميرهم [2] حتى إنّ صواحبي ليَقُلن لي : ويحكِ يابنت أبي ذؤيب ! اربَعي [3] علينا ، أليس هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ! فأقول لهن : بلى والله ، إنها لهي ، فيقلن : والله إن لها لشأنا .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد — وما أعلم أرضاً من أرض العرب أجدب منها — فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شباعاً ملأى [4] لبنا ، فكنا نحتلب ونشرب ؛ وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع ، حتى إنّ الحاضر من قومنا ليقولون لرعاتهم : ويلكم ! اسرحوا حيث يسرح راعي ابنة أبي ذؤيب ! فيفعلون ، فتروح أغنامهم جياعا ما تبضّ بقطرة ، وتروح غنمي شباعاً لبنا ، فلم نزلْ نعرف من الله الزيادة والخير به حتى مضت سنتاه وفصلتُه ، فكان يشبّ شبابا لا يشبهه الغلمان [فلم يبلغ سنتيه] [5] ، حتى كان غلاما جفْراً [6] ، فقدمنا به على أمه آمنة بنت وهب ، ونحن أحرصُ شيء على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فكلّمنا أمه ، وقلنا لها : لو تركتِه عندنا حتى يغلظ ! فإنا نخشى عليه [7] وباء مكة ، فلم نزل بها حتى ردّته معنا .

فرجعنا به إلى بلاد بني سعد ، فوالله إنه لبَعْد ما قدمنا بأشهر مع أخيه في بَهْمٍ [8] لنا خلف بيوتنا ؛ إذ أتانا أخوه يشتدّ ، فقال لي ولأبيه : هاهو ذاك أخي القرشيّ ؛ قدجاءه

---

(١) ابن هشام : « تعلمي » .　　(٢) ابن هشام : « حمرهم » .

(٣) اربعي علينا ، أي أقيمي وانتظري ، يقال : ربع فلان على فلان ، إذا أقام عليه وانتظره .

(٤) ابن هشام : « لبناً » بالتشديد ، أي غزيرات اللبن .

(٥) من ابن هشام　　(٦) جفراً ، أي قويا شديداً

(٧) الوباء ، مهموز ومقصور : كثرة الأمراض والموت .

(٨) البهم : الصغار من الغنم ، واحدها بهمة .

رجلان عليهما ثياب بياض ، فأضجعاه وشقّا بطنه ، فهما يَسُوطانه [1] . قالت : فخرجت أنا وأبوه نشتدّ نحوه ، فوجدناه قائماً [2] ممتقعاً وجهه ، فالتزمته والتزمه أبوه ، وقلنا : مالك يا بنيّ ! قال : جاءني رجُلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني ثم شقّا بطني ، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو !

قالت : فرجعنا به إلى خِبائنا ، وقال لي أبوه : يا حليمة ، لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقيه بأهله .

قالت : فاحتملته حتى قدمتُ به على أمه ، فقالت : ما أقدمك به يا ظئر وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مكثه عندك ؟ فقلت لها : قد بلغ الله بابني ، وقضيت الذى عليّ ، وتخوّفت عليه الأحداث ، وأديته إليك كما تحبين . قالت : أتخوّفتِ عليه الشيطان ؟ قلت : نعم ، قالت : كلّا والله ما للشيطان عليه من سبيل ؛ وإن لابني شأناً ، أفلا أخبرك خبره ؟ قلت : بلى ، قالت : رأيت حين حملتُ به أنه خرجَ مني نورٌ أضاءت له قصورُ بُصْرَى من [3] الشام ، ثم حملت به ، فوالله ما رأيت حَمْلاً قطّ كان أخفّ ولا أيسرَ منه ، ثم وقع حين ولدته وإنه لواضعٌ يديه بالأرض ، ورافع رأسه إلى السماء ، دعيه عنك وانطلقي راشدة [4] .

قال : وروى الطبري في " تاريخه " عن شدّاد بن أوس ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يحدّث عن نفسه ؛ ويذكر ما جرى له وهو طِفْلٌ في أرض بني سعد بن بكر ، قال : لمّا وُلدت استرضِعْتُ في بني سعد ، فبينا أنا ذات يوم منتبذ من

---

(١) يسوطانه ، قال أبو ذرّ الخشني : يقال : « سطت اللبن والدم وغيرهما أسوطه ، إذا ضربت بعضه ببعض وحركته ، واسم العود الذي يضرب به المسوط » .

(٢) ممتقعاً : متغيراً ، وفي ابن هشام : « منتقعاً » ، وهما سواء .

(٣) قال السهيلي : « ذلك ما فتح الله عليه من تلك البلاد ، حتى كانت الخلافة فيها مدة بني أمية ، واستضاءت تلك البلاد وغيرها بنوره صلى الله عليه وسلم » .

(٤) سيرة ابن هشام ١ : ١٧٣ — ١٧٧ (نشرة المكتبة التجارية) .

أهلى فى بطن وادٍ مع أترابٍ لى من الصبيان ، نتقاذف بالجُلّة ، إذ أتانى رهط ثلاثة ، معهم طَسْت من ذهب مملوءة ثلجا ، فأخذونى من بين أصحابى ، فخرج أصحابى هُرّابا حتى انتهوا إلى شفير الوادى ، ثم عادوا إلى الرّهط ، فقالوا : ما أرَبُكم إلى هــذا الغلام ، فإنه ليس منّا ! هذا ابن سيّد قريش ، وهو مسترضَع فينا ؛ غلام يتيم ليس له أب ، فماذا يردُّ عليكم قتلُه ، وماذا تصيبون من ذلك ! ولكن إن كنتم لابدّ قاتليه ، فاختاروا منّا أيّنا شِئتم فاقتلوه مكانه ، ودَعُوا هذا الغلام ، فإنه يتيم .

فلمّا رأى الصّبيان أنّ القوم لا يُحِيرون لهم جوابا ، انطلقوا هُرّابا مسرعين إلى الحىّ يؤذنونهم ويستصرخونهم على القَوْم ، فعَمَد أحدهم ، فأضجعنى إضجاعا لطيفا ، ثم شقّ مابين مفرِق صدرى إلى منتهى عانتى ، وأنا أنظر إليه فلم أجد لذلك حِسًّا ، ثم أخرج بطنى فغسلها بذلك الثّلج فأنعم غسلها ، ثم أعادها مكانها ، ثم قام الثانى منهم ، فقال لصاحبه : تنحّ ، فنحّاه عنّى ، ثم أدخل يده فى جوفى ، وأخرج قلبى ، وأنا أنظر إليه ، فصدّعه ثم أخرج منه مُضْغة سوداء فرماها ، ثم قال بيده : يمنةً [1] منه وكأنه [2] يتناول شيئا ، فإذا فى يده خاتم من نور ، تحارُ أبصار الناظرين دونه ، فختم به قلبى ، ثم أعاده مكانه فوجدتُ بَرْدَ ذلك الخاتم فى قلبى دهراً ، ثم قال الثالث لصاحبه : تنحّ عنه ، فأمرّ يدَه مابين مفرق صــدرى إلى منتهى عانتى ، فالتأم ذلك الشقّ ، ثم أخذ بيدى فأنهضنى من مكانى إنهاضاً لطيفاً ، وقال للأوّل الّذى شقّ بطنى : زِنْه بعشَرة من أمّته ، فوزنونى بهم فرجحتهم ، فقال : دعوه ، فلو وزنتموه بأمّته كلّها لرجحهم ، ثم ضمّونى إلى صدرهم ، وقبّلوا رأسى ومابين عينىّ ، وقالوا : ياحبيبَ الله ، لا ترُعْ ، إنك لو تدرى ما يُراد بك من الخير لقرّت عيناك ! فبينا أنا كذلك إذا أنا بالحىّ قد جاءوا بحذافيرهم ، وإذا أمّى — وهى

---

(١) فى الأصول : « نمه » تصحيف . (٢) الطبرى : « وكأنه » .

ظئرى — أمام الحىّ تهتف بأعلى صوتها ، وتقول : ياضعيفاه ! فانكبّ علىّ أولئك الرّهط فقبّلوا رأسى وما بين عينىّ ، وقالوا : حبّذا أنت من ضعيف ! ثم قالت ظئرى : ياوحيداه ! فانكبّوا علىّ ، وضمّونى إلى صدورهم ، وقبّلوا رأسى وما بين عينىّ ، ثم قالوا : حبّذا أنتَ من وحيد ! وما أنت بوحيد ! إنّ الله وملائكته معك والمؤمنين من أهل الأرض ، ثم قالت ظئرى : يايتيماه ! استضعِفتَ من بين أصحابك ، فقُتِلتَ لضعفك ، فانكبوا علىّ وضمّونى إلى صُدورهم ، وقبّلوا رأسى وما بين عينىّ ، وقالوا : حبّذا أنت من يتيم ! ما أكرمك على الله لو تعلَمُ مايراد بك من الخير ! قال : فوصَل الحىّ إلى شفير الوادى ، فلمّا بَصُرَتْ بى أمى — وهى ظئرى — نادتْ : يابنىّ ، ألا أراك حيًّا بعد ! فجاءت حتى انكبّت علىّ ، وضمّتنى إلى صدرها ، فوالّذى نفسى بيده ، إنّى لفى حجرها قد ضمّتنى إليها ، وإنّ يدى لفى يد بعضهم ، فجعلت ألتفت إليهم ، وظننت أنّ القوم يبصرونهم ، فإذا هم لايبصرونهم ، فيقول بعض القوم : إنّ هذا الغلام قد أصابه لَمَمٌ أو طائف من الجنّ ، فانطلقوا به إلى كاهن بنى فلان ، حتى ينظر إليه ويداويه ، فقلت : مابى شىء مما يذكرون ، نفسى سليمة ، وإن فؤادى صحيحٌ ؛ ليست بى قَلَبة[1] . فقال أبى — وهو زوج ظئرى : ألا ترون كلامَه صحيحًا ! إنى لأرجو ألّا يكونَ على ابنى بأس .

فاتفق القوم على أن يذهبُوا إلى الكاهن بى ، فاحتملونى حتى ذهبوا بى إليه ، فقصّوا عليه قصّتى ، فقال : اسكتوا حتى أسمع من الغلام ، فهو أعلمُ بأمره منكم ، فسألنى فقصصتُ عليه أمرى ، وأنا يومئذ ابن خمس سنين ، فلمّا سمع قولى وثب وقال : ياللعرب ! اقتُلوا هذا الغلام فهو واللّات والعُزّى لئن عاش ليبدّلنّ دينكم ، وليخالِفنّ أمرَكم ، وليأتينّكم بما لم تسمعوا به قطّ ، فانتزعتنى ظئرى من حجره ، وقالت : لو علمت أنّ هذا يكون من قولك ماأتيتُك به ،

(١) ليس بى قلبة ، أى ليس به شىء ، وأصله من تقلب ، وهو داء يأخذ الإبل فى رءوسها ، فيقلبها إلى فوق ، قال فى اللسان : « ولا يستعمل إلا فى النفى » .

ثم احتملوني فأصبحتُ وقد صار في جَسَدِي أثر الشقّ ، مابين صدري إلى منتهى عانتي كأنه الشِّراك [1] .

ورُوِي أنّ بعض أصحاب أبي جعفر محمد بن عليّ الباقر عليه السلام سأله عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ [2] . فقال عليه السلام : يوكّل الله تعالى بأنبيائه ملائكةً يُحصُون أعمالهم ، ويؤدّون إليه تبليغهم الرسالة ، ووكّل بمحمّد صلّى الله عليه وآله مَلَكاً عظيماً منذ فُصِل عن الرضاع يُرشِده إلى الخيرات ومكارم الأخلاق ، ويصدّه عن الشرّ ومساوئ الأخلاق ، وهو الذي كان يناديه : السّلام عليك يامحمّد يارسول الله وهو شابٌّ لم يبلغ درجة الرسالة بعد ، فيظنّ أنّ ذلك من الحجر والأرض ، فيتأمّل فلا يرى شيئاً .

وروى الطبريّ في " التاريخ " عن محمّد بن الحنفيّة ، عن أبيه عليّ عليه السلام ، قال : سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : ماهممت بشيء ممّا كان أهل الجاهليّة يعملون به غير مرّتين ، كلّ ذلك يحولُ الله تعالى بيني و بين ماأريد من ذلك ، ثمّ ماهممت بسوء حتى أكرمني الله برسالته ، قلت ليلةً لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكّة : لو أبصرتَ لي غنمي حتى أدخل مكّة فأسمُرَ بها كما يسمرُ الشّباب ، فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا جئت أوّل دارٍ من دُور مكّة ، سمعت عزفاً بالدُّفّ [3] والمزامير ، فقلت : ماهذا؟ قالوا : هذا فلان تزوّج ابنة فلان ، فجلست أنظر إليهم ، فضرب الله على أذني فنِمت ، فما أيقظني إلّا مَسُّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : مافعلت ؟ فقلت : ماصنعتُ شيئاً ، ثم أخبرته الخبرَ ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، فقال : أفعل ، فخرجت فسمعت حين دخلت مكّة مثلَ ماسمعت حين دخلتُها تلك الليلة ، فجلست أنظر ، فضرب الله على

(١) الخبر بتفصيل أوفى في الطبري : ٢ : ١٦١ — ١٦٥ (طبع المعارف) .
(٢) سورة الجن ٢٧ . (٣) الطبري : « بالدفوف » .

أذنى ، فما أيقظنى إلا مسُّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبى ، فأخبرته الخبر ، ثم ماهممتُ بعدها بسوء ، حتى أكرمنى الله برسالته [١] .

وروى محمد بن حبيب فى " أماليه " قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : أذكر وأنا غلام ابن سبع سنين ، وقد بنى ابن جُدْعان داراً له بمكة ، فجئت مع الغلمان نأخذ التراب والمدرَ فى حُجورنا فننقله ، فملأت حِجْرى تُرابا فانكشفت عورتِى ، فسمعت نداء من فوق رأسى : يامحمد ، أرْخِ إزارك ، فجعلت أرفع رأسى فلا أرى شيئاً ، إلّا أنى أسمع الصوت ، فتماسكت ولم أرْخِه ، فكأنّ إنساناً ضربنى على ظهرى ، فخررت لوجهى ، وانحلّ إزارى فسترنى ، وسقط التراب إلى الأرض ، فقمت إلى دار أبى طالب عمّى ولم أعد .

* * *

وأما حديثُ مجاورته عليه الصلاة والسلام حِراء فمشهور ، وقد ورد فى الكتب الصحاح أنه كان يجاور فى حِراء من كلّ سنة شهرا ، وكان يُطعِم فى ذلك الشهر مَنْ جاءه من المساكين ، فإذا قضى جواره من حِراء ، كان أوّل مايبدأ به إذا انصرف أن يأتىَ باب الكعبة قبل أن يدخُلَ بيته ، فيطوفَ بها سبعاً ، أو ماشاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته ، حتى جاءت السّنَة التى أكرمه الله فيها بالرسالة ، فجاور فى حِراء شهر رمضان ، ومعه أهلُه : خديجة وعلى بن أبى طالب وخادم لهم ، فجاءه جبريل بالرسالة ، وقال عليه الصلاة والسلام : جاءنى وأنا نائم بنَمَط فيه كتاب ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أقرأ ، فغتّنى [٢] حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٢٧٩ (المعارف) .

(٢) غتنى ، قال ابن الأثير : « الغت والغط سواء ، كأنه أراد : عصرنى عصرا شديدا حتى وجدت منه المشقة كما يجد من يغمس فى الماء قهرا » . النهاية ٣ : ١٤٩ .

مالَمْ يَعْلَمْ ﴾[١] . فقرأته ، ثم انصرف عنّى فانتبهت من نومى ، وكأنما كتب فى قلبى كتاب ، وذكر تمام الحديث .

***

وأما حديث أنّ الإسلام لم يجتمع عليه بيت واحدٌ يومئذ إلا النبى وهو - عليهما السلام - وخديجة ، فخبر عفيف الكندىّ مشهور ، وقد ذكرناه من قبل ، وأنّ أبا طالب قال له : أتدرِى من هذا ؟ قال : لا قال : هذا ابنُ أخى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؛ وهذا ابنى علىّ بن أبى طالب ، وهذه المرأة خلفهما خديجة بنت خويلد ؛ زوجة محمد ابن أخى ، وايمُ الله ما أعلم على الأرض كلّها أحداً على هذا الدّين غير هؤلاء الثلاثة .

وأمّا رنّة الشيطان ، فروى أبو عبد الله أحمد بن حنبل فى مُسنده ، عن على بن أبى طالب عليه السلام ، قال : كنتُ مع رسول الله صلى الله عليه وآله صبيحةَ الليلة التى أسرِىَ به فيها ، وهو بالحجر يصلّى ، فلما قضى صلاته ، وقضيتُ صلاتى ، سمعت رنّةً شديدةً ، فقلت : يارسول الله ، ماهذه الرّنة ؟ قال : ألا تعلم ! هذه رنّة الشيطان ، علم أنّى أسرِى بى الليلة إلى السماء ، فأيس من أن يُعبد فى هذه الأرض .

وقد رُوِى عن النبى صلى الله عليه وآله مايشابه هذا ، لما بايعه الأنصار السّبعون ليلة العقبة سمع من العقبة صوتٌ عال فى جوف الليل : يا أهلَ مكّة ، هذا مذمّم والصباة معه قد أجمعوا على حربكم ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله للأنصار : ألا تسمعون مايقول ! هذا أزَبُّ العقبة - يعنى شيطانها ، وقد روى : « أزبب العقبة » . ثم التفت إليه ، فقال[٢] : استمع ياعدوّ الله ، أما والله لأفرغنّ لك .

---

(١) سورة اقرأ : ٥ .

(٢) فى اللسان : « كانت العرب تسمى النبى صلى الله عليه وسلم الصابئ لأنه خرج من دين قريش إلى الإسلام ، ويسمون من دخل فى دين الإسلام مصبوًّا ؛ لأنهم كانوا لا يهمزون ، فأبدلوا من الهمزة واواً ، ويسمون المسلمين الصباة بغير همز ، كأنه جمع الصابى » .

وروى عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، قال : كان عليٌّ عليه السلام يرى مع رسول الله صلّى الله عليه وآله قبلَ الرسالة الضَّوْء ويسمع الصوت ، وقال له صلى الله عليه وآله : « لولا أنّى خاتم الأنبياء لكنتَ شريكا فى النبوة ، فإن لا تكن نبيًّا فإنك وصىّ نبىّ ووارثه ، بل أنت سيّد الأوصياء وإمام الأتقياء » .

وأما خبر الوزارة ، فقد ذكره الطبرى فى تاريخه ، عن عبد الله بن عباس عن علىّ ابن أبى طالب عليه السلام ، قال لما أنزلت هذه الآية : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1] ؛ دعانى رسول الله صلّى الله عليه وآله دعانى ، فقال . ياعلىّ ، إنّ الله أمرنى أن أنذر عشيرتك الأقربين ، فضقت بذلك ذرعا ، وعلمت أنّى متى أنادهم بهذا الأمر أرَ منهم ما أكره ، فصمتُّ حتى جاءنى جبريل عليه السلام ، فقال : يامحمد ، إنّك إن لم تفعل ماأمِرتَ به يعذّبك ربُّك ؛ فاصنع لنا صاعا من طعام ، واجعل عليه رِجْلَ شاة ، واملأ لنا عُسًّا من لَبَن ، ثم اجمع لى بنى عبد المطلب حتى أكلّمهم ، وأبلّغهم ما أمرت به . ففعلت ما أمرنى به ، ثم دعوتهم وهم يومئذ أربعون رجلا ، يزيدون رجلاً أو ينقصونه ، وفيهم أعمامه : أبو طالب ، وحمزة ، والعباس ، وأبو لهب ؛ فلمّا اجتمعوا إليه دعا بالطّعام الذى صنعت لهم ، فجئت به ، فلمّا وضعتُه تناول رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بَضْعَةً[2] من اللحم فشقّها بأسنانه ، ثم ألقاها فى نَواحى الصَّحْفة ، ثم قال : كلُوا باسم الله ، فأكلوا حتّى مالهم إلى شىء من حاجة ، وايمُ الله الّذى نفس علىّ بيده ، إن كان الرّجُل الواحد منهم ليأكل ماقدّمته لجميعهم ، ثم قال : اسقِ القومَ ياعلىّ ، فجئتهم بذلك العُسّ فشربوا منه ، حتى رووا جميعا ، وايمُ الله إنْ كان الرجل منهم ليشرب مثله ، فلمّا أراد رسولُ الله صلّى الله عليه وآله أن يكلّمهم بدره أبو لهب إلى الكلام ، فقال : لَشَدَّ ماسحرَكم صاحبُكم ! فتفرّق القومُ ، ولم يكلّمهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال من الغد : ياعلىّ ، إنّ هذا الرّجل قدسبقنى

(١) سورة الشعراء ٢١٤ .
(٢) البضعة بالفتح ، وقد تكسر : القطعة من اللحم

إلى ماسمعت من القول ، خفرق القوم قبل أن أكلمهم ، فعدلنا اليوم إلى مثل ماصنعت بالأمس ، ثم اجمعهم لى . ففعلت ثم جمعتهم ، ثم دعانى بالطعام ، فقربته لهم ، ففعل كما فعل بالأمس ، فأكلوا حتى مالهم بشىء حاجة ، ثم قال : اسقهم ، فجئتهم بذلك العُسّ ، فشربوا منه جميعا ، حتى رووا ، ثم تكلم رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يابنى عبدِ المطلب ، إنى والله ماأعلمُ أنّ شابًا فى العرب جاء قومه بأفضل مِمّا جئتكم به ، إنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى الله أن أدعوكم إليه ، فأيّكم يوازرنى على هذا الأمر ، عَلَى أن يكون أخى ووصيّى وخليفتى فيكم؟ فأحجم القوم عنها جميعا ، وقلت أنا[1] — وإنى لأحدثهم سِنًا وأرمصُهم[2] عينا ، وأعظمهم بطنا ، وأحمشُهم[3] ساقا : أنا يارسول الله أكونُ وزيرك عليه ، فأعاد القول ، فأمسكوا وأعدتُ ماقلت ، فأخذ برقبتى ، ثم قال لهم : هذا أخى ووصيّى وخليفتى فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فقام القوم يضحكون ، ويقولون لأبى طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع[4] .

ويدلّ على أنه وزيرُ رسول الله صلى الله عليه وآله من نصّ الكتاب والسنة قول الله تعالى : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾[5] . وقال النبى صلى الله عليه وآله فى الخبر المجمع عَلَى روايته بين سائرِ فرق الإسلام : « أنت منّى بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبىّ بعدى » ؛ فأثبت له جميع مراتب هارون عن موسى ، فإذن هو وزير رسول الله صلى الله عليه وآله ، وشادّ أزره ، ولولا أنه خاتم النبيين لكان شريكا فى أمره .

---

(١) ساقطة من التاريخ .

(٢) الرمص فى العين : كالغمص ، وهو قذى تلفظ به ؛ كناية عن صغر سنه .

(٣) حمش الساقين : دقيقهما .

(٤) تاريخ الطبرى ٢ : ٣١٩ — ٣٢١ (المعارف) ، وتفسير الطبرى ١٩ : ٧٤ ، ٧٥ (بولاق) ، بتصرف أولى .

(٥) سورة طه ٢٩ — ٣١ .

وروى أبو جعفر الطبري أيضا في " التاريخ " : أنّ رجلا قال لعليّ عليه السلام : يا أمير المؤمنين ، بم ورثت ابن عمك دون عمك ؟ فقال عليّ عليه السلام : هاؤم ثلاث مرات ، حتى اشرأبّ الناس ، ونشروا آذانهم ، ثم قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وآله بني عبد المطلب بمكة ، وهم رهطه [1] كلهم ، يأكل الجذعة ، ويشرب الفرق [2] ، فصنع مُدًّا من طعام ، حتى أكلوا وشبعوا وبقي الطعام كما هو ، كأنه لم يمسّ ، ثم دعا بغُمَر [3] ، فشربوا ورَوُوا ؛ وبقي الشراب كأنه لم يشرب ، ثم قال : يابني عبد المطلب ، إني بعثت إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة ، فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ، ووارثي ؟ فلم يقم إليه أحد ، فقمت إليه ، وكنت من أصغر القوم ، فقال : اجلس ، ثم قال : ذلك ثلاث مرات ، كلّ ذلك أقوم إليه ، فيقول : اجلس ! حتى كان في الثالثة ، فضرب بيده على يدي ، فعند ذلك ورثت ابن عمي دون عمي [4] .

* * *

الأصل :

وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ لَمَّا أَتَاهُ الْمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَقَالُوا لَهُ : يا مُحَمَّدُ ، إِنَّكَ قَدِ ادَّعَيْتَ عَظِيماً لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْتَنَاهُ ، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ .

فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : وَمَا تَسْأَلُونَ ؟ قَالُوا : تَدْعُو لَنَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ ؛ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا ، وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ . فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ

---

(١) في الأصول : « رهط » ، وأثبت ما في الطبري .

(٢) الفرق ، بكسر الفاء ، وبعضهم يقول بالفتح : مكيال كبير لأهل المدينة يكال به اللبن .

(٣) الغمر : القدح الصغير .

(٤) تاريخ الطبري ٢ : ٣٢١ ، ٣٢٢

شيء قدير ؛ فإن فعل الله لكم ذلك ، أتؤمنون وتشهدون بالحق ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني سأريكم ما تطلبون ، وإني لأعلم أنكم لا تفيئون إلى خير ، وإن فيكم من يطرح في القليب ، ومن يحزب الأحزاب . ثم قال صلى الله عليه وآله : يا أيتها الشجرة ، إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر ، وتعلمين أني رسول الله ، فانقلعي بعروقك حتى تقفي بين يدي بإذن الله ؛ والذي بعثه بالحق لانقلعت بعروقها ، وجاءت ولها دوي شديد ، وقصف كقصف أجنحة الطير ؛ حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله مرفرفة ؛ وألقت بغصنها الأعلى على رسول الله صلى الله عليه وآله وببعض أغصانها على منكبي ؛ وكنت عن يمينه صلى الله عليه وآله ، فلما نظر القوم إلى ذلك ، قالوا علوا واستكبارا : فمرها فليأتك نصفها ويبقى نصفها ، فأمرها فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال وأشده دويا ، فكادت تلتف برسول الله صلى الله عليه وآله ، فقالوا كفرا وعتوا : فمر هذا النصف فليرجع إلى نصفه ، كما كان ، فأمره صلى الله عليه وآله فرجع ، فقلت أنا : لا إله إلا الله ؛ إني أول مؤمن بك يا رسول الله ، وأول من أقر بأن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى تصديقا بنبوتك ؛ وإجلالا لكلمتك . فقال القوم كلهم : بل ساحر كذاب ، عجيب السحر خفيف فيه ! وهل يصدقك في أمرك إلا مثل هذا ! يعنونني — وإني لمن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم ؛ سيماهم سيما الصديقين ، وكلامهم كلام الأبرار ؛ عمار الليل ، ومنار النهار ، متمسكون بحبل القرآن ، يحيون سنن الله وسنن رسوله ، لا يستكبرون ولا يعلون ؛ ولا يغلون ولا يفسدون ، قلوبهم في الجنان ، وأجسادهم في العمل .

* * *

الشَّرْحُ :

الملأ الجماعة . ولا تفيئون : لا ترجعون . ومن يُطْرح فى القَليب ، كعُتْبة وشَيْبة ابنى ربيعة بن عبد شمس وعمرو بن هشام بن المغيرة ، المكنّى أبا جهل وغيرهم ، طُرحوا فى قَليب بدر بعد انقضاء الحرب ، ومن يحزّب الأحزاب ، أبو سفيان صخر بن حرب بن أميّة .

والقَصْف والقصيف : الصوت . وسيماهم : علامتهم ، ومثله « سيمياء » .

ومعنى قوله عليه السلام : « قلوبهم فى الجنان ، وأجسادهم فى العمل » ، أنّ قلوبهم ملتذّة بمعرفة الله تعالى وأجسادهم نصبة بالعبادة .

وأمّا أمرُ الشجرة التى دعاها رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فالحديث الوارد فيها كثيرٌ مستفيض ، قد ذكره المحدّثون فى كتبهم ، وذكره المتكلّمون فى معجزات الرسول صلى الله عليه وآله ، والأكثرون رووا الخبر فيها على الوضع الذى جاء فى خطبة أمير المؤمنين ، ومنهم من يروى ذلك مختصرا أنه دعا شجرة فأقبلت تخدّ إليه الأرض خدًّا .

وقد ذكر البيهقى فى كتاب " دلائل النبوة " حديث الشجرة ، ورواه أيضا محمد بن إسحاق بن يسار فى كتاب السيرة والمغازى على وجه آخر ، قال محمد بن إسحاق : كان رُكانة[1] بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف أشدّ قريش كلّها ، فخلا يوما رسول الله صلى الله عليه وآله فى بعض شعاب مكة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : يارُكانة ، ألا تتقى الله ، وتقبل ما أدعوك إليه ؟ قال : لو أعلم أنّ الذى تقول حقٌّ لاتبعتك ، قال : أفرأيت إن صرعتُك؛ أتعلم أنّ ما أقول لك حقّ ؟ قال : نعم ،قال: فقم حتى أصارعك ، فقام رُكانة ، فلمّا بطش به رسولُ الله صلى الله عليه وآله أضجعه لا يملك مِنْ نفسه شيئاً ، فقال: عُدْ يا محمد ، فعادَ فصرعه ، فقال : يا محمد ، إن هذا لعجبٌ حين[2] تصرعُنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : وأعجب من ذلك إن شئت أريتُكَه ، إن اتقيتَ الله ، واتبعت أمرى ،

---

(١) كذا ضبطه صاحب الاشتقاق ٧٨ ، بضم الراء .

(٢) ب : « حق » ، تصحيف ، وفى ابن هشام : « أتصرعنى » .

قال : ماهو ؟ قال : أدعو لك هذه الشجرة التى تراها ، فتأتى ، قال : فادْعُها ؛ فدعاها ، فأقبلت حتى وقفت بين يدىْ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال : ارجعى إلى مكانك ، فرجعتْ إلى مكانها ، فرجع رُكانة إلى قومه ، وقال : يابنى عبد مناف ، ساحِروا [1] بصاحبكم أهلَ الأرض ! فما رأيت أسحَرَ منه قطّ ، ثم أخبرهم بالذى رأى ، والذى صنع [2] .

* * *

[القول فى إسلام أبى بكر وعلىّ وخصائص كلٍّ منهما]

وينبغى أن نذكر فى هذا الموضع ملخَّص ماذكره الشيخ أبو عثمان الجاحظ فى كتابه المعروف بكتاب « العثمانيّة » فى تفضيل إسلام أبى بكر على إسلام على عليه السلام ، لأنّ هذا الموضع يقتضيه ، لقوله عليه السلام حكاية عن قريش لما صدق رسول الله صلى الله عليه وآله : وهل يصدقك فى أمرك إلّا مثل هذا ! لأنهم استصغروا سنه ؛ فاستحقروا أمر محمد رسول الله صلّى الله عليه وآله حيث لم يصدّقه فى دعواه إلا غلام صغير السنّ ، وشُبهة العثمانيّة التى قررها الجاحظ من هذه الشُّبْهة نشأت ، ومن هذه الكلمة تفرّعت ، لأن خلاصتها أن أبا بكر أسلم وهو ابن أربعين سنة ، وعلىّ أسلم ولم يبلغ الحُلم ، فكان إسلام أبى بكر أفضل .

ثم نذكر ما اعترض به شيخنا أبو جعفر الإسكافى على الجاحظ فى كتابه المعروف بـ « نقض العثمانية » ؛ ويتشعّب الكلام بينهما حتى يخرج عن البحث فى الإسلامَيْن إلى البحث فى أفضليّة الرّجُلين وخصائصهما ؛ فإنّ ذلك لا يخلو عن فائدة جليلة ، ونكتة

---

(١) ساحروا : أى غالبوهم بالسحر .
(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٤١٨ (نشرة المكتبة التجارية) .

لطيفة ، لا يليق أن يخلو كتابنا هذا منها ؛ ولأنّ كلامهما بالرسائل والخطابة أشبه ، وفى الكتابة أقصد وأدخل ، وكتابنا هذا موضوع لذكر ذلك وأمثاله .

قال أبو عثمان : قالت العثمانية : أفضل الأمّة وأولاها بالإمامة أبو بكر بن أبى قُحافة عليه ما عليه لإسلامه على الوجه الذى لم يسلم عليه أحد فى عصره؛وذلك أنّ النّاس اختلفوا فى أوّل الناس إسلاما ، فقال قوم : أبو بكر ، وقال قوم : زيد بن حارثة ، وقال قوم : خبّاب بن الأرتّ .

وإذا تفقدنا أخبارهم ، وأحصينا أحاديثهم ، وعددنا رجالهم ، ونظرنا فى صحّة أسانيدهم ، كان الخبر فى تقدّم إسلام أبى بكر أعمّ ورجاله أكثر ، وأسانيده أصحّ ، وهو بذلك أشهر ، واللفظ فيه أظهر ، مع الأشعار الصحيحة ، والأخبار المستفيضة فى حياة رسول الله صلّى الله عليه وآله وبعد وفاته ، وليس بين الأشعار والأخبار فرق إذا امتنع فى مجيئها ، وأصل مخرجها التباعد والاتّفاق والتواطؤ ، ولكن ندع هذا المذهب جانبا ، ونضرب عنه صفحا ، اقتدارا على الحجّة ، ووثوقا بالفلج والقوّة ، ونقتصر على أدنى منازل أبى بكر ، وننزل على حكم الخصم ؛ فنقول : إنا وجدنا مَنْ يزعم أنه أسلم قبل زيد وخبّاب ، ووجدنا من يزعُم أنهما أسلما قبله ، وأوسط الأمور أعدلُها ، وأقربها من محبّة الجميع ، ورضا المخالف؛ أن نجعل إسلامهم كان معا ، إذ الأخبار متكافئة ،والآثار متساوية على ما تزعمون ، وليستْ إحدى القصيتين أولى فى صحّة النقل من الأخرى ؛ ثم نستدلّ على إمامة أبى بكر بما ورد فيه من الحديث ؛ وبما أبانه به الرّسول صلّى الله عليه وآله من غيره .

قالوا : فممّا روِىَ من تقدّم إسلامه ماحدّث به أبو داود وابن مهدىّ عن شعبة ، وابن عيينة ، عن الجريرىّ ، عن أبى هريرة ، قال : أبو بكر : أنا أحقّكم بهذا الأمر ـ يعنى الخلافة ـ ألستُ أوّلَ مَنْ صلّى !

روى عباد بن صُهَيب ، عن يحيى بن عمير ، عن محمد بن المنكدر ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « إن الله بعثني بالهدى ودين الحقّ إلى الناس كافة ، فقالوا : كذبت ، وقال أبو بكر صدقت » .

وروى يعلَى بن عُبَيد ، قال : جاء رجل إلى ابن عبّاس ، فسأله : مَنْ كان أوّل الناس إسلاما ؟ فقال : أما سمعت قول حسان بن ثابت !

إذا تذكّرتَ شجواً من أخي ثقةٍ فاذكُر أخاك أبا بكرٍ بما فَعلا[1]

الثانيَ التاليَ المحمودَ مشهدُه وأوّلَ الناس منهم صدّق الرسلا[2]

وقال أبو محجَن :

سبقتَ إلى الإسلام والله شاهدٌ وكنتَ حبيبا بالعريش المشهّرِ[3]

وقال كعب بن مالك :

سبقتَ أخا تَيْمٍ إلى دين أحمدٍ وكنتَ لدى الغيرانِ في الكهف صاحبا[4]

وروى ابنُ أبي شَيْبة ، عن عبد الله بن إدريس ووكيع ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرّة ، قال : قال النخعيّ : أبو بكر أوّلُ مَنْ أسلم .

وروى هيثم عن يعلَى بن عطاء ، عن عمرو بن عبسة ، قال : أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وآله وهو بعكاظ ، فقلت : مَنْ تابعك على هذا الأمر ؟ فقال : بايعني حرٌّ وعبدٌ ، فلقد رأيتني يومئذ وأنا رابعُ الإسلام .

---

(١) ديوانه ٢٩٩ ، والصابة ١١١ (٢) بعده في الديوان والشابة :

وثانيَ اثنينِ في الغار المنيف وقدْ طافَ العداةُ به إذْ صعّد الجبلا

خيرَ البريّةِ أتقاها وأطهرها إلا النبيَّ وأوفاها بما حملا

(٣) في الأصول : « المشهرا » ، وأثبت ما في تشبيه ، من أبيات ثلاثة أوردها على قافية الراء المكسورة .

(٤) الصابة ١١١

قال بعض أصحاب الحديث : يعني بالحرّ أبا بكر وبالعبد بلالا .

وروى الليث بن سعد ، عن معاوية بن صالح ، عن سليم بن عامر ، عن أبي أمامة ، قال : حدثني عمرو بن عَبَسة ، أنه سأل النبيّ صلّى الله عليه وآله وهو بعكاظ ، فقال له : مَنْ تبِعك ؟ قال : تبِعني حرٌّ وعبد : أبو بكر وبلال .

وروى عمرو بن إبراهيم الهاشميّ ، عن عبد الملك بن عُمَير ، عن أسيد بن صفوان ، صاحب النبيّ صلّى الله عليه وآله قال : لما قُبض أبو بكر جاء عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقال : رحمك الله أبا بكر ! كنتَ أوّلَ الناس إسلاما .

وروى عبّاد ، عن الحسن بن دينار ، عن بشر بن أبي زينب ، عن عِكرمة مولى ابن عبّاس ، قال : إذا لقيت الهاشميّين قالوا : عليّ بن أبي طالب أوّل مَنْ أسلمَ ؛ وإذا لقيت الذين يعلمون ، قالوا : أبو بكر أوّل مَنْ أسلم .

* * *

قال أبو عثمان الجاحظ : قالت العثمانية : فإن قال قائل : فما بالكم لم تذكروا عليّ بن أبي طالب في هذه الطبقة ، وقد تعلمون كثرة مقدّميه والرواية فيه ؟

قلنا : قد علمنا الرواية الصحيحة ، والشهادة القائمة ؛ أنه أسلم وهو حدَثٌ غرير ، وطفل صغير ، فلم نكذّب الناقلين ، ولم نستطع أن نلحق إسلامه بإسلام البالغين ، لأنّ المقلّل زعم أنه أسلم ، وهو ابن خمس سنين ، والمكثر زعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين ، فالقياسُ أنْ يؤخذ بالأوسط بين الروايتين ، وبالأمر بين الأمرين ، وإنما يُعرَفُ حقّ ذلك من باطله ، بأن نحصي سنيه التي ولي فيها الخلافة ، وسني عمر ، وسني عثمان ، وسني أبي بكر ، ومقام النبي صلى الله عليه وآله بالمدينة ، ومقامه بمكة عند إظهار الدعوة ، فإذا فعلنا ذلك صحّ أنه أسلم وهو ابن سبع سنين ، فالتاريخ المجمع عليه أنه قُتل عليه السلام في شهر رمضان سنة أربعين .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر الإسكافي[1] : لولا ماغلبَ على النّاس من الجهل وحبّ التقليد ، لم نحتجْ إلى نقض مااحتجّت به العثمانية ، فقد علم النّاس كافّةً ؛ أنّ الدولة والسلطان لأرباب مقالتهم ، وعرف كلّ أحدٍ علوّ أقدار شيوخهم وعلمائهم وأمرائهم ، وظهور كلمتهم ، وقهر سلطانهم وارتفاع التقيّة عنهم والكرامة ، والجائزة لمنْ روى الأخبار والأحاديث في فضل أبي بكر ، وما كان من تأكيد بني أمية لذلك ، وما ولّده المحدّثون من الأحاديث طلبا لما في أيديهم ، فكانوا لا يألونَ جهداً في طول ماملكوا أن يُخمِلوا ذكرَ عليّ عليه السلام وولده ، ويطفئوا نورهم ، ويكتموا فضائلهم ومناقبهم وسوابقهم ، ويحملوا على شتمهم وسبّهم ولعنهم على المنابر ؛ فلم يزل السيف يقطرُ من دمائهم ، مع قلّة عددهم وكثرة عدوّهم ، فكانوا بين قتيلٍ وأسير ، وشريدٍ وهاربٍ ، ومستخفٍ ذليل ، وخائف مترقب ، حتى إنّ الفقيه والمحدّث والقاضي والمتكلّم ، ليتقدّم إليه ويتوعد بغاية الإيعاد وأشدّ العقوبة ، أن لا يذكروا شيئاً من فضائلهم ، ولا يرخّصوا لأحدٍ أن يُطيف بهم ، وحتى بلغ من تقيّة المحدّث أنّه إذا ذكر حديثا عن علي عليه السلام كنّى عن ذكره ، فقال : قال رجلٌ من قريش ، وفعل رجل من قريش ، ولا يذكر عليا عليه السلام ، ولا يتفوّه باسمه .

ثم رأينا جميعَ المختلفين قد حاولوا نقضَ فضائله ، ووجّهوا الحِيَل والتأويلات نحوها ، من خارجيّ مارق ، وناصب حَنِق ، وثابت مستبهم ، وناشئ معاند ، ومنافق مكذّب ، وعثمانيّ حسود ، يعترض فيها ويطعن ، ومعتزلي قد نقض في الكلام ، وأبصر علم الاختلاف ،

---

(١) هو محمد بن عبد الله أبو جعفر المعروف بالإسكافي ، ذكره الخطيب في تاريخ بغداد « ٥ : ٤١٦ » وقال عنه : « أحد المتكلمين من معتزلة البغداديين ، وله تصانيف معروفة . . . وبلغني أنه مات في سنة أربعين ومائتين » .

وعرف الشُّبه ومواضع الطّعن وضروب التأويل ، قد التمس الحِيلَ فى إبطال مناقبه وتأوّل مشهور فضائله ، فمرّة يتأوّلها بما لا يحتمل ، ومرّة يقصد أن يضع مِنْ قدرها بقياس منتقض ، ولا يزداد مع ذلك إلّا قوّة ورفعة ، ووضوحا واستنارة ؛ وقد علمت أنّ معاوية ويزيد ومَنْ كان بعدهما من بنى مرْوان أيام ملكهم ـ وذلك نحو ثمانين سنة ـ لم يدّعُوا جهدا فى حَمْل الناس على شتمه ولعنه وإخفاء فضائله ، وستْر مناقبه وسوابقه .

روى خالد بن عبد الله الواسطىّ ، عن حصين بن عبد الرحمن ، عن هلال بن يساف ، عن عبد الله بن ظالم قال : لمّا بُويع لمعاوية أقام المغيرة بن شعبة خطباء يلعنون عليا عليه السلام ، فقال سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل : ألا ترَوْن إلى هذا الرجل الظّالم يأمر بلعْن رجلٍ من أهل الجنّة !

روى سليمان بن داود ، عن شعبة ، عن الحُرّ بن الصبّاح ، قال : سمعتُ عبد الرحمن بن الأخنس ، يقول : شهدتُ المغيرة بن شعبة خطب فذكر عليًّا عليه السلام ، فنال منه .

روى أبو كُريب ، قال : حدّثنا أبو أسامة ، قال : حدّثنا صدقة بن المثنّى النّخعىّ عن رياح بن الحارث ، قال : بينا المغيرة بن شعبة بالمسجد الأكبر ، وعنده ناس إذ جاءه رجلٌ يقال له : قيس بن علقمة ، فاستقبل المغيرة ، فسبّ عليا عليه السلام .

روى محمد بن سعيد الأصبهانىّ ، عن شريك ، عن محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن على ابن الحسين ، عن أبيه على بن الحسين عليه السلام ، قال : قال لى مرْوان : ما كان فى القوم أدفع عن صاحبنا مِن صاحبكم . قلت : فما بالكم تسبّونه على المنابر ؟ قال : إنه لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك .

روى مالك بن إسماعيل أبو غسّان النّهدىّ ، عن ابن أبى سيف ، قال : خطب مرْوان والحسن عليه السلام جالسٌ فنال من علىٍّ عليه السلام ، فقال الحسن : ويلك يامروان ! أهذا الذى تشتم شرّ الناس ! قال : لا ، ولكنّه خيرُ الناس .

وروى أبو غسّان أيضاً ، قال : قال عمرُ بن عبد العزيز : كان أبي يخطُب فلا يزال مستمرًّا في خطبته ؛ حتى إذا صار إلى ذكر عليّ وسبّه تقطّع لسانه ، واصفرّ وجهه ، وتغيّرت حاله ، فقلت له في ذلك ، فقال : أوقد فطنتَ لذلك؟ إنّ هؤلاء لو يعلمون من عليّ ما يعلمه أبوك ماتبعنا منهم رجل .

وروى أبو عثمان ، قال : حدّثنا أبو اليقظان ، قال : قام رجلٌ من ولد عثمان إلى هشام بن عبد الملك يوم عرفة ، فقال : إنّ هذا يوم كانت الخلفاء تستحبّ فيه لعنَ أبي تراب .

وروى عمرو بن القنّاد ، عن محمد بن فُضيل ، عن أشعث بن سوّار ، قال : سبّ عدى بن أرطاة عليًّا عليه السلام على المنبر فبكى الحسن البصريّ وقال: لقد سبّ هذا اليوم رجلٌ إنه لأخو رسولِ الله صلّى الله عليه وآله في الدّنيا والآخرة .

وروى عدىّ بن ثابت عن إسماعيل بن إبراهيم ، قال : كنت أنا وإبراهيم بن يزيد جالسَيْن في الجمعة مما يلى أبواب كندة ؛ فخرج المغيرة فخطب ، فحمِد الله ، ثم ذكر ما شاء أن يذكر ، ثم وقع في عليّ عليه السلام ، فضرب إبراهيم على فخذى أو ركبتى ، ثم قال : أقبلْ علىّ ؛ فحدّثنى فإنا لسنا في جمعة ، ألا تسمع ما يقول هذا !

وروى عبد الله بن عثمان الثقفىّ ، قال : حدّثنا ابنُ أبى سيف ، قال : قال ابن لعامر ابن عبد الله بن الزبير لولده : لا تذكر يا بُنىّ عليا إلا بخير ؛ فإن بنى أمية لعنوه على منابرهم ثمانين سنة ، فلم يزدْه الله بذلك إلا رفعة ، إن الدنيا لم تبنِ شيئاً قطّ إلا رجعت على ما بَنَتْ فهدمته ، وإن الدّين لم يبنِ شيئاً قطّ وهدَمه .

وروى عثمان بن سعيد ، قال : حدّثنا مطّلب بن زياد ، عن أبى بكر بن عبد الله الأصبهانىّ ، قال : كان دعىّ لبنى أمية يقال له خالد بن عبد الله ؛ لا يزال يشتُم عليا عليه

السلام ، فلما كان يوم جمعة ، وهو يخطب الناس ، قال : والله إن كان رسول الله ليستعمله، وإنه ليعلم ما هو ! ولكنه كان ختنه ، وقد نعس سعيد بن المسيّب ففتح عينيه ، ثم قال : ويحكم ! ماقال هذا الخبيث رأيت القبر انصدع ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول : كذبت ياعدوّ الله !

وروى القناد ، قال : حدّثنا أسباط بن نصر الهمدانيّ ، عن السّديّ ، قال : بينما أنا بالمدينة عند أحجار الزّيت ، إذ أقبل راكب على بعير ، فوقف فسبّ عليا عليه السلام ، فحفّ به الناس ينظرُون إليه ، فبينا هو كذلك إذ أقبل سعد بن أبي وقاص ، فقال : اللهمّ إن كان سبّ عبداً لك صالحا ، فأرِ المسلمين خزيه ، فما لبث أن نفرَ به بعيرُه فسقط ، فاندقّت عنقه .

وروى عثمان بن أبي شيبة ، عن عبد الله بن موسى ، عن فطر بن خليفة ، عن أبي عبد الله الجدليّ ، قال : دخلتُ على أمّ سلمة رحمها الله فقالت لي : أيسبّ رسول الله صلى الله عليه وآله فيكم وأنتم أحياء ؟ قلت : وأنّى يكون هذا ؟ قالت : أليس يسبّ علي عليه السلام ومَنْ يحبّه !

وروى العبّاس بن بكّار الضّبيّ ، قال : حدّثني أبو بكر الهُذَليّ ، عن الزهريّ ، قال : قال ابنُ عبّاس لمعاوية : ألا تكفّ عن شتم هذا الرجل ؟ قال : ما كنت لأفعل حتى يربوَ عليه الصغير ويهرَم فيه الكبير . فما ولي عمر بن عبد العزيز كفّ عن شتمه ، فقال الناس : ترك السّنّة .

قال : وقد روي عن ابن مسعود إمّا موقوفا عليه أو مرفوعا : كيف أنتم إذا شملتكم فتنة يربو عليها الصغير ويهرم فيها الكبير ، يجري عليها النّاس فيتخذونها سنّة ، فإذا غيّر منها شيء قيل : غيّرت السّنّة !

قال أبو جعفر : وقد تعلمون أنّ بعض الملوك ربّما أحدثوا قولاً، أو ديناً لهوًى فيحملون النّاس على ذلك ؛ حتى لا يعرفون غيره ، كنحو ما أخذ النّاسَ الحجّاجُ بن يوسف بقراءة عثمان ، وترك قراءة ابن مسعود وأبيّ بن كعب ، وتوعدّ على ذلك بدون ما صنع هو وجبابرة بنى أميّة وطغاة بنى مَرْوان بولد على عليه السلام وشيعته ، وإنما كان سلطانه نحو عشرين سنة ، فما مات الحجاج حتى اجتمع أهلُ العراق على قراءة عثمان ، ونشأ أبناؤهم ولا يعرفون غيرها ؛ لإمساك الآباء عنها ، وكفّ المعلمين عن تعليمها ؛ حتى لو قرأت عليهم قراءة عبد الله وأبيّ ما عرفوها ، ولظنّوا بتأليفها الاستكراه والاستهجان ، لإلف العادة وطول الجهالة ؛ لأنه إذا استولت على الرعيّة الغلبة ، وطالت عليهم أيام التسلّط ، وشاعت فيهم المخافة ، وشملتهم التقيّة ؛ اتفقوا على التخاذل والتساكت ؛ فلا تزال الأيام تأخذ من بصائرهم ، وتنقص من ضمائرهم ، وتنقض من مرائرهم ، حتى تصير البدعة التى أحدثوها غامرة للسنّة التى كانوا يعرفونها ؛ ولقد كان الحجّاج ومَنْ ولاه ، كعبد الملك والوليد ومَنْ كان قبلهما وبعدهما من فراعنة بنى أميّة على إخفاء محاسن علىّ عليه السلام وفضائله وفضائل ولده وشيعته ، وإسقاط أقدارهم ، أحرصَ منهم على إسقاط قراءة عبد الله وأبيّ ؛ لأنّ تلك القراءات لا تكون سبباً لزوال ملكهم ، وفساد أمرهم ، وانكشاف حالهم ؛ وفى اشتهار فضل علىّ عليه السلام وولده وإظهار محاسنهم بوارُهم ، وتسليط حكم الكتاب المنبوذ عليهم ؛ فحرصوا واجتهدوا فى إخفاء فضائله ، وحملوا النّاس على كتمانها وسترها ؛ وأبى الله أن يزيد أمرَه وأمر ولده إلّا استنارة وإشراقا ، وحبّهم إلّا شغفا وشدة ، وذكرَهم إلا انتشارا وكثرة ، وحجّتهم إلّا وضوحا وقوّة ، وفضلهم إلّا ظهوراً ، وشأنَهم إلا علوّا ؛ وأقدارهم إلا إعظاما ، حتى أصبحوا بإهانتهم إيّاهم أعزّاء ؛ وبإماتتهم ذكرهم أحياء ؛ وما أرادوا به وبهم من الشرّ تحوّل خيرا ، فانتهى إلينا من ذكر فضائله وخصائصه ومزاياه وسوابقه مالم يتقدّمه السابقون ؛ ولا ساواه فيه القاصدون ، ولا يلحقه الطالبون ؛ ولولا أنّها كانت

كالقِبْلة المنصوبة فى الشُّهرة ، وكالسُّنن المحفوظة فى الكثرة ؛ لم يصلْ إلينا منها فى دهرنا حرف واحد ؛ إذ كان الأمر كما وصفناه .

قال : فأمّا ما احتجّ به الجاحظ بإمامة أبى بكر ، بكونه أوّل النّاس إسلاما ، فلو كان هذا احتجاجاً صحيحا ، لاحتجّ به أبو بكر يوم السقيفة ، وما رأيناه صنَع ذلك لأنّه أخذ بيد عمر ويد أبى عبيدة بن الجراح ، وقال للناس : قد رضيتُ لكم أحد هذيْن الرّجُلين ؛ فبايعوا منهما مَنْ شئتم ، ولو كان هذا احتجاجا صحيحاً لما قال عمر : كانت بيعة أبى بكر فلتة وقى الله شرها ، ولو كان احتجاجا صحيحاً لادّعى واحدٌ من النّاس لأبى بكر الإمامة فى عصره أو بعد عصره ، بكونه سبق إلى الإسلام ؛ وما عرفنا أحداً ادّعى له ذلك، على أن جمهورَ المحدّثين لم يذكروا أنّ أبا بكر أسلم إلّا بعد عدّة من الرّجال ؛ منهم علىّ ابن أبى طالب ، وجعفر أخوه ، وزيد بن حارثة، وأبو ذرّ الغفارى ، وعمرو بن عَبَسة السلمىّ ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وخبّاب بن الأرتّ ؛ وإذا تأمّلنا الرّوايات الصحيحة، والأسانيد القويّة الوثيقة ، وجدناها كلّها ناطقةً بأنّ عليًا عليه السلام أوّلُ مَنْ أسلم .

فأمّا الرواية عن ابن عباس أنّ أبا بكر أولهم إسلاما فقد روى عن ابن عبّاس خلاف ذلك بما أكثر مما رووا وأشهر ، فمن ذلك ما رواه يحيى بن حمّاد ، عن أبى عوانة وسعيد ابن عيسى ، عن أبى داود الطيالسىّ ، عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عبّاس ؛ أنه قال : أوّلُ مَنْ صلّى من الرّجال علىّ عليه السلام .

وروى الحسن البصرىّ ، قال : حدّثنا عيسى بن راشد ، عن أبى بصير ، عن عِكْرمة ، عن ابن عبّاس ، قال : فرض الله تعالى الاستغفار لعلىّ عليه السلام فى القرآن

على كلّ مسلم ، بقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾[1] ؛ فكلّ مَنْ أسلم بعد علىّ فهو يستغفر لعلىّ عليه السلام .

وروى سفيان بن عُيينة ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد ؛ عن ابن عبّاس ، قال : السُّبّاق ثلاثة : سَبَق يوشع بن نون إلى موسى ، وسبق صاحب « يس » إلى عيسى ، وسبق علىّ بن أبى طالب إلى محمد عليه وعليهم السّلام .

فهذا قول ابن عبّاس فى سَبْق علىّ عليه السلام إلى الإسلام ، وهو أثبت مِنْ حديث الشّعبىّ وأشهر ، على أنّه قد رُوِىَ عن الشعبىّ خلاف ذلك من حديث أبى بكر الهذلىّ وداود بن أبى هند عن الشعبىّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلى عليه السلام : « هذا أول مَنْ آمن بى وصدّقنى وصلّى معى » .

قال : فأمّا الأخبار الواردة بسبقه إلى الإسلام المذكورة فى الكتب الصحاح والأسانيد الموثوق بها ، فمنها ماروى شريك بن عبد الله ، عن سليمان بن المغيرة ، عن زيد ابن وهب ، عن عبد الله بن مسعود ، أنّه قال : أوّلُ شىء علمته من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أنى قدمت مكّة مع عمومة لى وناس من قومى ، وكان من أنفسنا شراء عِطْر ، فأرشدَنا[2] إلى العبّاس بن عبد المطلب ، فانتهينا إليه ، وهو جالس إلى زمزم ، فبينا نحن عنده جلوسا ، إذ أقبل رجلٌ من باب الصّفا ، وعليه ثوبان أبيضان ، وله وفرة إلى أنصاف أذنيه ؛ جَعدة ، أشمّ أقنى ، أدعجُ العينين ، كثّ اللحية ، برّاق الثنايا ، أبيض تعلوه حمرة ، كأنّه القمر ليلة البدر ، وعلى يمينه غلام مُراهِق أو محتلم ، حسن الوجه ، تقفوهم امرأة ، قد سترت محاسنَها ، حتى قصدوا نحو الحِجْر ، فاستلمه واستلمه الغلام ، ثم استلمته المرأة ، ثم طاف بالبيت سبعا ، والغلام والمرأة يطوفان معه ، ثم استقبل الحِجْر ،

---

(١) سورة الحشر ١٠ .

(٢) « فأرشدونا » .

فقام ورفع يديه وكبّر ، وقام الغلام إلى جانبه ، وقامت المرأة خلفهما ، فرفعت يديها ، وكبّرت ، فأطال القنوت ، ثم ركع وركع الغلام والمرأة ، ثم رفع رأسه فأطال ، ورفع الغلام والمرأة معه يصنعان مثل ما يصنع ، فلمّا رأينا شيئاً ننكره ، لا نعرفه بمكة ، أقبلنا على العباس ، فقلنا : يا أبا الفضل ، إنّ هـذا الدّين ما كنّا نعرفه فيكم ، قال : أجلْ والله ، قلنا : فمن هذا ؟ قال : هذا ابنُ أخي ، هذا محمّد بن عبد الله ، وهذا الغلام ابن أخي أيضا؛ هذا علىّ بن أبي طالب ، وهذه المرأة زوجة محمّد ، هذه خديجة بنت خويلد ، والله ما على وجه الأرض أحدٌ يَدين بهذا الدين؛ إلا هؤلاء الثلاثة .

ومن حديث موسى بن داود ، عن خالد بن نافع ، عن عُفيف بن قيس الكِندىّ ، وقد رواه عن عُفَيف أيضا ، مالك بن إسماعيل النهدىّ والحسن بن عَنْبسة الورّاق وإبراهيم ابن محمّد بن ميمونة ، قالوا جميعا : حدّثنا سعيد بن جُثَم ، عن أسَد بن عبدالله البجلىّ ، عن يحيى بن عُفَيف بن قيس ، عن أبيه ، قال : كنتُ في الجاهلية عطّارا ، فقدمت مكّة ، فنزلت على العبّاس بن عبد المطلب ، فبينا أنا جالس عنده ، أنظر إلى الكعبة ، وقد تحلّقت الشمس في السماء ، أقبل شابٌّ كأنّ في وجهه القمر ، حتى رمى ببصره إلى السماء ، فنظر إلى الشمس ساعة ، ثم أقبل حتى دنا من الكعبة ، فصفّ قدميه يصلّى ، فخرج على أثره فتى كأنّ وَجْهه صفيحة يمانيّة ، فقام عن يمينه ، فجاءت امرأة متلفّفة في ثيابهـا ، فقامت خلفهما ، فأهوى الشاب راكعا ، فركعا معه ، ثم أهوى إلى الأرض ساجداً، فسجدا معه ، فقلت للعباس : يا أبا الفضل، أمر عظيم ! فقال : أمر والله عظيم ! أتدرى مَنْ هذا الشّاب ؟ قلت : لا ، قال هذا ابنُ أخي ، هذا محمّد بن عبدالله بن عبدالمطلب ؛ أتدرى مَنْ هـذا الفتى ؟ قلت: لا ، قال : هذا ابن أخي علىّ بن أبي طالب بن عبد المطلب ؛ أتدرىَ من المرأة ؟ قلت: لا ، قال : هذه ابنة خُويلد بن أسَد بن عبد العُزّى ، هذه خديجة زوج محمّد هذا[1] ، وإنّ محمداً هذا يذكر أنّ إلهه إله السماء والأرض، وأمره بهذا الدّين، فهو عليه كما ترى،

(١) ا : « زوج هذا » .

ويزعم أنه نبيّ ، وقد صدّقه على قوله عليّ ابن عمه هذا الفتى، وزوجته خديجة ، هذه المرأة ؛ والله ما أعلمُ على وجه الأرضِ كلّها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة : قال عُفَيف : فقلت له : فما تقولون أنتم ؟ قال : ننتظر الشيخ ما يصنع ! يعنى أبا طالب أخاه .

وروى عُبيد الله بن موسى ، والفضل بن دُكين ، والحسن بن عَطيّة ، قالوا : حدّثنا خالد بن طَهمان ، عن نافع بن أبى نافع ، عن معقل بن يسار ، قال : كنت أوصى النبيّ صلى الله عليه وآله ، فقال لى : هل لك أن نَعود فاطمة ؟ قلت : نعم يارسول الله ، فقام يمشى متوكئا علىّ ، وقال : أما إنه سيحمل ثقلها غيرُك،ويكون أجرُها لك ، قال : فوالله كأنه لم يكن علىّ من ثقل النبى صلى الله عليه وآله شىء ؛ فدخلنا عَلَى فاطمة عليها السلام ، فقال لها صلّى الله عليه وسلم : كيفَ تجدينك ؟ قالت : لقد طال أسفى ، واشتدّ حُزْنى ،وقال لى النساء : زوّجك أبوك فقيرا لا مال له ! فقال لها : أما ترضَيْنَ أنى زوّجتك أقدَم أمتى سلماً ، وأكثرهم علما ،وأفضلهم حلما ! قالت : بلى رضيت يارسول الله .

وقد روى هذا الخبر يحيى بن عبد الحميد ، وعبد السلام بن صالح ، عن قيس بن الربيع ، عن أبى أيوب الأنصارىّ ، بألفاظه أو نحوها .

وروى عبد السلام بن صالح، عن إسحاق الأزرق ، عن جعفر بن محمد ، عن آبائه، أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله لمّا زوّج فاطمة ، دخل النساء عليها ، فقلن : يابنتَ رسول الله ، خَطَبك فلانٌ وفلان ، فردّهم عنك ، وزوّجك فقيراً لا مالَ له ، فلمّا دخل عليها أبوها صلى الله عليه وآله رأى ذلك فى وجهها ، فسألها فذكرتْ له ذلك ، فقال : يافاطمة ، إنّ الله أمرنى فأنكحتُك أقدمَهم سلما ؛ وأكثرهم علما ، وأعظمهم حِلْما ؛ وما زوّجتك إلّا بأمرٍ من السماء ؛ أما علمت أنه أخى فى الدنيا والآخرة !

وروى عثمان بن سعيد عن الحكم بن ظُهَيْر ، عن السدىّ : أنّ أبا بكر وعمر خطبا فاطمةَ عليها السلام ، فردّهما رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : لم أومَرْ بذلك ، فخطبها علىّ عليه السلام ، فزوّجه إياها ، وقال لها : زوّجتك أقدمَ الأمةِ إسلاما . . وذكر تمام الحديث . قال : وقد روى هذا الخبر جماعة من الصحابة ، منهم أسماء بنت عُميس ، وأمّ أيمن ، وابنُ عبّاس وجابر بن عبد الله .

قال : وقد روى محمد بن عبد الله بن أبى رافع ، عن أبيه ، عن جدّه أبى رافع ، قال : أتيتُ أبا ذرّ بالرّبَذة أودّعه ، فلما أردت الانصراف ، قال لى ولأناسٍ معى : ستكون فتنة ، فاتقوا الله ، وعليكم بالشيخ على بن أبى طالب ، فاتبعوه ، فإنّى سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول له : « أنت أول مَنْ آمن بى ، وأول مَنْ يصافحنى يوم القيامة ، وأنت الصدّيق الأكبر ، وأنت الفاروق الذى يفرق بين الحقّ والباطل ، وأنت يعسوب المؤمنين ، والمال يعسوب الكافرين ، وأنت أخى ووزيرى ، وخير مَنْ أترك بعدى تقضى دَيْنى وتنجز موعدى » .

قال : وقد روى ابن أبى شيبة ، عن عبد الله بن نُمَيْر ، عن العَلاء بن صالح ، عن المِنْهال بن عمرو ، عن عبّاد بن عبدالله الأسدىّ ، قال : سمعتُ علىّ بن أبى طالب ، يقول : أنا عبد الله وأخو رسوله ، وأنا الصدّيق الأكبر ، لا يقولها غيرى إلّا كذّاب ، ولقد صلّيت قبل الناس سبع سنين .

وروت معاذة بنت عبد الله العدَويّة ، قالت : سمعتُ عليا عليه السلام ، يخطب على منبر البصرة ، ويقول : أنا الصديق الأكبر ، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر ، وأسلمت قبل أن يسلم .

وروى حبّة بن جُوين العُرَنىّ أنه سمع عليا عليه السلام ، يقول : أنا أولُ رجل أسلم

مع رسول الله صلى الله عليه وآله . رواه أبو داود الطيالسيّ ، عن شعبة ، عن سفيان الثوريّ ، عن سلمة بن كُهيل، عن حبّة بن جُوَين .

وروى عثمان بن سعيد الخزّاز[1] ، عن علي بن حزّار ، عن علي بن عابس ، عن أبي الجحاف ، عن حكيم مولى زاذان ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، يقول : صلّيتُ قبل الناس سبعَ سنين ، وكنّا نسجُد ولا نركع ، وأول صلاة ركعنا فيها صلاةُ العصر ، فقلت : يارسولَ الله ، ماهذا ؟ قال : أمِرْتُ به .

وروى إسماعيل بن عمرو ، عن قيس بن الربيع ، عن عبد الله بن محمد بن عَقيل ، عن جابر بن عبد الله ، قال : صلّى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يوم الاثنين ؛ وصلّى عليّ يوم الثلاثاء بعده. وفي الرواية الأخرى ، عن أنس بن مالك : استُنبِئ النبيّ صلّى الله عليه وآله يوم الاثنين ، وأسلَمَ عليّ يوم الثلاثاء بعده .

وروى أبو رافع أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله صلّى أوّل صلاة صلّاها غداة الاثنين ، وصلّت خديجة آخر نهار يومها ذلك ، وصلّى علي عليه السلام يوم الثلاثاء غدا ذلك اليوم .

قال : وقد رُوِي بروايات مختلفة كثيرة متعددة، عن زيد بن أرقم ؛ وسلمان الفارسيّ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك ؛ أنّ عليا عليه السلام : أوّل مَنْ أسلم ؛ وذكر الروايات والرجال بأسمائهم .

وروى سلمة بن كُهَيل ، عن رجاله الذين ذكرهم أبو جعفر في الكتاب أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : «أوّلكم وروداً عليّ الحوض ، أوّلكم إسلاما عليّ بن أبي طالب».

وروى ياسين بن محمد بن أيمن ، عن أبي حازم ؛ مولى ابن عباس عن ابن عباس ،

---

(١) ب : « الخزاز » .

قال : سمعتُ عمرَ بن الخطاب وهو يقول : كُفُّوا عن علىّ بن أبى طالب ؛ فإنى سمعتُ من رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وآله يقول[1] فيه خِصالا ، لو أنّ خصلة منها فى جميع آل الخطاب ، كان أحبّ لى مما طلعت عليه الشمس ؛ كنت ذات يوم وأبو بكر وعثمان وعبد الرحمن ابن عوف وأبو عبيدة مع نفرٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله نطلبه ، فانتهينا إلى باب أمّ سلمة ، فوجدنا عليًّا متّكئا على نِجاف[2] الباب ؛ فقلنا : أردنا رسول الله صلّى الله عليه وآله ؛ فقال : هو فى البيت ، رويدكم ! فخرج رسولُ الله صلى الله عليه وآله فسِرْنا حوله ، فاتّكأ على علىّ عليه السلام ، وضرب بيده على منكبه ، فقال : أبشِرْ يا علىّ ابنَ أبى طالب ، إنك مخاصِمٌ ، وأنك تخصم[3] الناس بسبع لا يجاريك أحدٌ فى واحدة منهنّ ، أنت أوّلُ الناس إسلاما ، وأعلمهم بأيام الله .. » وذكر الحديث .

قال : وقد روى أبو سعيد الخدرىّ ، عن النبى صلى الله عليه وآله مثل هذا الحديث .

قال : روى أبو أيوب الأنصارىّ ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنه قال : « لقد صلّت الملائكة علىّ وعلى علىّ عليه السلام ، سبعَ سنين » ؛ وذلك أنه لم يصلّ معى رجل فيها غيره .

قال أبو جعفر : فأما ما رواه الجاحظ من قوله صلى الله عليه وآله : « إنما تبعنى حرّ وعبد » ، فإنه لم يسمّ فى هذا الحديث أبا بكر وبلالا ، وكيف وأبو بكر لم يشترِ بلالا إلا بعد ظهور الإسلام بمكة ؛ فلما أظهر بلال إسلامه عذّبه أمية بن خلف ! ولم يكن ذلك حال إخفاء رسول الله صلى الله عليه وآله الدّعوة ، ولا فى ابتداء أمر الإسلام ؛

---

(١) ساقطة من ا .
(٢) النجاف : هو ما بنى ناتئا فوق الباب .
(٣) تخصم الناس : تغلبهم فى الخصومة .

وقد قيل : إنه عليه السلام إنما عنَى بالحرّ علىّ بن أبى طالب ، وبالعبد زيد بن حارثة .

وروى ذلك محمد بن إسحاق ، قال : وقد روى إسماعيل بن نصر الصفّار ، عن محمد ابن ذكوان ، عن الشعبىّ ؟ قال : قال الحجّاج للحسن ، وعنده جماعة من التابعين وذكر على بن أبى طالب : ما تقول أنت يا حسن ؟ فقال : ما أقول ! هو أوّل مَنْ صلّى إلى القِبْلة ، وأجاب دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإنّ لعلىّ منزلةً من ربّه ، وقرابة من رسوله ، وقد سبقت له سوابق لا يستطيع ردّها أحدٌ . فغضب الحجاج غضبا شديدا ، وقام عن سريره ، فدخل بعض البيوت وأمر بصرفنا .

قال الشعبىّ : وكنا جماعةً ما منّا إلّا مَنْ نال من علىّ عليه السلام مقاربةً للحجّاج، غير الحسن بن أبى الحسن رحمه الله .

وروى عمرو بن هشام ، عن إبراهيم بن سلمة ، عن محمد بن عبيد الله ، قال : قال رجل للحسن : ما لنا لا نراك تُثنى على علىّ وتقرّظه ! قال : كيف وسيفُ الحجاج يقطر دماً ! إنّه لأوّل مَنْ أسلم ، وحسبكم بذلك !

قال : فهذه الأخبار .

وأما الأشعار المرويّة فمعروفة كثيرة منتشرة ؛ فمنها قول عبد الله بن أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب مجيبا للوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط :

وإنّ ولىَّ الأمر بعد محمّدٍ ... علىٌّ وفى كلّ المواطن صاحبُهْ
وصىُّ رسول الله حقًّا وصنْوُه ... وأوّل مَنْ صلّى ومَنْ لان جانبُهْ

وقال خزيمة بن ثابت فى هذا :

وصىُّ رسولِ الله مِنْ دون أهلِه ... وفارسُه مُذْ كان فى سالف الزّمَنْ
وأوّلُ مَنْ صلّى من النّاس كلّهمْ ... سوى خيرة النّسوان والله ذو منَنْ

وقال أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، حين بويع أبو بكر :

ما كنت أحسب أنّ الأمر منصرفٌ عن هاشمٍ ثم منها عن أبي حسنِ
أليس أوّلَ مَنْ صلّى لقبلتهم وأعلمَ النّاس بالأحكام والسُّنَنِ !

وقال أبو الأسود الدؤليّ يهدّد طلحة والزبير :

وإن عليًّا لكم مُصْحِرٌ يماثله الأسد الأسودُ
أما إنّه أوّلُ العابدين بمكّة والله لا يعبدُ !

وقال سعيد بن قيس الهمْدانيّ يرتجز بصفين :

هذا عليٌّ وابنُ عمّ المصطفى أوّل مَنْ أجابه فيما روى
هو الإمام لا يبالي مَنْ غَوَى

وقال زفر بن يزيد بن حذيفة الأسدي :

فحُوطُوا عليًّا وانصروه فإنّه وصيٌّ وفي الإسلام أوّل أوّلُ
وإن تخذلوه والحوادث جمّة فليس لكم عن أرضكم متحوّلُ

قال : والأشعار كالأخبار ، إذا امتنع في مجيء القبيلين التواطؤ والاتفاق ، كان ورودها حجة .

● ● ●

فأمّا قولُ الجاحظ : فأوسط الأمور أن نجعل إسلامهما معا ، فقد أبطل بهذا ما احتجّ به لإمامة أبي بكر ، لأنه احتجّ بالسّبْق ، وقد عدل الآن عنه .

قال أبو جعفر : ويقال لهم : لسْنا نحتاج من ذكر سبق عليّ عليه السلام إلا اجماعكم إيّانا على أنّه أسلم قبل النّاس ؛ ودعوَاكم أنّه أسلم وهو طفل دعوى غير مقبولة لا بحجة .

فإن قلتم : ودعوتكم أنّه أسلم وهو بالغ دعوى غير مقبولة إلا بحجّة !

قلنا : قد ثبت إسلامه بحكم إقراركم ؛ ولو كان طفلاً لكان في الحقيقة غير مسلم ، لأنّ اسم الإيمان والإسلام والكفر والطاعة والمعصية إنّما يقع على البالغين دون الأطفال والمجانين ؛ وإذا أطلقتم وأطلقنا عليه اسم الإسلام ، فالأصل في الإطلاق الحقيقة ، كيف وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : « أنت أوّل مَنْ آمن بي ، وأنت أوّل مَنْ صدّقني » . وقال لفاطمة : « زوجتك أقدمهم سِلْما ـ أو قال : إسلاما ـ » فإن قالوا : إنّما دعاه النبيّ صلى الله عليه وآله إلى الإسلام على جهة العَرْض لا التكليف .

قلنا : قد وافقتمونا على الدّعاء ، وحكم الدّعاء حكم الأمر والتكليف . ثم ادّعيتم أنّ ذلك كان على وجه العرض ، وليس لكم أن تقبلوا معنى الدّعاء [عن وجهه[1]] إلّا لحجة .

فإن قالوا : لعلّه كان على وجه التأديب والتعليم ، كما يُعتمد مثل ذلك مع الأطفال !

قلنا : إنّ ذلك إنّما يكون إذا تمكّن الإسلام بأهله ، أو عند النشوء عليه والولادة فيه ، فأمّا في دار الشّرك فلا يقع مثل ذلك ؛ لاسيما إذا كان الإسلام غير معروف ولا معتاد بينهم ، على أنه ليس من سنّة النبيّ صلّى الله عليه وآله دعاء أطفال المشركين إلى الإسلام والتفريق بينهم وبين آبائهم ، قبل أن يبلغوا الحلم .

وأيضاً فمن شأن الطفل اتّباع أهله ، وتقليدُ أبيه ، والمضيُّ على منشئه ومولده ، وقد كانتْ منزلة النبيّ صلى الله عليه وآله حينئذ منزلة ضيق وشدّة ووحدة ، وهذه منازل لا ينتقل إليها إلّا مَن ثبت الإسلام عنده بحجّة ، ودخل اليقين قلبه بعلم ومعرفة .

فإن قالوا : إنّ عليّاً عليه السلام كان يألفُ النبيّ صلى الله عليه وآله ، فوافقه على طريق المساعدة له .

قلنا : إنه وإن كان يألفه أكثرَ من أبويه وإخوته وعمومته وأهل بيته ، ولم يكن الإلف ليخرجه عمّا نشأ عليه ، ولم يكن الإسلام مما غُذّي[2] به وكرر على سمعه ،

---

(١) تكملة من ا

(٢) ب : « هدى » ، تصحيف ، وأثبت ما في ا .

لأنّ الإسلام هو خلع الأنداد والبراءة ممن أشرك بالله ، وهذا لا يجتمع في اعتقاد طفل .

ومن العجب قولُ العبّاس لعفيف بن قيس : ننتظر الشيخ وما يصنع ! فإذا كان العبّاس وحمزة ينتظران أبا طالب ، ويصدُران عن رأيه ، فكيف يخالفه ابنه ، ويؤثر القلّة على الكثرة ، ويفارق المحبوبَ إلى المكروه ، والعزّ إلى الذلّ ، والأمن إلى الخوف، عن غير معرفة ولا علم بما فيه !

• • •

فأمّا قوله : إنّ المقلّل يزعُم أنه أسلمَ وهو ابن خمس سنين ، والمكثِر يزعم أنّه أسلم وهو ابن تسع سنين ؛ فأول ما يقال في ذلك : إنّ الأخبار جاءت في سِنّه عليه السلام يوم أسلم على خمسة أقسام فجعلناه في قسمين [illegible]

القسم الأوّل : الّذين قالوا : أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة . حدّثنا بذلك أحمد بن سعيد الأسدىّ ، عن إسحاق بن بشر القرشىّ ، عن الأوزاعى ، عن حمزة بن حبيب ، عن شدّاد بن أوس ، قال : سألتُ خبّاب بن الأرتّ عن إسلام علىّ ، فقال : أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة ، ولقد رأيتُه يصلّى قبل النّاس مع النبىّ صلى الله عليه وآله وهو يومئذ بالغٌ مستحكم البلوغ . وروى عبد الرزّاق ، عن معمر ، عن قتادة ، عن الحسن ، أنّ أوّل مَنْ أسلم علىّ بن أبى طالب ، وهو ابن خمس عشرة سنة .

القسم الثانى : الّذين قالوا إنّه أسلم وهو ابن أربعَ عشرة سنة ، رواه أبو قتادة الحرّانىّ ، عن أبى حازم الأعرج ، عن حُذَيفة بن اليمان ، قال : كنّا نعبد الحجارة ، ونشربُ الخمر وعلىٌّ من أبناء أربع عشرة سنة قائم يصلّى مع النبىّ صلّى الله عليه وآله ليلاً ونهارا ، وقريش يومئذ تسافِه رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، ما يذُبُّ عنه إلا علىّ

عليه السلام . وروى ابن أبي شَيْبة عن جَرير بن عبد الحميد ، قال : أسلم عليٌّ وهو ابن أربع عشرة سنة .

القسم الثالث : الّذين قالوا : أسلم وهو ابن إحدى عشرة سنة . رواه إسماعيل بن عبد الله الرَّقّيّ ، عن محمد بن عمر ، عن عبد الله بن سمعان ، عن جعفر بن محمّد عليه السلام، عن أبيه عن محمد بن علي عليه السلام، أنّ عليا حين أسلم كان ابن إحدى عشرة سنة . وروى عبدُ الله بن زياد المدنيّ ، عن محمد بن عليّ الباقر عليه السلام ، قال : أوّلُ مَنْ آمن بالله عليّ ابن أبي طالب، وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وهاجر إلى المدينة وهو ابن أربعة وعشرين سنة .

القسم الرابع الّذين قالوا : إنه أسلم وهو ابن عشر سنين . رواه نوح بن درّاج ، عن محمد بن إسحاق ، قال : أوّل ذكر آمنَ وصدّق بالنبوّة عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وهو ابن عشرِ سنين ، ثم أسلم زيد بن حارثة ، ثم أسلم أبو بكر وهو ابن ستٍّ وثلاثين سنة فيما بلغنا .

القسم الخامس : الّذين قالوا إنّه أسلَمَ وهو ابن تسع سنين ، رواه الحسن بن عِنْبسة الورّاق ، عن سليم مولى الشّعبيّ ، عن الشعبيّ ، قال : أوّلُ مَنْ أسلم من الرّجال عليّ ابن أبي طالب وهو ابن تسع سنين ، وكان له يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وآله تسعٌ وعشرون سنة .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر : فهذه الأخبار كما تراها ، فإمّا أن يكونَ الجاحظ جهلها أو قصد العناد .

فأمّا قوله : «فالقياسُ أن نأخذ بأوسط الأمرين من الرّوايتين» ، فنقول : إنه أسلم وهو ابن سبع سنين . فإنّ هـذا تحكّم منه ، ويلزمه مثله في رجلٍ ادّعى قِبَل رجل عشرة

دراهم ، فأنكر ذلك وقال : إنما يستحقّ قبلي أربعة دراهم ، فينبغي أن نأخذ الأمر المتوسط ويلزمه سبعة دراهم ، ويلزمه في أبي بكر حيث قال قوم : كان كافرا ، وقال قوم : كان إماما عادلا أنْ نقول : أعدلُ الأقاويل أوسطها وهو منزلة[1] بين المنزلتين ، فنقول : كان فاسقاً ظالماً ، وكذلك في جميع الأمور المختلف فيها .

فأما قوله : وإنما يُعرف حقّ ذلك من باطله ، بأن نحصيَ سِني ولاية عثمان وعمر وأبي بكر وسِني الهجرة ، ومُقام النبيّ صلى الله عليه وآله بمكّة بعد الرّسالة إلى أن هاجر ، فيقال له : لو كانت الروايات متّفقة على هذه التاريخات ، لكان لهذا القول مساغٌ ، لكن الناس قد اختلفوا في ذلك ، فقيل : إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله أقام بمكّة بعد الرّسالة خمس عشرة سنة ، رواه ابن عباس ، وقيل ثلاث عشرة سنة ؛ وروى عن ابنُ عبّاس أيضا ، وأكثر الناس يروونه ، وقيل عشرة سنين ، رواه عُروة بن الزبير ، وهو قول الحسن البَصْريّ وسعيدُ بن المسيّب . واختلفوا في سنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فقال قوم : كان ابنَ خمس وستين ، وقيل كان ابنَ ثلاث وستين ، وقيل : كان ابن ستّين . واختلفوا في سنّ عليّ عليه السلام ، فقيل : كان ابن سبع وستين ، وقيل : كان ابن خمس وستين . وقيل ابن ثلاث وستين وقيل : ابن ستين ، وقيل ابن تسع وخمسين .

فكيف يمكنُ مع هذه الاختلافات تحقيقُ هذه الحال ! وإنّما الواجبُ أن يرجع إلى إطلاق قولهم : أسلم عليّ ، فإن هذا الاسم لا يكون مطلقا إلاّ على البالغ ، كما لا يطلق اسم الكافر إلّا على البالغ ، على أنّ ابن إحدى عشرة سنة يكون بالغاً ، ويولدُ له الأولاد ، فقد روَت الرّواة أن عمرو بن العاص لم يكن أسنّ من ابنه عبد الله

(١) ا : « أي منزلة » .

إلا باثنتى عشرة سنة ، وهذا يوجب أنه احتلم وبلغ فى أقلّ من إحدى عشرة سنة .

وروى أيضا أنّ محمد بن عبد الله بن العباس ، كان أصغرَ من أبيه علىّ بن عبد الله ابن العباس بإحدى عشرة سنة ، فيلزم الجاحظ أن يكون عبد الله بن العباس حين مات رسول الله صلى الله عليه وآله غير مسلم على الحقيقة ، ولا مثاب ولا مطيع بالإسلام ، لأنه كان يومئذ ابن عشر سنين . رواه هشيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : توفى رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا ابن عشر سنين .

* * *

قال الجاحظ : فإن قالوا : فلعلّه وهو ابن سبع سنين [١] أو ثمانى سنين [١] ، قد بلغ من فطنَتِه وذكائه وصحة لُبه وصدق حَدْسه [٢] وانكشاف العواقب له وإن لم يكن جرّب الأمور ، ولا فاتح الرّجال ، ولا نازع الخصوم ، ما يعرف به جميع ما يجب على البالغ معرفتُه والإقرار به !

قيل [٣] لهم : إنما نتكلّم على ظواهر الأحوال ، وما شاهدنا عليه طبائع الأطفال ، فإنا وجدْنا حكمَ ابن سبع سنين أو ثمانٍ — مالم يعلم باطن أمره وخاصّة طبعه — حكمَ الأطفال ، وليس لنا أن نُزيل ظاهرَ حكمه والذى نعرف من حال أبناء جنسه بلعلّ وعسى ، لأنا وإن كنّا لا ندرى ، لعلّه قد كان ذا فضيلة فى الفطنـة ، فلعلّه قد كان ذا نقص فيها !

هذا على تجويز أن يكون علىّ عليه السلام فى الغيب [٤] قد أسلم وهو ابن سبع أو ثمان إسلامَ البالغ ، غير أنّ الحكم على مجرى أمثاله وأشكاله الذين أسلموا وهم فى مثل سنّه إذ كان إسلام هؤلاء عن تربية الحاضن ، وتلقين القيّم ، ورياضة السائس .

فأمّا عند التحقيق ، فإنّه لا نجوز لمثل ذلك ، لأنّه لو كان أسلم ، وهو ابن سبع

(١ — ١) ساقط من ا
(٢) الثابتة : « حسه » .
(٣) الثابتة : « قيل » .
(٤) الثابتة « للغيب » .

أو ثمان وعرف فضل ما بين الأنبياء والكهنة، وفرق ما بين الرسل والسحرة، وفرق ما بين خبر النبيّ والمنجّم، وحتى عرف كيد الأريب[1]، وموضع الحجة، و[2] وبعد غور المتنبي[2]، كيف يلبّس على العقلاء، وتستمال عقول الدهماء، وعرف الممكن في الطبع من الممتنع، وما يحدث بالاتفاق مما يحدث بالأسباب، وعرف قدر القُوى وغاية الحيلة ومنتهى التمويه والخديعة، وما لا يحتمل أن يحدثه إلاّ الخالق سبحانه، وما يجوز على الله في حكمته مما لا يجوز، وكيف التحفّظ من الهوى والاحتراس من الخداع؛ لكان كونُه على هذه الحال وعدها مع فرط الصِّبا والحداثة وقلّة التجارب والممارسة خروجاً من العادة. ومن المعروف مما عليه تركيب هذه الخلقة، وليس يصلُ أحد إلى معرفة نبيّ وكذب متنبيّ، حتى يجتمع فيه هذه المعارف التي ذكرناها، والأسباب التي وصفناها وفصّلناها، ولو كان عليٌّ عليه السلام على هذه الصفة ومعه هذه الخاصيّة لكان حجّةً على العامّة، وآية تدلّ على النبوّة، ولم يكن الله عزّ وجلّ ليخصّه بمثل هذه الأعجوبة إلاّ وهو يريد أن يحتجّ بها، ويجعلها قاطعةً لعذر الشاهد وحجة على الغائب. ولولا أنّ الله أخبر عن يحيى بن زكريا أنه أتاه الحكم صبيا، وأنه أنطق عيسى في المهد ما كانا في الحكم [ولا في المغيب][3]، إلا كسائر الرسل، وما عليه جميع البشر. فإذ لم ينطق لعليّ عليه السلام بذلك قرآن، ولا جاء الخبرُ به بمجيء الحجّة القاطعة والمشاهدة القائمة، فالمعلوم عندنا في الحكم أن طباعه كطباع عمّيْه حمزة والعباس، وهما أمسّ بمعدن جماع الخير منه، أو كطباع جعفر وعقيل من رجال قومه، وسادة رهطه. ولو أنّ إنساناً ادّعى مثل ذلك لأخيه جعفر أو لعمّيْه حمزة والعباس، ما كان عندنا في أمره إلاّ مثل ما عندنا فيه[3].

* * *

أجاب شيخنا أبو جعفر رحمه الله، فقال: هذا كلّه مبنيٌّ على أنه أسلم وهو ابن سبع أو ثمان، ونحن قد بيّنا أنّه أسلم بالغا ابن خمس عشرة سنة أو ابن أربع عشرة سنة؛ على

(١) الثانية: «المريب».

(٢) من الثانية

(٢-٢) في الأصول: «وبعد لتميزه»، وأثبت ما في الثانية.

(٣) الثانية ٦ – ٨.

أنّا لو نزلنا على حُكْم الخصوم ، وقلنا ما هو الأشهر والأكثر من الرواية ؛ وهو أنّه أسلمَ وهو ابن عشرٍ لم يلزم ما قاله الجاحظ ، لأنّ ابن عشرٍ قد يستجمع عقله ، ويعلم من مبادئ المعارف ما يستخرج به كثيرا من الأمور المعقولة ؛ ومتى كان الصبيّ عاقلا مميزا كان مكلّفا بالعقليّات ؛ وإن كان تكليفُه بالشرعيّات موقوفاً على حدّ آخر وغاية أخرى ، فليس بمنكَرٍ أن يكون عليّ عليه السلام وهو ابن عشر قد عقل المعجزة ، فلزمه الإقرار بالنبوّة ، وأسلم إسلام عالم عارف، لا إسلام مقلّد تابع ؛ وإن كان ما نسقه الجاحظ وعدّده من معرفة السّحر والنّجوم والفصل بينهما وبين النبوّة ، ومعرفة ما يجوز في الحكمة ممّالا يجوز ، ومالا يحدثه إلّا الخالق ، والفرق بينه وبين ما يقدر عليه القادرون بالقُدْرة ، ومعرفة التّمويه والخديعة ، والتّلبيس والمكرة، شرطاً في صحّة الإسلام لما صحّ إسلام أبي بكر ولا عمر ولا غيرهما من العرب ؛ وإنّما التّكليف لهؤلاء بالجمل ومبادئ المعارف لا بدقائقها والغامض منها ، وليس يفتقر الإسلام إلى أن يكون المسلم قد فاتح الرّجال وجرّب الأمور ونازع الخصوم ؛ وإنما يفتقر إلى صحّة الغريزة وكمال العقل وسلامة الفطرة ؛ ألا ترى أنّ طفلا لو نشأ في دارٍ لم يعاشر النّاس بها ، ولا فاتح الرجال ، ولا نازع الخصوم ؛ ثم كَمَل عقلُه ، وحصلت العلوم البديهيّة عنده ، لكان مكلّفا بالعقليات !

فأمّا توهّمه أنّ عليًّا عليه السلام أسلمَ عن تربية الحاضن ، وتلقين القيّم ، ورياضة السائس ؛ فلعمري إنّ محمّداً صلى الله عليه وآله كان حاضنَه وقيّمه وسائسه ، ولكن لم يكن منقطعاً عن أبيه أبي طالب ، ولا عن إخوته طالب وعَقِيل وجعفر ، ولا عن عمومته وأهلِ بيته ، وما زال مخالطاً لهم ، ممتزجاً بهم ، مع خدمته لمحمّد صلى الله عليه وآله ، فمابالُه لم يمِلْ إلى الشِّرك وعبادة الأصنام لمخالطته إخوته وأباه وعمومته وأهله ، وهم كثير ، ومحمد صلى الله عليه وآله واحد ! وأنت تعلم أن الصبيّ إذا كان له أهلٌ ذوو كثرة ، وفيهم واحد

يذهب إلى رأى مفرد ، لا يوافقهُ عليه غيره منهم ، فإنه إلى ذوى الكثرة أميلُ ، وعن ذى الرأى الشاذ المنفرد أبعَد ، وعلى أنّ عليًا عليه السلام لم يولَد فى دارِ الإسلام ، وإنما ولد فى دار الشرك ورُبِّىَ بين المشركين ، وشاهد الأصنامَ ، وعاين بعينيه أهلَه ورهطه يعبدونها ؛ فلو كان فى دار الإسلام لكان فى القول محالٌ ، ولقيل إنه ولد بين المسلمين ، فإسلامه عن تلقين الظِّئْر وعن سماع كلمة الإسلام ومشاهدة شعاره لأنه لم يسمع غيرَه ، ولا خطر بباله سواه ، فلمّا لم يكن ولد كذلك ، ثبت أنّ إسلامه إسلام المميِّز العارف بما دخل عليه . ولولا أنه كذلك لما مدحه رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك ، ولا أرضى ابنته فاطمة لما وجدت من تزويجه بقوله لها : زوّجتكِ أقدمَهم سِلمًا ، ولا قرن إلى قوله : « وأكثرهم علما ، وأعظمهم حلما » ، والحلم : العقل ، وهذان الأمرانِ غاية الفضل ، فلولا أنه أسلم إسلامَ عارف عالم مميّز لما ضمّ إسلامه إلى العلم والحلم اللّذيْن وصفه بهما ! وكيف يجوز أن يمدحه بأمر لم يكن مُثابًا عليه ، ولا معاقبًا به لو تركه ، ولو كان إسلامُه عن تلقين وتربية لما افتخر هو عليه السلام [به][1] على رءوس الأشهاد ، ولا خطب على المنبر ؛ وهوَ بين عدوّ ومحاربٍ ، وخاذل منافق ، فقال : أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق الأكبر والفاروق الأعظم ؛ صلّيتُ قبلَ الناس سبع سنين ، وأسلمت قبل إسلام أبي بكر ، وآمنت قبل إيمانه ! فهل بلغكم أنّ أحداً من أهل ذلك العصر أنكر ذلك أو عابَهُ أو ادّعاه لغيره ، أو قال له : إنما كنتَ طفلا أسلمت على[2] تربية محمد صلى الله عليه وآله ذلك ، وتلقينه إيّاك ، كما يُعلَّمُ الطفل الفارسية والتركية منذ يكون رضيعا ! فلا فخر له فى تعلم ذلك ، وخصوصاً فى عصرٍ قد حارب فيه أهلَ البصرة والشام والنهروان ، وقد اعتورته الأعداء وهجَته الشعراء ، فقال فيه النعمان بن بشير :

---

(١) تكملة من ا (٢) ا « عن » .

لقدْ طَلَبَ الخلافة من بعيدٍ ... وسارعَ فى الضَّلالِ أبو تُرابِ
معاويةُ الإمامُ وأنت مِنْها ... على وَتَحٍ بمنقطِعِ السرابِ (١)

وقال فيه أيضا بعض الخوارج :

دَسَسْنا له تحتَ الظلام ابنَ مُلْجَمٍ ... جزاء إذا ماجاء نفساً كتابُها
أبا حسن خذها على الرأس ضَرْبةً ... بكفّ كريمٍ ؛ بعد موتٍ ثوابُها

وقال عِمران بن حِطّان يمدح قاتله :

ياضربةً مِنْ تقيّ ماأراد بها ... إلا ليبلُغَ من ذِى العرش رضوانا
إنى لأذكُره حيناً فأحسِبُه ... أوْفى البريّة عند الله ميزانا

فلو وجد هؤلاء سبيلا إلى دَحْض حجة فيما كان يفخر به من تقدم إسلامه لسدوا بذلك ، وتركوا مالا معنى له .

وقد أوردنا ما مدحه الشعراء به من سبقه إلى الإسلام ، فكيف لم يرُدّ على هؤلاء الذين مدحُوه بالسّبق شاعرٌ واحد من أهل حربه . ولقد قال فى أمّهات الاولاد قولا خالف فيه عمر ، فذكروه بذلك وعابوه ، فكيف تركوا أن يعيبوه بما كان يفتخر به مما لا فخر فيه عندهم ، وعابوه بقوله فى أمّهات الأولاد .

ثم يقال له : خبّرنا عن عبدالله بن عمر ، وقد أجازه النبيّ صلى الله عليه وآله يوم الخندق ، ولم يجزه يوم أحُد ، هل كان يُميّز ما ذكرته ؟ وهل كان يعلم فرْق ما بين النبيّ والمتنبي ، ويفصل بين السّحر والمعجزة ، إلى غيره مما عدّدت وفصّلت !

فإن قال : نعم وتحاسر على ذلك ، قيل له : فعلىٌّ عليه السلام بذلك أوْلى من ابن عمر ، لأنه أذكى وأفطن بلا خلاف بين العقلاء ، وأنّى يُشكّ فى ذلك ، وقد رويتم أنه

---

(١) الوتح : القليل .

لم يميّز بين الميزان والعُود بعد طُول السنّ ، وكثرة التجارب ، ولم يميز أيضا بين إمام الرّشد وإمام الغيّ ، فإنه امتنع من بَيْعة على عليه السلام . وطرَق على الحجّاج بابه ليلا ليبايع لعبد الملك ؛ كيلا يبيت تلك الليلة بلا إمام ، زعم . لأنه روى عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال : « من مات ولا إمام له مات ميتة جاهلية » ، وحتى بلغ من احتقار الحجّاج له واسترذاله حاله ، أن أخرج رجله من الفراش ، فقال : أصفق بيدك عليها ، فذلك تمييزه بين الميزان والعود ، وهذا اختياره فى الأئمة ، وحال على عليه السلام فى ذكائه وفطنته ، وتوقّد حسّه ، وصدق حدْسه ، معلومة مشهورة ، فإن جاز أن يصحّ إسلام ابن عمر ، ويقال عنه إنه عرف تلك الأمور التى سردها الجاحظ ونسقها ، وأظهر فصاحته وتشدُّقه فيها ، فعلىّ بمعرفة ذلك أحقّ ، وبصحة إسلامه أوْلَى .

وإن قال : لم يكن ابن عمر يعلمُ ويعرف ذلك ، فقد أبطل إسلامه ، وطعن فى رسول الله صلى الله عليه وآله حيث حكَم بصحّة إسلامه وأجازه يوم الخندق ؛ لأنه عليه السلام كان قال : لا أجير إلّا البالغ العاقل ، ولذلك لم يجزه يوم أُحد .

ثم يقال له : إنّ ماتقوله فى بلوغ علىّ عليه السلام الحدّ الذى يحسن فيه التكليف العقلىّ بل يجب — وهو ابن عشر سنين — ليس بأعجب من مجىء الولد لستّة أشهر ، وقد صحّح ذلك أهلُ العلم ، واستنبطوه من الكتاب ، وإن كان خارجاً من التعارف والتجارب والعادة . وكذلك مجىء الولد لسنتين خارج أيضا عن التعارف والعادة ، وقد صحّحه الفقهاء والناس .

ويُرْوَى أن معاذاً لمّا نهى عمر عن رَجْم الحامل تركها حتى ولدتْ غلاما قد نبتت ثنيّتاه ، فقال أبوه : ابنى وربّ الكعبة ! فثبت ذلك سنّة يعمل بها الفقهاء ، وقد وجدنا العادة تقضى بأنّ الجارية تحيض لاثنتىْ عشرة سنة ، وأنّه أقلّ سنٍّ تحيض فيه المرأة ، وقد

يكون فى الأقلّ نساء يحِضْن لعشر ولتسع ، وقد ذكر ذلك الفقهاء ، وقد قال الشافعىّ فى اللّعان : لو جاءت المرأة بحمل وزوجها صبىّ له دون عشر سنين لم يكن ولدا له ، لأنّ من لم يبلغ عشر سنين من الصّبيان لا يولد له ، وإن كان له عشر سنين جاز أن يكون الولد له، وكان بينهما لِعان إذا لم يقرّ به .

وقال الفقهاء أيضا : إن نساء تهامة يحِضْنَ لتسع سنين ؛ لشدّة الحرّ ببلادهنّ .

* * *

قال الجاحظ : ولو لم يعرف باطل هذه الدّعوى مَنْ آثر التقوى ، وتحفّظ من الهوى، إلا بترك علىّ عليه السلام ذكرَ ذلك لنفسه والاحتجاجَ به على خصمه ، وقد نازع الرجالَ وناوَى الأكفاء ، وجامعَ أهلَ الشورى ؛ لكان كافيا ، ومتى لم تصحّ لعلى عليه السلام هذه الدعوى فى أيامه ، ولم يذكرها أهلُ عصره ، فهى عن ولده أعجز ، ومنهم أضعف !

ولم ينقل أنّ عليًّا عليه السلام احتجّ بذلك فى موقف ، ولا ذكره فى مجلس ، ولا قام به خطيبا ، ولا أدْلَى به واثقا ، لا سيما وقد رشّحه الرّسولُ صلى الله عليه وآله عندكم مفزعا ومعلّما ، وجعله للناس إماما . ولا ادّعى له أحدٌ ذلك فى عصره ، كما لم يدّعه لنفسه ؛ حتى يقول إنسان واحد : الدليل عَلَى إمامته أنّ النبى صلى الله عليه وآله دعاه إلى الإسلام أو كلّفه التصديق قبل بلوغه ، ليكون ذلك آيةً للناس فى عصره ، وحجّة له ولولده من بعده ؛ فهذا كان أشدّ على طلحة والزبير وعائشة من كلّ ما ادّعاه من فضائله وسوابقه وذكر قرابته [1] .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : إنّ مثلَ الجاحظ مع فضله وعلمه؛ لا يخفى عليه كذب

(١) العثمانية ٩ ــ ١٢ ، مع تصرف واختصار .

هذه الدّعوى وفسادها ، ولكنّه يقول مايقوله تعصّباً وعناداً ، وقد روى الناس كافّة، افتخارَ علي عليه السلام بالسّبق إلى الإسلام ، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله استُنبِئ يوم الاثنين ، وأسلم عليٌّ يومَ الثلاثاء ، وأنه كان يقول : صلّيت قبل الناس سبع سنين ، وأنه مازال يقول: أنا أوّلُ مَنْ أسلمَ ، ويفتخر بذلك، ويفتخر له به أولياؤه ومادحوه وشيعته في عصره و بعد وفاته . والأمر في ذلك أشهرُ من كلّ شهير ، وقد قدّمنا منه طرَفاً ، وما علمنا أحداً من الناس فيما خلا استخفّ بإسلام عليّ عليه السلام ، ولا تهاوَن به ، ولا زعم أنه أسلم إسلام حَدَثٍ غرير ، وطفل صغير . ومن العَجَب أن يكون مثل العبّاس وحمزة ينتظران أبا طالب وفعله ، ليصدرا عن رأيه ، ثم يخالفه عليّ ابنه لغير رغبة ولا رهبة ؛ يؤثر القلّة على الكثرة ، والذّلّ على العزّة من غير علْم ولا معرفة بالعاقبة .

وكيف ينكر الجاحظُ والعثمانية أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله دَعاه إلى الإسلام وكلّفه التّصديق !

وقد روى في الخبر الصّحيح أنه كلّفه في مبدأ الدعوة قبل ظهور كلمة الإسلام وانتشارها بمكّة أن يصنَع له طعاماً ، وأن يدعوَ له بني عبد المطّلب ، فصنع له الطعام ، ودعاهم له ، فخرجوا ذلك اليوم ، ولم ينذرهم صلّى الله عليه وآله لكلمة قالها عمّه أبو لهب ، فكلّفه في اليوم الثاني أن يصنع مثل ذلك الطعام ، وأنْ يدعوَهم ثانية ، فصنعه ، ودعاهم فأكلوا ، ثم كلّمهم صلى الله عليه وآله فدعاهم إلى الدّين ، ودعاه معهم لأنّه من بني عبد المطلب ، ثم ضمِن لمن يوازره منهم وينصره على قوله ، أن يجعله أخاه في الدين ، ووصيّه بعد موته ، وخليفتَه من بعده ، فأمسكوا كلُّهم وأجابه هو وحده ، وقال : أنا أنصرُكَ على ماجئت به ، وأوازرك وأبايعك، فقال لهم لمّا رأى منهم الخِذْلان ، ومنه النصر ، وشاهد منهم المعصية ومنه الطاعة ، وعاين منهم الإباء ومنه الإجابة : هـذا أخي ووصيّي وخليفتي من بعـدي ، فقاموا يسخرون ويضحكون ، ويقولون لأبي طالب : أطِعْ ابنَك ، فقـد أمّره عليك ، فهل يكلّف عمل

الطعام ودعاء القوم صغير مميّز وغرٌ غير عاقل ! وهل يؤتمن على سرّ النبوة طفلٌ ابن خمس سنين أو ابن سبع ! وهل يُدْعى فى جملة الشيوخ والكهول إلّا عاقل لبيب ! وهل يضع رسول الله صلى الله عليه وآله يده فى يده ، و يعطيه صَفْقَة يمينه ؛ بالأُخُوّة والوصيّة والخلافة إلّا وهو أهلٌ لذلك ، بالغٌ حدّ التكليف ، محتمل لولاية الله وعداوة أعدائه ! وما بالُ هـذا الطفل لم يأنس بأقرانه ، ولم يلصَقْ بأشكاله ، ولم يُرَ مع الصبيان فى ملاعبهم بعد إسلامه ، وهو كأحدهم فى طبقته ، كبعضهم فى معرفته !

وكيف لم ينزع إليهم فى ساعة من ساعاته ، فيقال : دعاه داعى الصِّبا وخاطر من خواطر الدنيا ، وحملته الغِرّة والحداثة على حضور لهوهم والدخول فى حالهم ، بل ما رأيناه إلّا ماضيا على إسلامه ، مصمّما فى أمره ، محقّقا لقوله بفعله ؛ قد صدّق إسلامه بعفافه وزُهْده ؛ ولصق برسول الله صلى الله عليه وآله من بين جميع مَنْ بحضرته ؛ فهو أمينه وأليفه فى دنياه وآخرته ؛ وقد قهر شهوته ، وجاذب خواطره ، صابراً على ذلك نفسَه؛ لما يرجو من فوز العاقبة وثواب الآخرة ، وقد ذكر هو عليه السّلام فى كلامه وخطبه بدء حاله ، وافتتاحَ أمره ، حيث أسلم لما دعا رسول الله صلى الله عليه وآله الشجرة ، فأقبلت تخدّ الأرض ؛ فقالت قريش : ساحر خفيف السّحر ! فقال علىٌّ عليه السلام : يا رسولَ الله ، أنا أوّل مَنْ يؤمن بك ، آمنت بالله ورسوله وصدّقتك فيما جئتَ به ، وأنا أشهد أنّ الشجرة فعلت ما فعلت بأمرِ الله ، تصديقاً لنبوّتك ، و برهانا على صحّة دعوتك ؛ فهل يكون إيمان قطّ أصحّ من هذا الإيمان وأوثقَ عُقْدةً ، وأحكم مِرّة ! ولكن حَنَقُ العثمانية وغيظهم ، وعصبيّة الجاحظ وانحرافه ممّا لا حيلة فيه . ثم لينظر المنصف وليدَع الهوى جانبا ، ليعلم نعمة الله على علىٍّ عليه السلام بالإسلام حيث أسلَم على الوضع الّذى أسلم عليه ، فإنه لولا الألطاف التى خُصّ بها ، والهداية التى مُنِحها ، لما كان إلّا كبعض أقارب محمد صلى الله عليه وأهله ، فقد كان ممازجاً له كممازجته ، ومخالطاً له كمخالطة كثير من أهله ورهطه ،ولم يستجبْ منهم

أحدٌ له إلّا بعد حين . ومنهم من لم يستجبْ له أصلا ؛ فإنّ جعفراً عليه السلام كان ملتصقاً به ، ولم يُسلم حينئذ ، وكان عُتبة بن أبي لهب ابن عمّه وصهره زوج ابنته ولم يصدّقه، بل كان شديدا عليه ، وكان لخديجة بنون من غيره ، ولم يسلموا حينئذ ، وهم ربائبه[١] ومعه في دار واحدة . وكان أبو طالب أباه في الحقيقة وكافله وناصره ، والحامِيَ عنه ، ومَنْ لولاه لم تقم له قائمة ، ومع ذلك لم يُسلم في أغلب الروايات ، وكان العباس عمّه وصنو أبيه ، وكالقرين له في الولادة والمنشأ والتربية ، ولم يستجبْ له إلّا بعد حين طويل، وكان أبولهب عمّه، وكدمه ولحمه ، ولم يسلم ، وكان شديدا عليه ، فكيف ينسب إسلام علىّ عليه السلام إلى الإلف والتربية والقرابة واللُّحمة والتلقين والحضانة ، والدار الجامعة ، وطول العشرة والأنس والخلوة ! وقد كان كلّ ذلك حاصلًا لهؤلاء أو لكثير منهم ، ولم يهتد أحدٌ منهم إذ ذاك ، بل كانوا بين [من][٢] جحَدَ وكَفَر ومات على كفره ، ومَنْ أبطأ وتأخّر ، وسُبق بالإسلام وجاء سُكَيتا[٣] ؛ وقد فاز بالمنزلة غيرُه .

وهل يدلّ تأمل حال علىّ عليه السلام مع الإنصاف إلّا على أنّه أسلم ، لأنه شاهد الأعلام ، ورأى المعجزات ، وشمّ ريح النبوة ، ورأى نور الرسالة ، وثبت اليقينُ في قلبه بمعرفة وعلم ونظر صحيح ؛ لا بتقليد ولا حَمِيّة ، ولا رغبة ولا رهبة ، إلا فيما يتعلق بأمور الآخرة .

* * *

قال الجاحظ : فلو أنّ عليا عليه السلام كان بالغا حيث أسلم ؛ لكان إسلام أبي بكر وزيد بن حارثة وخبّاب بن الأرتّ أفضلَ من إسلامه ، لأن إسلام المقتضب[٤] الذى لم يعتدّ به ولم يعوّده ، ولم يمرّن عليه ،أفضلُ من إسلام الناشيء الذى رُبِّيَ فيه ، ونشأ وحُبّب

(١) الربائب : أولاد الزوج .
(٢) من ا
(٣) السكيت : آخر الحلبة .
(٤) المقتضب : غير المستعد للشيء .

إليه ، وذلك لأنّ صاحب الفرية يبلُغ حيث يبلغ وقد أسقط الله عنه مؤنة الرّوية والخاطر ، وكفاه علاج القلب واضطراب النفس ، وزيد وخبّاب وأبو بكر يعانون من كُلفة النظر ومؤنة التأمّل ومشقة الانتقال من الدّين الذى قد طال الفهم لماهو غير خافٍ .
ولو كان علىّ حيث أسلم بالغا مقتضبا كغيره ممّنْ عددنا ، كان إسلامُهم أفضلَ من إسلامه ، لأنّ منْ أسلم وهو يعلم أنّ له ظهراً كأبى طالب ، وردءا كبنى هاشم ، وموضعا فى بنى عبد المطلب ، ليس كالحليف والمولى ، والتابع والعسيف[1] ، وكالرجل من عُرْض قريش[2] ، أولستَ تعلم أنّ قريشا خاصّةً وأهل مكة عامّة لم يقدروا على أذى النبىّ صلى الله عليه وآله ، ما كان أبو طالب حيًّا ! وأيضا فإنّ أولئك اجتمع عليهم مع فراق الإلف مشقّة الخواطر ، وعلىّ عليه السلام كان بحضرة الرسول صلى الله عليه وآله ، يشاهد الأعلام فى كلّ وقت ، ويحضر منزل الوحى ، وتبراهين له أشدُّ انكشافا ، والخواطر على قلبه أقلُّ اختلاجا ، وعلى قدْر الكُلفة والمشقة يعظُم الفضل ، ويكثر الأجر[3] .

* * *

قال أبو جعفر رحمه الله : ينبغى أن ينظر أهل الإنصاف هذا الفصل ، ويقفوا على قول الجاحظ والأصمّ فى نصرة العثمانية واجتهادهما فى القصد إلى فضائل هذا الرجل ، وتهجينها ، فمرة يبطلان معناها ، ومرة يتوصّلان إلى حطّ قدرها ، فلينظر فى كلّ باب اعتراضا فيه ، أين بلغت حيلتهما ، وما صنعا فى احتيالها فى قصصهما وسجعهما ! أليس إذا تأملتها علمتَ أنّها ألفاظٌ ملفقة بلا معنى ، وأنّها عليها شجًى وبلاء ! وإلا فما عسى أن تبلغَ حيلةُ الحاسد ويغنى كيد الكائد الشانئ[4] لمن قد جلّ قدره عن النقص ، وأضاءت فضائله إضاءة الشمس ! وأين قول الجاحظ ، من دلائل السماء ، وبراهين الأنبياء ، وقد علم

---

(١) العسيف : الأجير .
(٢) من عرض قريش ؛ أى من دهمائهم
(٣) العثمانية ٢٢ — ٢٤ ، مع تصرف واختصار كبير .
(٤) ب « الثانى » ، تحريف وصوابه من ا .

الصغيرُ والكبير ، والعالم والجاهل ، ممّن بلغه ذكرُ عليّ عليه السلام ، وعلم مبعثَ النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ عليا عليه السلام لم يولد فى دارِ الإسلام ، ولا غُذّى فى حِجْر الإيمان ، وإنما استصافه رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى نفسه سَنَة القَحْط والمجاعة ، وعمره يومئذ ثمانى سنين ، فمكث معه سبع سنين حتى أتاه جبرائيل بالرسالة ، فدعاه وهو بالغ كاملُ العقل إلى الإسلام ، فأسلمَ بعد مشاهدة المعجزة ، وبعد إعمال النظر والفكرة ، وإن كان قد ورد فى كلامه أنه صلّى سبعَ سنين قَبْل الناس كلّهم ، فإنما يعنى مابين الثمان والخمس عشرة ، ولم يكن حينئذ دعوة ولا رسالة ، ولا ادّعاء نبوّة ، وإنما كان رسول الله صلى عليه وآله يتعبّد على ملة إبراهيم ودين الحنيفيّة ، ويتحنّث ويجانب الناس ، ويعتزل ويطلب الخلوة ، وينقطع فى جبل حراء ، وكان علىّ عليه السلام معه كالتابع والتلميذ ، فلمّا بلغ الحُلُم ، وجاءت النبيّ صلى الله عليه وآله الملائكةُ ، وبشّرته بالرّسالة ، دعاه فأجابه عن نظر ومعرفة بالأعلام المعجزة ! فكيف يقول الجاحظ إن إسلامَه لم يكن مقتضبا !

وإن كان إسلامه ينقص عن إسلام غيره فى الفضيلة لِما كان يمرّن عليه من التعبّد مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الدّعوة ، لتكوننّ طاعة كثير من المكلّفين أفضلَ من من طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وأمثاله من المعصومين ، لأنّ العصمة عند أهلِ العدْل لطف يمنع من اختصّ به من ارتكاب القبيح ، فمن اختصّ بذلك اللّطف كانت الطاعة عليه أسهل ، فوجب أن يكون ثوابُه أنقصَ من ثواب مَن أطاع مع تلك الألطاف !

وكيف يقول الجاحظ إن إسلامه ناقصٌ عن إسلام غيره ، وقد جاء فى الخبر أنّه أسلم يومَ الثلاثاء ، واستنبِئ النبيّ صلى الله عليه وآله يوم الاثنين ، فمَن هذه حاله لم تكثر حججُ الرسالة على سمعه ، ولا تواترت أعلام النبوّة على مشاهدته ، ولا تطاول الوقت عليه لتخفّ محنته ، ويسقط ثقل تكاليفه ، بل بان فضلُه ، وظهر حسنُ اختياره لنفسه ، إذ أسلم فى حال بلوغه ، وعانى نوازعَ طبعه ، ولم يؤخّر ذلك بعد سماعه .

وقد غمز الجاحظ فى كتابه هذا أن أبا بكر كان قبل إسلامه مذكورا ، ورئيسا معروفا ، يجتمع إليه كثير من أهل مكة فينشدون الأشعار ، ويتذاكرون الأخبار، ويشربون الخمر ، وقد كان سمع دلائل النبوة ، وخُبِّر عن الرسل ، وسافر إلى البلدان ، ووصلت إليه الأخبار ، وعرف دعوى الكهنة وحِيَل السحرة؛ ومَنْ كان كذلك كان انكشافُ الأمور له أظهر والإسلامُ عليه أسهل ، والخواطر على قلب أقلّ اعتلاجا ، وكلُّ ذلك عونٌ لأبى بكر على الإسلام ، ومسهِّل إليه سبيله ، ولذلك لمّا قال النبىّ صلى الله عليه وآله: « أتيتُ بيتَ المقدس» سأله أبو بكر عن المسجد ومواضعه ، فصدّقه وبان له أمرُه ، وخفّت مؤنته لما تقدم من معرفته بالبيت ، فخرج إذاً إسلام أبى بكر على قول الجاحظ من معنى المقتضب . وفى ذلك رويتم عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : مادعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا وكان له تردّد ونبوة ، إلا ما كان من أبى بكر ، فإنه لم يتلعثم حتى هجم به اليقينُ إلى المعرفة والإسلام ، فأين هذا وإسلام من خلّى وعقله ، وألجئ إلى نظره ، مع صغر سنّه ، واعتلاج الخواطر على قلبه ونشأته ، فى صدّ ما دخل فيه ، والغالب على أمثاله وأقرانه حبُّ اللعب واللهو ، فلجأ إلى ماظهر له من دلائل الدّعوة ، ولم يتأخر إسلامه فيلزمه التقصير بالمعصية ، فقهر شهوته ، وغالب خواطِرَه ، وخرج من عادته وما كان غُذِّىَ به لصحّة نظره ، ولطافة فكره ، وغامض فهمه ، فعظُم استنباطُه ، ورجح فضله ، وشرُف قدر إسلامه ، ولم يأخذ من الدنيا بنصيب ؛ ولا تنعّم فيها بنعيم حَدَثا ولا كبيرا ، وحمى نفسه عن الهوى ، وكسر شِرّة حداثته بالتقوى ، واشتغل بهمّ الدين عن نعيم الدنيا ، وأشغل همّ الآخرة قلبه ، ووجّه إليه رغبته ؛ فإسلامه هو السّبيلُ الذى لم يُسلم عليه أحدٌ غيره ، وما سبيله فى ذلك إلا كسبيلِ الأنبياء ، ليعلم أن منزلته من النبىّ صلى الله عليه وآله كمنزلةِ هارون من موسى ، وأنه وإن لم يكن نبيًّا ؛ فقد كان فى سبيل الأنبياء سالكا ، ولمناهجهم متبعا ، وكانت حاله كحال إبراهيم عليه السلام ؛ فإنّ

أهل العلم ذكروا أنه لما كان صغيراً جعلته أمه فى سَرَب لم يطلع عليه أحد ، فلما نشأ ودرج وعقل قال لأمه : من ربى ؟ قالت : أبوك ، قال : فمن رب أبى ؟ فزبرته ونهرته ؛ إلى أن طلع من شق السرب ، فرأى كوكبا ، فقال : هذا ربى ، فلما أفل قال : لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربى ، فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ؛ فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال : ياقوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين ، وفى ذلك يقول الله جل ثناؤه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾[1] ، وعلى هذا كان إسلام الصديق الأكبر عليه السلام ، لسنا نقول إنه كان مساويا له فى الفضيلة ، ولكن كان مقتديا بطريقه على ما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] . وأما اعتلال الجاحظ بأن له ظهراً كأبى طالب وردءا كبنى هاشم ، فإنه يوجب عليه أن تكون محنة أبى بكر وبلال وثوابهما وفضل إسلامهما أعظم مما لرسول الله صلى الله عليه وآله ، لأن أبا طالب ظهره ، وبنى هاشم ردؤه ؛ وحسبك جهلاً من معاند لم يستطع حط قدر على عليه السلام إلا بحطه من قدر رسول الله صلى الله عليه وآله ! ولم يكن أحد أشد على رسول صلى الله عليه وآله من قراباته ، الأدنى منهم فالأدنى ، كأبى لهب عمه وامرأة أبى لهب ؛ وهى أم جميل بنت حرب بن أمية وإحدى أولاد عبد مناف ، ثم ما كان من عقبة بن أبى معيط ، وهو ابن عمه ، وما كان من النضر بن الحارث ، وهو من بنى عبد الدار بن قصى ، وهو ابن عمه أيضاً ، وغير هؤلاء ممن يطول تعداده ، وكلهم كان يطرح الأذى فى طريقه ، وينقل أخباره ، ويرميه بالحجارة ، ويرمى الكرش

---

(١) سورة الأنعام ٧٥ — (٢) سورة آل عمران ٦٨

والقَرْث عليه ، وكانوا يؤذُون عليًا عليه السلام كأذاه ، ويجتهدون في غمّة ويستهزئون به ، وما كان لأبي بكر قرابة تؤذيه كقرابة علىّ ، ولما كان بين علىّ وبين النبىّ صلى الله عليه وآله من الاتحاد والإلف والاتفاق ، أحجم المنافقون بالمدينة عن أذى رسول الله صلى الله عليه وآله خوفًا من سيفه ، ولأنه صاحب الدار والجيش ، وأمرُه مطاع ، وقوله نافذ ، فخافوا على دمائهم منه ، فاتقوْه ، وأمسكوا عن إظهار بغضه ، وأظهروا بغضَ علىٍّ عليه السلام وشنآنه ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله في حقه في الخبر الّذي روى في جميع الصّحاح : «لا يحبّك إلا مؤمن ، ولا يُبغضك إلا منافق» . وقال كثير من أعلام الصحابة كما رُوِىَ في الخبر المشهور بين المحدّثين : « ما كنا نعرف المنافقين إلّا ببغض علىّ ابن أبي طالب» . وأين كان ظهر أبي طالب عن جعفر ؛ وقد أزعجه الأذى عن وطنه ؛ حتى هاجر إلى بلاد الحبشة وركب البحر ؟ أيتوهم الجاحظ أن أبا طالب نصر عليا ، وخذل جعفرا !

* * *

قال الجاحظ: ولأبي بكر فضيلة في إسلامه أنه كان قبل إسلامه كثير الصّديق ، عريض الجاه ، ذا يسارٍ وغِنًى ، يعظَّم لماله ، ويستفاد من رأيه ، فخرج من عزّ الغِنَى وكثرة الصديق إلى ذُلّ الفاقة وعجز الوحدة ، وهذا غير إسلام مَنْ لا حَرَاك به ، ولا عزّ له ، تابع غير متبوع ، لأنّ مِنْ أشدّ ما يبتلَى الكريم به ، السبّ بعد التحيّة ، والضّرب بعد الهيبة ، والعُسْر بعد اليسر . ثم كان أبو بكر داعيةً من دعاة الرّسول ، وكان يتلوه في جميع أحواله ؛ فكان الخوف إليه أشدّ ، والمكروه نحوه أسرع ، وكان مِمّن تحسُن مطالبته ، ولا يستحى من إدراك الثأر عنده ، لنباهته ، ونبه ذكره ، والحدَث الصغير يزدرى ويحتقر لصغَر سنّه وخمول ذكره[1] .

* * *

(١) العثمانية ٢٥ ، ٢٦ ، مع تصرف واختصار .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمّا ماذُكِر من كثرة المال والصديق ، واستفاضة الذّكْر وبعد الصِّيت وكِبَر السنّ ، فكلّه عليه لا له ، وذلك لأنه قد عُلِم أن من سيرة العرب وأخلاقها حفظَ الصديق والوفاء بالذّمام والتهيّب لذى الثَّرْوة واحترام ذى السنّ العالية ، وفى كلّ هذا ظَهْر شديد ، وسند وثقة يعتمد عليها عند المحن ، ولذلك كان المرء منهم إذا تمكّن من صديقه أبقى عليه ، واستحيا منه ، وكان ذلك سببا لنجاته والعفو عنه ، عَلَى أنّ عليّ بن أبى طالب عليه السلام إنْ لم يكن شهره سنُّه ، فقد شهره نسبُه وموضعه من بنى هاشم ، وإن لم يستفِضْ ذكره بلقاء الرجال ، وكثرة الأسفار استفاض بأبى طالب ، فأنتم تعلمون أنّه ليس تَيْمٌ فى بعد الصّيت كهاشم ، ولا أبو قحافة كأبى طالب ، وعلى حَسَب ذلك يعلُو ذكر الفتى على ذى السنّ ويبعد صيت الحدَث على الشيخ ، ومعلومٌ أيضا أنّ عليا على أعناق المشركين أثقل إذ كان هاشميًّا ، وإن كان أبوه حامىَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، والمانعَ لحوزته ؛ وعلىٌّ هو الذى فتح عَلَى العرب باب الخلاف ، واستهان بهم ، بما أظهر من الإسلام والصلاة ، وخالف رهطه وعشيرته ، وأطاع ابن عمّه فيما لم يعرَفْ من قبلُ ، ولا عهد له نظير ، كما قال تعالى : ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [(١)] . ثم كان بعدُ صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومشتكَى حزنه ، وأنيسه فى خَلْوته ، وجليسه وأليفه فى أيامه كلّها ، وكلّ هذا يوجب التحريضَ عليه ، ومعاداة العرب له ، ثم أنتمْ معاشرَ العثمانية ، تُثْبِتُون لأبى بكر فضيلةً بصحبة الرّسول صلى الله عليه وآله من مكّة إلى يثرب ، ودخوله معه فى الغار ، فقلتم : مرتبة شريفة وحالة جليلة ، إذ كان شريكه فى الهجرة ، وأنيسه فى الوَحشة ، فأين هذه من صُحْبة علىّ عليه السلام لَهُ فى خَلْوته ، وحيث لا يجد أنيساً غيره ؛ ليلَه ونهاره ، أيام مُقامه بمكّة يعبد الله

(١) سورة يس ٦

معه سرًّا، ويتكلّف له الحاجة جَهْراً ، ويخدمه كالعبد يخدم مولاه ، ويشفقُ عليه ويحوطه، وكالولد يبرّ والده ، ويعطف عليه . ولمّا سئلت عائشة مَنْ كان أحبّ النّاس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، قالت : أمّا من الرجال فعلىّ ، وأمّا من النساء ففاطمة .

* * *

قال الجاحظ : وكان أبو بكر من المفتونين المعذّبين بمكّة قبل الهجرة ، فضربه نوفل ابن خويلد المعروف بابن العَدَوِيّة مرتين ، حتى أدماه وشدّه مع طلحة بن عبيدالله فى قَرَن، وجعلهما فى الهاجرة عمير بن عثمان بن مرة بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة، ولذلك كانا يُدعيان القرينين، ولو لم يكن له غير ذلك لكان لحاقهُ عسيراً ، وبلوغ منزلته شديداً، ولو كان يوماً واحداً لكانَ عظيماً ، وعلىّ بن أبى طالب رافهٌ وادع ، ليس بمطلوب ولا طالب ، وليس أنه لم يكن فى طبعه الشّهامة والنّجدة وفى غريزته البسالة فى الشّجاعة ، لكنّه لم يكن قد تمّت أداته ، ولا استكملت آلته ورجال الطلب وأصحاب الثأر يُغمصون ذا الحداثة ويزدرون بذى الصِّبا والغرارة ، إلى أن يلحق بالرجال ، ويخرج من طبَع الأطفال[1] .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمّا القولُ فممكن والدعوى سهلة؛ سيّما على مثل الجاحظ ، فإنّه ليس على لسانه من دينه وعقله رقيب ؛ وهو من دَعْوَى الباطل غير بعيد ، فمعناه نزر ، وقوله لغو ، ومطلبه سجع ؛ وكلامه لعبٌ ولهو ؛ يقول الشىء وخلافه ، ويحسّنُ القول وضدّه ؛ ليس له من نفسه واعظ ، ولا لدعواه حدٌّ قائم ، وإلّا فكيف تجاسر على القول بأنّ عليا حينئذ لم يكن مطلوبًا ولا طالبًا ؛ وقد بيّنا بالأخبار الصحيحة ، والحديث المرفوع المسنَد أنه كان يوم أسلم بالغًا كاملًا منابذًا بلسانه وقلبه لمشركى قريش ، ثقيلًا على قلوبهم؛

(١) العثمانية ٢٧ ، ٢٨ .

وهو المخصوص دون أبي بكر بالحِصار في الشِّعب ؛ وصاحب الخلوات برسول الله صلى الله عليه وآله في تلك الظلمات ، المتجرّع لغصص المرار من أبي لهب وأبي جهل وغيرهما ، والمصطلي لكلّ مكروه ، والشّريك لنبيّه في كلّ أذى ؛ قد نهض بالحِمْل الثّقيل ، وبان بالأمر الجليل ؛ ومَنِ الذي كان يخرج ليلا من الشِّعب على هيئة السارق ، ويخفي نفسه ، ويضائل شخصه ؛ حتى يأتيَ إلى مَنْ يبعثه إليه أبو طالب من كُبَراء قريش ، كمطعم بن عديّ وغيره ؛ فيحمل لبني هاشم على ظهره أعدال الدقيق والقمح ؛ وهو على أشدّ خوف من أعدائهم ، كأبي جهل وغيره ، لو ظفروا به لأراقوا دَمه . أعليٌّ كان يفعل ذلك أيّام الحصار في الشِّعب ، أم أبو بكر ؟ وقد ذكر هو عليه السلام حاله يومئذ ، فقال في خطبة له مشهورة : فتعاقدوا ألّا يعاملونا ولا يناكحونا ، وأوقدت الحرب علينا نيرانَها ، واضطرونا إلى جبل وَعْر ؛ مؤمننا يرجو الثواب ، وكافرنا يحامي عن الأصل ؛ ولقد كانَتِ القبائلُ كلُّها اجتمعت عليهم ، وقطعوا عنهم المارّة والميرة ، فكانوا يتوقّعون الموت جوعاً ، صباحا ومساء ؛ لا يرون وجهاً ولا فَرَجا ؛ قد اضمحلّ عزمهم ، وانقطع رجاؤهم ، فمَنِ الذي خلص إليه مكروه تلك المحَن بَعد محمد صلى الله عليه وآله إلّا عليٌّ عليه السلام وحدَه ! وما عسى أن يقول الواصف والمطنب في هذه الفضيلة ، مِنْ تقصّي معانيها ، وبلوغ غاية كُنْهِها ؛ وفضيلة الصابر عندها ! ودامت هذه المحنة عليهم ثلاثَ سنين ، حتى انفرجت عنهم بقصّة الصحيفة ، والقصة مشهورة .

وكيف يستحسن الجاحظ لنفسه أن يقولَ في عليّ عليه السلام : إنه قبل الهجرة كان وادعاً رافها ، لم يكن مطلوباً ولا طالبا ، وهو صاحب الفِراش الّذي فدَى رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه ، ووقاه بمهجته ، واحتمل السّيوف ورضْخ الحجارة دونه . وهل ينتهي الواصف وإن أطنب ، والمادح وإن أسهب ، إلى الإبانة عن مقدار هذه الفضيلة ، والإيضاح بمزيّة هذه الخصيصة !

فأمّا قوله : إنّ أبا بكرٍ عُذِّبَ بمكّة ، فإنا لا نعلم أنّ العذاب كان واقعاً إلا بعبدٍ أو عسيفٍ[1] ، أو لمن لا عشيرة له تمنعه ، فأنتم في أبي بكر بين أمرين : تارة تجعلونه دخيلاً ساقطاً ، وهجيناً رذيلاً مستضعفاً ذليلاً ، وتارة تجعلونه رئيساً متّبعاً ، وكبيراً مطاعاً ، فاعتمدوا على أحد القولين لنكلّمكم بحسب ما تختارونه لأنفسكم . ولو كان الفضلُ في الفتنة والعذاب ، لكان عمّار وخبّاب وبلال وكلّ معذّب بمكّة أفضلَ من أبي بكر ، لأنّهم كانوا من العذاب في أكثر ممّا كان فيه ، ونزل فيهم من القرآن ما لم ينزل فيه ، كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾[2] ؛ قالوا : نزلت في خبّاب وبلال ، ونزل في عمّار قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾[3] ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يمرّ على عمّار وأبيه وأمّه ، وهم يعذّبون ، يعذّبهم بنو مخزوم لأنهم كانوا حلفاءهم ، فيقول : « صبراً آل ياسر فإنّ موعدكم الجنة » ؛ وكان بلال يقلّب على الرّمضاء ، وهو يقول : أحد أحد ! وما سمعنا لأبي بكر في شيء من ذلك ذكراً ، ولقد كان لعلي عليه السلام عنده يد غرّاء ، إن صحّ ما رويتموه في تعذيبه ، لأنه قتل نوفلَ بن خويلد وعمير بن عثمان يوم بدر ، ضرب نوفلاً فقطع ساقه ، فقال : أذكّرك الله والرحم ! فقال : قد قطع الله كلّ رحِمٍ وصِهرٍ إلّا مَنْ كان تابعاً لمحمد ، ثم ضربه أخرى ففاضت نفسُه ، وصمد لعمير بن عثمان التيميّ ، فوجده يروم الهرب ، وقد ارتجّ عليه المسلك ، فضربه على شراسيفِ صدره ، فصار نصفُه الأعلى بين رجليه ، وليس أنّ أبا بكر لم يطلب بثأره منهما ، ويجتهد ؛ لكنّه لم يقدر على أن يفعل فعلَ عليّ عليه السلام ، فبان عليٌّ عليه السلام بفعله دونه .

• • •

قال الجاحظ : ولأبي بكر مراتبُ لا يشركه فيها عليٌّ ولا غيره ، وذلك قبلَ الهجرة

(١) العسيف : الأجير .
(٢) سورة النحل ٤١
(٣) سورة النحل ١٠٦

فقد علم الناس أنّ عليا عليه السلام إنما ظهر فضلُه ، وانتشر صيتُه ، وامتحن ولقِىَ المشاقّ منذ يوم بدر ، وأنه إنما قاتل فى الزمان الذى استوى فيه أهل الإسلام ، وأهل الشرك ، وطمِعوا فى أن يكون الحرب بينهم سِجالا ، وأعلمهم الله تعالى أنّ العاقبة للمتقين ، وأبو بكر كان قبل الهجرة معذّباً ومطرودا مشرّدا ، فى الزمان الذى ليس بالإسلام وأهله نهوض ولا حركة ، ولذلك قال أبو بكر فى خلافته : طوبى لمن مات فى فأفأة الإسلام ؛ يقول : فى ضعفه[1] .

* * *

قال أبو جعفر رحمه الله : لا أشكّ أنّ الباطل خانَ أبا عثمان ، والخطأ أقعده، والخذلان أصاره إلى الحَيْرة ، فما علم وعرف حتى قال ماقال ، فزعم أنّ عليا عليه السلام قبل الهجرة لم يمتحن ولم يكابد المشاقّ ؛ وأنه إنما قاسى مشاقّ التكليف ومحن الابتلاء منذ يوم بدر ، ونسىَ الحصار فى الشِّعب ، وما مُنِى به منه ، وأبو بكر وادع رافهٌ ، يأكل مايريد ، ويجلس مع من يحب ؛ مخلًّى سِربُهُ ، طَيّبة نفسه ، ساكنا قلبه ، وعلىّ يقاسى الغَمَرات ، ويكابد الأهوال ، ويجوع ويظمأ ، ويتوقّع القتل صباحا ومساء ، لأنه كان هو المتوصّل المحتال فى إحضار قوت زهيد من شيوخ قريش وعقلائها سرًّا ، ليقيم به رمَق رسول الله صلى الله عليه وآله وبنى هاشم ، وهم فى الحصار ، ولا يأمن فى كلّ وقت مفاجأة أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله له بالقتل ، كأبى جهل بن هشام وعُقْبة بن أبى مُعَيط ، والوليد بن المغيرة ، وعُتْبة ابن ربيعة وغيرهم من فراعنة قريش وجبابرتها ، ولقد كان يجيع نفسه ويطعِم رسولَ الله صلى الله عليه وآله زاده ، ويظمِّئ نفسه ويسقيه ماءه ، وهو كان المعلّل له إذا مرض ، والمؤنس له إذا استوحش ؛ وأبو بكر بنجوة عن ذلك لايمسّه مما يمسّهم ألم ؛ ولم يلحقه مما يلحقهم مشقّة ، ولا يعلم بشىء من أخبارهم وأحوالهم ، إلّا على سبيل الإجمال دون التفصيل ؛ ثلاث سنين ، محرّمة معاملتهم ومناكحتهم ومجالستهم ، محبوسين محصورين ممنوعين من الخروج

(١) العثمانية ٣٩ ، ٤٠ مع تصرف واختصار .

والتصرف فى أنفسهم ، فكيف أهمل الجاحظ هذه الفضيلة ، ونسىَ هذه الخصيصة ، ولا نظير لها ! ولكن لا يبالى الجاحظ بعد أن يُسوِّغ له لفظُه ، وتتسق له خطابته ، ماضيّع من المعنى ، ورجع عليه من الخطأ !

فأمّا قوله : واعلموا أنّ العاقبة للمتقين ، ففيه إشارة إلى معنى غامض قصده الجاحظ ـ يعنى أن لا فضيلة لعلىّ عليه السلام فى الجهاد ؛ لأنّ الرسول كان أعلمه أنه منصور ، وأنّ العاقبة له ـ وهذا من دسائس الجاحظ وهَمَزاته ولمزاته ، وليس بحقّ ما قاله ، لأنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله أعلم أصحابه جملة أنّ العاقبة لهم ؛ ولم يعلم واحداً منهم بعينه أنّه لا يُقتل، لا عليًا ولا غيره ، وإن صحّ أنه كان أعلمه أنه لا يُقتل ، فلم يعلمه أنّه لا يقطع عضو من أعضائه ؛ ولم يعلمه أنه لا يمسّه ألم الجراح فى جسده ، ولم يعلمه أنّه لا يناله الضرب الشديد. وعلى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد أعلم أصحابه قبل يوم بدر ـ وهو يومئذ بمكّة ـ أنّ العاقبة لهم ، كما أعلم أصحابه بعد الهجرة ذلك ، فإن لم يكن لعلىّ والمجاهدين فضيلة فى الجهاد بعد الهجرة لإعلامه إيّاهم ذلك ؛ فلا فضيلة لأبى بكر وغيره فى احتمال المشاقّ قبل الهجرة ؛ لإعلامه إيّاهم بذلك ، فقد جاء فى الخبر أنّه وعد أبا بكر قبل الهجرة بالنَّصر، وأنّه قال له : أرسلت إلى هؤلاء بالذبح، وإن الله تعالى سيغنّمنا أموالَهم ، ويملّكنا ديارهم ، فالقول فى الموضعين متساوٍ ومتفق.

• • •

قال الجاحظ : وإنّ بين المحنة فى الدهر الذى صار فيه أصحاب النبى صلى الله عليه وآله مقرَّنين لأهل مكة ومشركى قريش ، ومعهم أهلُ يثرب أصحاب النخيل والآطام والشجاعة والصبر والمواساة ، والإيثار والمحاماة والعدد الدَّثْر ، والفعل الجزْل ، وبين الدهر الذى كانوا فيه بمكّة يُفتنون ويُشتمون ، ويضربون ويشرَّدون ، ويجوعون ويعطشون ،

مقهورين لا حراك بهم ، وأذلاء لا عز لهم ، وفقراء لا مالَ عندهم ، ومستخفين لا يمكنهم إظهار دعوتهم ؛ لفرقا واصحا ؛ ولقد كانوا في حالٍ أحوجت لوطاً وهو نبيّ إلى أن قال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [1] ؛ وقال النبي صلى الله عليه وآله : «عجبت من أخي لوط ، كيف قال : أو آوى إلى ركن شديد ، وهو يأوى إلى الله تعالى !» ثم لم يكن ذلك يوما ولا يومين ولا شهرا ولا شهرين ، ولا عاماً ولا عامين ، ولكن السنين بعد السنين . وكان أغلظ القوم وأشدّهم محنة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أبو بكر ، لأنه أقام بمكّة ماأقام رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث عشرة سنة ، وهوأوسط ماقالوا في مُقام النبي صلى الله عليه وآله [2] .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : ما زاد الجاحظ احتجّ لكون أبي بكر أغلظهم وأشدّهم محنة ، إلا بقوله : لأنه أقام بمكّة مدّة مُقام الرسول صلى الله عليه وآله بها ، وهذه الحجّة لا تخصّ أبا بكر وحده ، لأنّ عليا عليه السلام أقام معه هذه المدّة ، وكذلك طلحة وزيد وعبد الرحمن وبلال وخبّاب وغيرهم ، وقد كان الواجب عليه أن يخصّ أبا بكر وحدَه بحجّةٍ تدلّ على أنّه كان أغلظَ الجماعة ، وأشدّهم محنةً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فالاحتجاج في نفسه فاسد .

ثم يقال له : ما بالك أهملتَ أمر مَبيت عليّ عليه السلام على الفراش بمكّة ليلة الهجرة ! هل نسيته أم تناسيته ! فإنها المحنة العظيمة والفضيلة الشريفة الّتي متى امتحنها الناظر ، وأجال فكره فيها ، رأى تحتها فضائل متفرّقة ومناقب متغايرة ، وذلك أنه لما استقرّ الخبر عند المشركين أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله مجمع على الخروج من بينهم للهجرة

---

(١) سورة هود ٨٠ (٢) العثمانية ٤٦

إلى غيرهم قصدوا إلى مساحته ، وتعاقدوا على أن يبيّتوه فى فِراشه ، وأن يضربُوه بأسياف كثيرة ، بيد كلّ صاحب قبيلة من قريش سيف منها، ليضيع دمُه بين الشعوب ، ويتفرّق بين القبائل ، ولا يطلب بنو هاشم بدمه قبيلةً واحده بعينها من بطون قريش ، وتحالفوا على تلك الليلة ، واجتمعوا عليها ، فلمّا علم رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك من أمرهم ، دعا أوثق النّاس عنده ، وأمثلهم فى نفسه ، وأبذلهم فى ذات الإله لمهجته ، وأسرعهم إجابة إلى طاعته ، فقال له : إنّ قريشا قد تحالفتْ على أن تبيّتنى هذه الليلة ، فامض إلى فراشى ، ونَمْ فى مضجعى ، والتفّ فى بُرْدِى الحضرمىّ ليروا أنى لم أخرج ، وإنّى خارج إن شاء الله ، فمنعه أوّلًا من التحرّز وإعمال الحيلة ، وصدّه عن الاستظهار لنفسه بنوع من أنواع المكايد والجهات التى يحتاط بها النّاس لنفوسهم ، وألجأه إلى أن يعرّض نفسه لظُبَاتِ السّيوف الشّحيذة من أيدى أرباب الحَنَق والبيطة ، فأجاب إلى ذلك سامعاً مطيعاً طيّبة بها نفسُه ، ونام على فِراشه صابرا محتسبا ، واقياً له بمهجته، ينتظر القتل ،ولا نعلم فوق بذْل النفس درجةً يلتمسها صابر ، ولا يبلغها طالب ؛ « والجود بالنّفس أقصى غاية الجود» ؛ ولولا أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله علم أنّه أهلٌ لذلك ، لمَا أهّلَه ، ولو كان عنده نقصٌ فى صبره أو فى شجاعته أو فى مناصحته لابن عمّه ، واختير لذلك لكان من اختاره صلّى الله عليه وآله منقوضاً فى رأيه ، مضيّعًا فى اختياره ، ولا يجوز أن يقول هذا أحد من أهل الإسلام ، وكلّهم مجمعون على أنّ الرسول صلى الله عليه وآله عمل الصواب ، وأحسن فى الاختيار .

ثم فى ذلك — إذا تأمله المتأمّل — وجوهٌ من الفضْل :

منها أنه وإن كان عندَهُ فى موضع الثّقة فإنه غيرُ مأمونٍ عليه ألّا يضبط السرّ فيفسد التدبير بإفشائه تلك الليلة إلى من يلقيه إلى الأعداء .

ومنها أنّه وإن كان ضابطا للسرّ وثقة عند من اختاره ؛ فغيرُ مأمونٍ عليه الجُبْن عند

مفاجأة المكروه ، ومباشرة الأهوال ، فيفرّ من الفراش فيفطَنُ لموضع الحيلة ؛ ويطلب رسولَ الله صلى الله عليه وآله فيظفر به .

ومنها أنّه وإن كان ثقةً ضابطا للسرّ ، شجاعا نَجْدا ؛ فلعلّه غير محتمل للمبيت على الفراش ؛ لأنّ هذا أمرٌ خارج عن الشّجاعة إن كان قد قامه مقام المكتوف الممنوع ؛ بل هو أشدُّ مشقّة من المكتوف الممنوع ؛ لأنّ المكتوفَ الممنوع يعلَم من نفسه أنّه لا سبيل له إلى الهربَ ، وهذا يجدُ السّبيل إلى الهرب وإلى الدّفع عن نفسه ، ولا يهربُ ولا يدافع .

ومنها أنّه وإن كان ثقةً عنده ، ضابطا للسرّ ، شجاعا محتملا للمبيت على الفراش ، فإنه غير مأمون أن يذهب صبرُه عند العقوبة الواقعة ، والعذاب النازل بساحته ، حتى يبوح بما عندَهُ ؛ ويصير إلى الإقرار بما يعلمه ، وهو أنّه أخذ طريقَ كذا فيطلب فيؤخذ ، فلهذا قال علماء المسلمين : إنّ فضيلة عليّ عليه السلام تلك الليلة لا نعلم أحداً من البشر نال مثلها ، إلّا ما كان من إسحاق وإبراهيم عند استسلامه للذّبح ، ولولا أنّ الأنبياء لا يفضلُهم غيرهم لقلنا : إنّ محنة عليّ أعظمُ ؛ لأنه قد روى أن إسحاق تلكّأ لما أمرَه أن يضطجع ، وبكى عَلَى نفسه ، وقد كان أبوه يعلم أنّ عنده في ذلك وقفة ، ولذلك قال له : ﴿ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾[1] ؛ وحال عليّ عليه السلام بخلاف ذلك ، لأنه ما تلكّأ ولا تعتع ، ولا تغيّر لونُهُ ، ولا اضطربت أعضاؤه ، ولقد كان أصحابُ النبيّ صلى الله عليه وآله يُشيرون عليه بالرأى المخالف لما كان أمر به ، وتقدّم فيه ، فيتركه ويعمل بما أشاروا به ، كما جرى يومَ الخندق في مصانعتِهِ الأحزاب بثلث تمر المدينة ، فإنّهم أشاروا عليه بترك ذلك ، فتركه ، وهذه كانت قاعدتُه معهم ، وعادته بينهم ، وقد كان لعليّ عليه السلام أن يعتلّ بعلّة ، وأن يقف ويقول : يارسول الله ، أكون معك أحميك من العدوّ ، وأذبّ بسيفي عنك ، فلستَ

(١) سورة الصافات ١٠٢ .

مستغنياً فى خروجك عن مثلى ، وتجعلُ عبداً من عبيدنا فى فراشك ، قائماً مقامك ، يتوهم القوم ـ برؤيته نائماً فى بُرْدِك ـ أنك لم تخرج ، ولم تفارق مركزك ؟ فلم يقل ذلك ، ولا تحبّس ولا توقّف ، ولا تلعثم ، وذلك لعلم كلٍّ واحدٍ منهما صلى الله عليه وآله أن أحداً لا يصبر على ثِقَلِ هذه المحنة ، ولا يتورّط هذه الهلكة ؛ إلا مَنْ خصّه الله تعالى بالصّبر على مشقّتها ، والفوزِ بفضيلتها، وله من جنْس ذلك أفعالٌ كثيرة ، كيوم دعا عمرو بن عبد وُدّ المسلمين إلى المبارزة ، فأحجم النّاس كلّهم عنه ، لما علموا من بأسه وشدّته ، ثم كرّر النداء، فقام علىٌّ عليه السلام ، فقال : أنا أبرزُ إليه ، فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وآله : إنّه عمرو ! قال: نعم ، وأنا علىّ ! فأمره بالخروج إليه ، فلمّا خرجَ قال صلى الله عليه وآله : « برز الإيمانُ كلّه إلى الشّرك كلّه » ، وكيوم أُحُد حيث حَمَى رسولَ الله صلى الله عليه وآله من أبطال قُرَيش وهم يقصدون قتله ، فقتلهم دونَه ، حتى قال جبريل عليه السلام : « يامحمّد إنّ هذه هى المواساة » ، فقال : « إنّه منى وأنا منه » ، فقال جبريل : « وأنا منكما » .

ولو عددنا أيامه ومقاماته التى شَرَى فيها نفسه لله تعالى لأطلنا وأسهبنا .

• • •

قال الجاحظ : فإن احتجّ محتجٌّ لعلىٍّ عليه السلام بالمبيت على الفراش ، فبَيْن الغار والفِراش فَرْقٌ واضح،لأنّ الغارَ وصحبة أبى بكر للنبىّ صلى الله عليه وآله قد نطَق به القرآن، فصار كالصّلاة والزّكاة وغيرهما ، مما نطق به الكتاب ، وأمر علىٍّ عليه السلام ونومُه على الفراش ، وإن كان ثابتاً صحيحاً ، إلّا أنّه لم يذكَرْ فى القرآن ، وإنّما جاء مجىء الروايات والسِّيَر ، وهذا لا يوازن هذا ولا يكايله[1] .

• • •

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : هـذا فرق غير مؤثّر ، لأنه قد ثبتَ بالتواتُر حديث

(١) العثمانية ٤٤ .

الفِراش ، فلا فرق بينه وبين ما ذكر فى نصّ الكتاب ، ولا يجحَدُه إلّا مجنون أو غير مخالِط لأهل الملة ، أرأيت كونَ الصلواتِ خمساً ، وكون زكاة الذهب ربعَ العشر ، وكون خروج الريح ناقضا للطهارة ، وأمثال ذلك مما هو معلوم بالتواترُ حكمُه ؟ هل هو مخالف لما نصّ فى الكتاب عليه من الأحكام ! هذا مما لا يقوله رشيد ولا عاقل ، على أن الله تعالى لم يذكر اسم أبى بكر فى الكتاب ، وإنما قال : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ ﴾[1] ، وإنما علمنا أنه أبو بكر بالخبر وما ورد فى السيرة ، وقد قال أهل التفسير : إن قوله تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[2] كناية عن علىّ عليه السلام ، لأنه مكر بهم ، وأول الآية : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[2] ، أنزلت فى ليلة الهجرة ، ومكرُهم كان توزيعَ السيوف على بطون قريش ، ومكرُ الله تعالى هو منامُ علىّ عليه السلام على الفِراش ، فلا فرق بين الموضعين فى أنهما مذكوران كناية لا تصريحا . وقد روى المفسرون كلُّهم أن قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾[3] ، أنزلت فى علىّ عليه السلام ليلةَ المبيت على الفِراش ، فهذه مثل قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ ﴾ ، لا فرق بينهما .

* * *

قال الجاحظ : وفرقٌ آخر ، وهو أنه لو كان مبيتُ علىّ عليه السلام على الفِراش ، جاء مجىء كون أبى بكر فى الغار ، لم يكن له فى ذلك كبير طاعة ، لأنّ الناقلين نقلوا أنه صلّى الله عليه وآله قال له : « نَمْ فلَنْ يخلص إليك شىء تكرهه » ، ولم ينقلْ ما نقل أنه

---

(١) سورة التوبة ٤٠
(٢) سورة الأنفال ٣٠
(٣) سورة البقرة ٢٠٧

قال لأبى بكر فى صُحبته إياه وكونه معه فى الغار مثل ذلك ، ولا قال له : أنفِقْ وأعتِق ، فإنك لن تفتقر ، ولن يصلَ إليك مكروه[1] .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله ، هذا هو الكذب الصُّراح ، والتحريف والإدخال فى الرّواية ماليس منها ، والمعروف المنقول أنّه صلى الله عليه وآله قال له : اذهَبْ فاضطجع فى مضجعى ، وتغَشَّ بِبُردِى الحضرمىّ ، فإنّ القوم سيفقدوننى ، ولا يشهدون مضجعى ، فلعلّهم إذا رأوك يسكِّنهم ذلك حتى يصبحوا ، فإذا أصبحت فاغدُ فى أداء أمانتى ؛ ولم ينقل ماذكره الجاحظ ، وإنما ولّده أبو بكر الأصمّ ، وأخذه الجاحظ ، ولا أصلَ له ، ولو كان هذا صحيحا لم يصلْ إليه منهم مكروه ، وقد وقع الاتفاق على أنّه ضُرِب ورمى بالحجارة قبل أنْ يعلموا مَنْ هو حتى تضوّر ، وأنهم قالوا له : رأينا تضوّرك ، فإنا كنا نرمى محمدا ولا يتضوّر ، ولأنّ لفظة المكروه إن كان قالها إنما يراد بها القتل ، فهب أنّه أمِن القتل ، كيف يأمن من الضّرب والهوان، ومِنّ أن ينقطع بعض أعضائه ، وبأن سلمت نفسه ! أليس الله تعالى قال لنبيّه : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[2] ومع ذلك فقد كسرت رَباعيتُه وشجّ وجهه ، وأدميت ساقه ، وذلك لأنها عصمة من القتل خاصّة ، وكذلك المكروه الذى أومن على عليه السلام منه ـ إن كان صحّ ذلك فى الحديث ـ إنما هو مكروه القتل .

ثم يقال له : وأبو بكر لا فضيلة له أيضا فى كونه فى الغار ، لأنّ النبى صلى الله عليه وآله قال له : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، ومَنْ يكن الله معه فهو آمن لا محالة من كلّ سوء ، فكيف قلت : ولم ينقل ناقل أنه قال لأبى بكر فى الغار مثل ذلك! فكلّ ماتجيب به عن هذا فهو جوابنا عمّا أورده ، فنقول له : هذا ينقلبُ عليك فى النبىّ صلى الله عليه

(١) العثمانية ٤٥ (٢) سورة المائدة ٦٧

وآله ، لأنّ الله تعالى وعده ظهور دينه ، وعاقبة أمره ، فيجب على قولك ألّا يكونَ مثاباً عنـــد الله تعالى على مايحتمله من المـكروه ، ولا مايصيبه من الأذى ، إذ كان قد أيقنَ بالسّلامة والفتح فى عِدّته .

* * *

قال الجاحظ : ومَنْ جحد كون أبى بكرٍ صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وآله فقد كَفَر ، لأنه جَحَد نصّ الـكتاب ، ثم انظر إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [1] من الفضيلة لأبى بكر ، لأنه شريك رسول الله صلى الله عليه وآله فى كون الله تعالى معه وإنزال السكينة ، قال كثير من الناس : إنه فى الآية مخصوص بأبى بكر ، لأنه كان محتاجا إلى السّكينة لما تداخله من رقّة الطبع البشرىّ ، والنبى صلى الله عليه وآله كان غيرَ محتاجٍ إليها ، لأنه يعلم أنه محروس من الله تعـالى ، فلا معنى لنزول السكينة عليـه ، وهـــذه فضيلة ثالثة لأبى بكر .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمــه الله : إن أبا عثمان يجرّ عَلَى نفسه مالاطاقةَ له به من مطاعِن الشّيعة ، ولقد كان فى غُنْية عن التعلّق بما تعلّق به ، لأنّ الشيعة تزعمُ أنّ هذه الآية ، بأن تـكون طعناً وعيبا على أبى بكر ، أولى من أن تـكون فضيلة ومنقبة له ، لأنه لمَّا قال له : ﴿ لَا تَحْزَنْ ﴾ دلّ على أنه قد كان حزن وقنِط وأشفق على نفسه ، وليس هذا من صفات المؤمنين الصابرين ، ولا يجوز أن يكون حزنه طاعةً ، لأنّ الله تعالى لا ينهى عن الطاعة ، فلو لم يكن ذنبا لم ينهَ عنه ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ ؛ أى إن الله عالم بحالنا وما نضمره من اليقين أو الشكّ ، كما يقول الرجل لصاحبه : لا تضمرنّ سوءاً ولا تنوينّ قبيحا ، فإنّ الله تعالى يعلم ما نسِرّه وما نعلنه ، وهـذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ﴾ [2] ، أى هو عالم بهم ، وأمّا السّكينة

(١) سورة التوبة ٤٠

(٢) سورة المجادلة ٧

فكيف يقول : إنها ليست راحة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وبعدها قوله : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ ، أترى المؤيَّد بالجنود كان أبا بكر أم رسول الله صلى الله عليه وآله !

وقوله : إنه مستغن عنها ، ليس بصحيح ولا يستغنى أحد عن ألطاف الله وتوفيقه وتأييده وتثبيت قلبه ، وقد قال الله تعالى في قصة حُنين : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾[1] صلى الله عليه وآله .

وأما الصّحبة فلا تدلّ إلاّ على المرافقة والاصطحاب لا غير ، وقد يكون حيث لا إيمان ، كما قال تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ ﴾ ، ونحن وإنْ كنّا نعتقد إخلاص أبي بكر وإيمانه الصّحيح السّليم وفضيلته التّامة ، إلّا أنّا لا نحتجّ له بمثل ما احتجّ به الجاحظ من الحجج الواهية ، ولا نتعلّق بما يجرّ علينا دواهي الشّيعة ومطاعنها .

* * *

قال الجاحظ : وإن كان المبيتُ على الفراش فضيلة ، فأين هي من فضائل أبي بكر أيام مكّة ، من عِتق المعذّبين وإنفاق المال وكثرة المستجيبين ، مع فرْق ما بين الطاعتين ، لأنّ طاعةَ الشابّ الغرير والحدَث الصغير الذى فى عزّ صاحبه عزّه ، ليست كطاعة الحليم الكبير الذى لا يرجع تسويدُ صاحبه إلى رهطه وعشيرته .

• • •

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمّا كثرة المستجيبين ، فالفضل فيها راجع إلى المجيب

---

(١) سورة التوبة ٢٥ ، ٢٦

لا إلى المحاب ، على أنّا قد علمنا أنّ من استجاب لموسى عليه السلام أكثر ممّن استجاب لنوح عليه السلام ، وثواب نوح أكثر ، لصبره على الأعداء ، ومقاساة خلافهم وعَنَتهم.

وأمّا إنفاق المال؛ فأين مِحْنة الغنيّ من محنة الفقير! وأين يعتدل إسلام من أسلم وهو غنيّ؟ إن جاع أكل ، وإن أعيا ركب ، وإن عرِيَ لبس ، قد وثق بيساره واستغنى بماله ، واستعان على نوائب الدنيا بثروته ، ممّن لا يجد قوتَ يومه ، وإن وجد لم يستأثر به ، فكان الفقرُ شعاره ، وفي ذلك قيل : الفقر شعار المؤمن . وقال الله تعالى لموسى : « ياموسى إذا رأيت الفقر مقبلًا ، فقل : مرحبا بشعار الصالحين» ، وفي الحديث : « إن الفقراء يدخلون الجنّة قبل الأغنياء بخمسمائة عام » ، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله يقول : « اللهمّ احشرني في زمرة الفقراء» ، ولذلك أرسَل الله محمداً صلى الله عليه وآله فقيراً ، وكان بالفقر سعيداً ، فقاسى مِحْنة الفقر ومكابدة الجوع ، حتى شدّ الحجر على بطنه ، وحسبك بالفقر فضيلة في دين الله لمن صبرَ عليه ، فإنّك لا تجدُ صاحبَ الدنيا يتمنّاه ، لأنه منافٍ لحال الدنيا وأهلها ، وإنما هو شعار أهل الآخرة.

وأما طاعةُ عليّ عليه السلام ، وكون الجاحظ زعَم أنّها كانت لأنّ في عزّ محمد عزّه وعزّ رهطه ، بخلاف طاعة أبي بكر ، فهذا يفتح عليه أن يكون جهاد حمزة كذلك، وجهاد عُبيدة بن الحارث ، وهجرة جعفر إلى الحبشة؟ بل لعلّ محاماة المهاجرين من قُريش على رسول الله صلى الله عليه وآله كانتْ لأنّ في دولته دولتهم ، وفي نصرته استجدادَ ملكٍ لهم ، وهذا يجرّ إلى الإلحاد ، ويفتح باب الزندقة ، ويُفضى إلى الطعن في الإسلام والنبوة.

* * *

قال الجاحظ : وعلى أنّا لو نزلنا إلى ما يريدونه ، جعلنا الفراش كالغار ، وخلصت فضائل أبي بكر في غير ذلك عن معارض.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : قد بيّنا فضيلة المبيت على الفراش على فضيلة الصُّحبة

فى الغار ، بما هو واضح لمن أنصف، ونريد هاهنا تأكيدا بما لم نذكره فيما تقدّم ، فنقول :
إنّ فضيلة المبيت على الفراش على الصُّحبة فى الغار لوجهين :

أحـدهما : أنّ عليا عليه السلام قد كان أنِس بالنبىّ صلى الله عليه وآله وحصل له بمصاحبته قديما أنسٌ عظيم ، وإلف شديد ، فلمّا فارقه عُدِم ذلك الأنس ، وحصل به أبو بكر ، فكان مايجده علىّ عليه السلام من الوَحشة وألم الفرقة موجبًا زيادة ثوابه ، لأنّ الثواب على قدر المشقّة .

وثانيهما : أنّ أبا بكر كان يؤثر الخروجَ من مكّة ، وقد كان خرج من قبل فرُدّ ، فازداد كراهية للمقام ، فلما خرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله وافق ذلك هوى قلبه ، ومحبوبَ نفسه ، فلم يكن له من الفضيلة ما يوازى فضيلة مَن احتمل المشقّة العظيمة ، وعرّض نفسه لوقع السيوف ، ورأسه لرضخ الحجارة ، لأنّه على قدر سهولة العبادة يكون نقصان الثواب .

* * *

قال الجاحظ : ثمّ الذى لقى أبو بكر فى مسجده الّذى بناه على بابه فى بنى جُمَح ، فقد كان بَنَى مسجدا يصلّى فيه ، ويدعو النّاس إلى الإسلام ، وكان له صوتٌ رقيق ، ووجه عتيقٌ ، وكان إذا قرأ بكى ، فيقف عليه المارّة من الرجال والنساء والصبيان والعَبيد ، فلمّا أوذِىَ فى الله ، ومُنِع من ذلك المسجد، استأذَن رسولَ الله صلى الله عليه وآله فى الهجرة ، فأذن له ، فأقبل يريد المدينة ، فتلقاه الكنانىّ[1] ، فعقد له جوارا ، وقال : والله لا أدعُ مثلك يخرج من مكّة ، فرجع إليها وعاد لصنيعه فى المسجد ، فمشت قريش إلى جاره الكنانىّ ، وأجلبوا عليه ، فقال له : دع المسجد وادخل بيتَك ، واصنع فيه مابدا لك[2] .

* * *

(١) الكنانىّ : هو مالك بن الدغنة ، أحد بنى الحارث بن بكر بن عبد مناة .
(٢) العثمانية ٢٨، ٢٩ مع تصرف واختصار .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : كيف كانت بنو جُمَح تؤذى عثمان بن مَظعون وتضرب ، وهو فيهم ذو سَطْوة وقَدْر ، وتترك أبا بكر يبنى مسجداً يفعل فيه ما ذكرتم ، وأنتم الذين رويتم عن ابن مسعود أنه قال : «ما صلّينا ظاهرين حتى أسلم عمر بن الخطاب» ، والذى تذكرونه من بناء المسجد كان قبل إسلام عمر ، فكيف هذا !

وأما ما ذكرتم من رقّة صوته وعَتاق وجهه ، فكيف يكون ذلك وقد روى الواقدىّ وغيره أنّ عائشة رأتْ رجلاً من العرب خفيفَ العارضين ، معروقَ الخدّين ، غائر العينين ، أجْنأ[1] لا يمسك إزاره ، فقالت : ما رأيت أشبه بأبى بكر من هذا ؟ فلا نراها دلّت على شىء من الجمال فى صفته !

• • •

قال الجاحظ : وحيث ردّ أبو بكر جوارَ ابن الدُّغُنّة ، وقال : لا أريد جاراً سوى الله ، لقىَ من الأذى والذلّ والاستخفاف والضرب ما بلغكم ، وهذا موجود فى جميع السِّير ، وكان آخر ما لقىَ هو وأهله فى أمر الغار ، وقد طلبته قريش وجعلتْ فيه مائة بعير ، كما جعلت فى النبىّ صلى الله عليه وآله ، فلقى أبو جهل أسماء بنت أبى بكر ، فسألها فكتمته ، فلطَمها حتى رَمَتْ قُرْطاً كان فى أذنها[2] .

• • •

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : هذا الكلام وهُجْر السكران سواء ، فى تقارب المخرج ، واضطراب المعنى ، وذلك أنّ قريشاً لم تقدر على أذى النبىّ صلى الله عليه وآله ، وأبو طالب حَىٌّ يمنعه ؛ فلما مات طلبته لتقتله ، فخرج تارةً إلى بنى عامر ، وتارة إلى ثقيف ، وتارة إلى بنى شيبان ، ولم يكن يتجاسر على المقام بمكّة إلا مستتراً ، حتى أجاره مطعم بن عدىّ ، ثم خرج إلى المدينة ، فبذلتْ فيه مائة بعير لشدّة حَنَقِها عليه حين فاتها ، فلم تقدر عليه ، فما بالها بذلت فى أبى بكر مائة بعير أخرى ، وقد كان ردّ الجوار ، وبقى بينهم فرْداً لا ناصر له

(١) الأجنأ : من الجنأ وهو ميل الظهر . (٢) العثمانية ٢٩ ، مع تصرف واختصار .

ولا دافع عنه ، يصنعون به ما يريدون ! إمّا أن يكونوا أجهلَ البريّة كلّها أو يكون العثمانية أكذبَ جيلٍ في الأرض وأوقحه وجها ! فهذا مما لم يذكر في سيرة ولا رُوِي في أثر ، ولا سمع به بَشَر ، ولا سبق الجاحظَ به أحد !

* * *

قال الجاحظ : ثمّ الذى كان من دعائه إلى الإسلام وحسن احتجاجه ؛ حتى أسلم على يديه طلحة والزبير وسعد وعثمان وعبد الرحمن ، لأنه ساعة أسلَمَ دعا إلى الله وإلى رسوله[1] .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : ما أعجب هذا القول ! إذ تدّعى العثمانية لأبي بكر الرّفق فى الدّعاء وحسن الاحتجاج ، وقد أسلم ومعه فى منزله ابنُه عبد الرحمن ، فما قدر أن يُدخله فى الإسلام طوعاً برفقه ولطف احتجاجه ، ولا كَرْهاً بقطع النفقة عنه وإدخال المكروه عليه ، ولا كان لأبى بكر عند ابنه عبد الرحمن من القَدْر ما يطيعه فيما يأمره به ، ويدعوه إليه ؛ كما روى أنّ أبا طالب فقد النبي صلى الله عليه وآله يوماً ، وكان يخاف عليه من قريش أن يغتالوه ، فخرج ومعه ابنه جعفر يطلُبان النبيّ صلى الله عليه وآله ، فوجده قائما فى بعض شِعاب مكّة يصلّى ، وعلىّ عليه السلام معه عن يمينه ، فلما رآهما أبو طالب ، قال لجعفر : تقدّم وصِلْ جناح ابن عمّك ، فقام جعفر عن يسار محمد صلى الله عليه وآله ، فلما صاروا ثلاثة تقدّم رسول الله صلى الله عليه وآله وتأخّر الأخَوَان ، فبكى أبو طالب ، وقال :

إنّ عليًّا وجعفرا ثقتى ... عند مُلِمّ الخطوب والنُّوَبِ
لا تخذلا وانصرا ابنَ عمّكما ... أخى لأمّى من بينهم وأبى
والله لا أخذل النبيّ وَلَا ... يخذله من بنىّ ذو حَسَبِ

---

(١) العثمانية ٣١ مع تصرف واختصار .

فتذكر الرواة أنّ جعفراً أسلم منذ ذلك اليوم؛ لأن أباه أمره بذلك وأطاع أمره؛ وأبو بكر لم يقدر على إدخال ابنه عبد الرحمن فى الإسلام حتى أقام بمكة على كفره ثلاث عشرة سنة، وخرج يوم أُحُدٍ فى عسكر المشركين ينادى: أنا عبد الرحمن بن عتيق، هل من مبارز؟ ثم مكث بعد ذلك على كفره، حتى أسلم عام الفتح، وهو اليوم الذى دخلت فيه قريش فى الإسلام طوعا وكرها، ولم يجد أحدٌ منها إلى ترك ذلك سبيلا! وأين كان رفق أبى بكر وحسن احتجاجه عند أبيه أبى قُحافة وهما فى دار واحدة! هلّا رفق به ودعاه إلى الإسلام فأسلم! وقد علمتم أنه بقىَ على الكفر إلى يوم الفتح، فأحضره ابنُه عند النبى صلى الله عليه وآله وهو شيخ كبير رأسه كالثَّغامة[1]، فنفر رسول الله صلى الله عليه وآله منه، وقال: غيِّرُوا هذا؛ فخضبوه، ثم جاءوا به مرة أخرى، فأسلم. وكان أبو قحافة فقيراً مدقعاً سيّئ الحال، وأبو بكر عندهم كان مثريا فائض المال، فلم يمكنه استمالته إلى الإسلام بالنفقة والإحسان، وقد كانت امرأة أبى بكر أم عبد الله ابنه ـ واسمها نُتَيلة بنت عبد العُزّى بن أسعد بن عبد ودّ العامرية ـ لم تسلم، وأقامت على شركها بمكة، وهاجر أبو بكر وهى كافرة. فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾[2]، طلقها أبو بكر. فمن عجز عن ابنه وأبيه وامرأته فهو عن غيرهم من الغرباء أعجز، ومن لم يقبل منه أبوه وابنه وامرأته لا برفق واحتجاج، ولا خوفا من قطع النفقة عنهم، وإدخال المكروه عليهم فغيرهم أقلُّ قبولا منه، وأكثر خلافا عليه!

* * *

قال الجاحظ: وقالت أسماء بنت أبى بكر: ما عرفتُ أبى إلا وهو يدين بالدين، ولقد رجع إلينا يوم أسلم، فدعانا إلى الإسلام، فما رمنا حتى أسلمنا، وأسلم أكثرُ جلسائه، ولذلك قالوا: مَنْ أسلم بدعاء أبى بكر أكثرُ ممن أسلم بالسيف، ولم يذهبوا فى ذلك إلى العدد؛ بل عنوا الكثرة فى القدر، لأنه أسلم على يديه خمسةٌ من أهل الشورى،

(١) الثغام: كسحاب: ضرب من النبات أبيض. (٢) سورة الممتحنة ١٠

كلهم يصلُح للخلافة ، وهم أكفاء عليّ عليه السلام ، ومنازعوه الرّياسة والإمامة ، فهؤلاء أكثرُ من جميع الناس(١) .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أخبرونا مَنْ هذا الذى أسلم ذلك اليوم من أهل بيت أبي بكر ؟ إذا كانت امرأته لم تسلِم، وابنهُ عبدالرحمن لم يسلِم ، وأبوقحافة لم يسلم، وأخته أم فَرْوة لم تسلِم ،وعائشة لم تكن قد ولدَتْ فى ذلك الوقت ، لأنها وُلِدت بعد مبعث النبيّ صلى الله عليهوآله بخمس سنين ، ومحمد بن أبي بكر ولِدَ بعد مَبْعث رسول الله صلى الله عليه وآله بثلاث وعشرين سنة ، لأنّه ولد فى حَجّة الوداع ، وأسماء بنت أبي بكر التى قد روَى الجاحظ هذا الخبرَ عنها كانت يوم بُعث رسول الله صلى الله عليه وآله بنتَ أربع سنين — وفى رواية مَنْ يقول : بنت سنتين — فمن الذى أسلم من أهل بيته يوم أسلَم ! نعوذ بالله من الجهل والكذب والمكابرة ! وكيف أسلَم عثمان والزّبير وعبد الرحمن بدعاء أبى بكر وليسوا من رهطه ولا من أترابِه ولا من جُلسائه ، ولا كانت بينهم قبل ذلك صداقة متقدّمة ، ولا أنس وَكيد ! وكيف ترك أبو بكر عُتبةَ بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، لم يدخلهما فى الإسلام برفقه وحسن دعائه ، وقد زعمتم أنّهما كانا يجلسان إليه لعلمه وطريف حديثه ! وما باله لم يدخل جبير بن مطعِم فى الإسلام ، وقد ذكرتم أنه أدّبه وخرّجه ، ومنه أخذ حُكْم العلم بأنساب قريش ومآثرها ! فكيف عجز عن هؤلاء الذين عَدّدْناهم ، وهم منه بالحال التى وصفنا، ودعا من لم يكن بينه وبينه أُنس ولا معرفة ، إلا معرفة عيان ! وكيف لم يقبل منه عمر بن الخطاب ، وقد كان شكلَه ، وأقربَ الناس شبهًا به فى أغلب أخلاقه ! ولئن رجعتم إلى الإنصاف لتعلمُنّ أنّ هؤلاء لم يكن إسلامهم إلا بدعاء الرسول صلى الله عليه وآله لهم، وعلى يديه أسلموا ؛ ولو فكّرتم فى حسن التأتّى فى الدعاء ؛ ليصحّنّ لأبي طالب فى ذلك

(١) العثمانية ٣١–٣٢ ، مع تصرف واختصار .

على شِرْكه أضعاف ما ذكرتموه لأبي بكر ، لأنكم رويتم أن أبا طالب قال لعلي عليه السلام : يابنيّ الزمه ، فإنه لن يدعوك إلا إلى خير ، وقال لجعفر : صِلْ جناحَ ابن عمك ، فأسلم بقوله ، ولأجله أصفق بنو عبد مناف على نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة من بني مخزوم ، وبني سَهْم ، وبني جُمَح ، ولأجله صَبَر بنو هاشم على الحصار في الشِّعب ، وبدعائه وإقباله عَلَى محمد صلى الله عليه وآله أسلمت امرأتُه فاطمة بنت أسَد ، فهو أحسن رِفقًا ، وأيمن نَقِيبَةً من أبي بكر وغيره ، وإنما منعه عن الإسلام أنْ ثبت أنّه لم يسلِم إلّا تقيّة ، وأبو بكر لم يكن له إلا ابنٌ واحد ، وهو عبد الرحمن ، فلم يمكنه أن يدخله في الإسلام ، ولا أمكنه إذ لم يقبل منه الإسلام أن يجعله كبعض مشركي قريش في قلة الأذى لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وفيه أنزل : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [1] ، وإنما يعرف حسن رِفق الرجل وتأتّيه بأن يصلح أوّلا أمرَ بيته وأهله ، ثم يدعو الأقرب فالأقرب ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما بُعِث كان أوّل مَنْ دعا زوجته خديجة ، ثم مكفوله وابن عمّه عليا عليه السلام ، ثم مولاه زيدا ، ثم أمّ أيمن خادمته ؛ فهل رأيتم أحداً ممّن كان يأوي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله لم يسارع ! وهل التاث عليه أحد من هؤلاء ! فهكذا يكون حسن التأتّي والرّفق في الدّعاء ! هذا ورسول الله مُقِلٌّ ، وهو من جُملة عيال خديجة حينَ بعثه الله تعالى ، وأبو بكر عندكم كان مُوسِراً ، وكان أبوه مقترا ، وكذلك ابنه وامرأته أمّ عبد الله ، والموسر في فِطْرة العقول أولى أن يتبع من المقتر ، وإنما حُسْن التأتّي والرّفق في الدّعاء ماصنعه مُصْعب بن عمير لسعد بن مُعاذ لما دعاه ، وما صنع سعد بن مُعاذ ببني عبد الأشهل لما دعاهم وماصنع بُرَيدة بن الحصيب فأسلم لمّا دعاهم ، قالوا : أسلم بدعائه ثمانون بيتاً من قومه ،

---

(١) سورة الأحقاف ١٧

وأسلم بنو عبد الأشهل بدعاء سعد في يوم واحد ، وأمّا من لم يسلم ابنه ولا امرأته ، ولا أبوه ولا أخته بدعائه فهيهات أن يوصف ويذكر بالرفق في الدعاء وحسن التأتّي والأناة !

قال الجاحظ : ثم أعتق أبو بكر بعد ذلك جماعة من المعذّبين في الله ، وهم ست رقاب ، منهم بلال ، وعامر بن فهيرة ، وزنيرة النّهدية ، وابنتها . ومرّ بجارية يعذّبها عمر بن الخطاب فابتاعها منه ، وأعتقها ، وأعتق أبا عيسى فأنزل الله فيه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ٭ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ٭ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ... ﴾ [1] ، إلى آخر السورة .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمّا بلال وعامر بن فهيرة ، فإنّما أعتقهما رسول الله صلى الله عليه وآله ، روى ذلك الواقديّ وابن إسحاق وغيرهما ، وأمّا باقي مواليهم الأربعة ، فإن سامحناكم في دعواكم لم يبلغ ثمنهم في تلك الحال لشدّة بغض مواليهم لهم إلا مائة درهم أو نحوها ، فأيّ فخر في هذا ! وأما الآية فإن ابن عباس قال في تفسيرها : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ٭ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ ، أي لأن يعود .

وقال غيره : نزلت في مصعب بن عمير .

● ● ●

قال الجاحظ : وقد علمتم ما صنع أبو بكر في ماله ، وكان ماله أربعين ألف درهم ؛ فأنفقه في نوائب الإسلام وحقوقه ، ولم يكن خفيف الظّهر ، قليل العيال والنّسل ، فيكون فاقد جميع اليساريْن ، بل كان ذا بنين وبنات وزوجة وخدم وحشم ، ويعول والديه وما ولدا ، ولم يكن النبيّ صلى الله عليه وآله قبل ذلك عنده مشهورا ، فيخاف العارّ في ترك مواساته ، فكان إنفاقه على الوجه الذي لا نجد في غاية الفضل مثله ، ولقد قال النبي صلى الله عليه وآله : « مانفعني مال كما نفعني مال أبي بكر » .

---

(١) سورة الليل ٥

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أخبرونا على أيّ نوائب الإسلام أنفق هـذا المال ، وفي أي وجه وضعه ؟ فإنه ليس بجائز أن يخفى ذلك ويدرُس حتى يفوتَ حِفظه ، وينسى ذكره ، وأنتم فلم تقفوا على شيء أكثر من عِتقه بزعمكم ستّ رقاب لعلها لا يبلغ ثمنها في ذلك العصر مائة درهم . وكيف يدّعى له الإنفاق الجليل ، وقد باع من رسول الله صلى الله عليه وآله بعيرين عند خروجه إلى يثرب ، وأخذ منه الثمن في مثل تلك الحال ، وروى ذلك جميع المحدّثين ، وقد رويتم أيضاً أنه كان حيث كان بالمدينة غنيًّا موسرا ، ورويتم عن عائشة أنها قالت : هاجر أبو بكر وعنده عشرة آلاف درهم ، وقلتم إن الله تعالى أنزل فيه : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى ﴾ [1] ، قلتم : هي في أبي بكر ومسطح بن أثاثة ، فأين الفقر الذي زعمتم أنه أنفق حتى تخلل بالعباءة ! ورويتم أن لله تعالى في سمائه ملائكة قد تخللوا بالعباءة . وأن النبي صلى الله عليه وآله رآهم ليلة الإسراء ، فسأل جبرائيل عنهم فقال : هؤلاء ملائكة تأسّوا بأبي بكر بن أبي قحافة صديقك في الأرض ، فإنه سينفق عليك ماله ، حتى يخلّل عباءه في عنقه ، وأنتم أيضا رويتم أن الله تعالى لما أنزل آية النجوى ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [2] ، الآية لم يعمل بها إلا عليّ ابن أبي طالب وحده ، مع إقراركم بفقره وقلّة ذات يده ، وأبو بكر في الحال التي ذكرنا من السّعة أمسك عن مناجاته ، فعاتب الله المؤمنين في ذلك ، فقال : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ ، فجعله سبحانه ذنبا يتوب عليهم منه ، وهو إمساكهم عن تقديم الصّدقة ، فكيف سخَتْ نفسه بإنفاق أربعين ألفا ، وأمسك عن مُناجاة الرسول ، وإنما كان يحتاج فيها إلى إخراج درهمين !

وأما ماذُكر من كثرة عياله ونفقته عليهم ، فليس في ذلك دليل على تفضيله ، لأنّ

---

(١) سورة النور ٢٢ (٢) سورة المجادلة ١٢

نفقته على عياله واجبة ، مع أن أرباب السِّيرة ذكروا أنه لم يكن ينفق على أبيه شيئا ، وأنه كان أجيراً لابن جُدْعان على مائدته يطرد عنها الذبان .

* * *

قال الجاحظ : وقد تعلمون ما كان يلقى أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ببطن مكة من المشركين ، وحسن صنيع كثيرٍ منهم ؛ كصنيع حمزة حين ضرب أبا جهل بقوسه ففلق هامته ، وأبو جهل يومئذ سيّد البطحاء ورئيس الكفر ، وأمنع أهل مكة ، وقد عرفتم أنّ الزبير سلّ سيفه ، واستقبل به المشركين ، لما أرجف أنّ محمدا صلى الله عليه وآله قد قتل ، وأن عمر بن الخطاب قال حين أسلم : لا يعبد الله سرًّا بعد اليوم ، وأنّ سعدا ضرب بعض المشركين بلحي جمل ، فأراق دمه ، فكلّ هذه الفضائل لم يكن لعلي بن أبي طالب فيها ناقة ولا جمل ، وقد قال الله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [1] ؛ فإذا كان الله تعالى قد فضّل مَنْ أنفق قبل الفتح ، لأنه لاهجرة بعد الفتح ، على مَنْ أنفق بعد الفتح ، فما ظنّكم بمَنْ أنفق من قبل الهجرة ، ومن لدُنْ مبعث النبي صلى الله عليه وآله إلى الهجرة وإلى بعد الهجرة [2] .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : إنّا لا ننكرُ فضلَ الصّحابة وسوابقهم ، ولسنا كالإماميّة الذين يحملهم الهوى على جحْد الأمور المعلومة ، ولكننا ننكر تفضيلَ أحدٍ من الصّحابة على عليّ بن أبي طالب ، ولسنا ننكرُ غير ذلك ، وننكر تعصُّب الجاحظ للعثمانيّة ، وقصدَه إلى فضائل هذا الرجل ومناقبه بالردّ والإبطال . وأمّا حمزة فهو عندنا ذو فضلٍ عظيم ، ومقامٍ جليلٍ ، وهو سيّد الشهداء الذين استشهدوا على عهد رسول الله

(١) سورة الحديد ١٠

(٢) العثمانية ٣٢ ، مع تصرف واختصار

صلى الله عليه وآله ، وأمّا فضل عُمر فغيرُ منكر ، وكذلك الزُّبيْر وسعد ، وليس فيا ذكر مايقتضي كونَ علي عليه السلام مفضولًا لهم أو لغيرهم ، إلا قوله : « وكلّ هذه الفضائل لم يكن لعليّ عليه السلام فيها ناقةٌ ولا جَمَل » ، فإنّ هذا من التعصّب البارد ، والحَيْف الفاحش ، وقد قدّمنا من آثار عليّ عليه السلام قَبْل الهجرة وماله إذ ذاك من المناقب والخصائص ، ماهو أفضلُ وأعظم وأشرف من جميع ماذكر لهؤلاء ، على أنّ أرباب السِّيرة يقولون : إنّ الشَّجّة التي شُجَّها سعد ، وإنّ السيف الذي سلّه الزبير ، هو الذي جلب الحصارَ في الشِّعب على النبي صلى الله عليه وآله وبني هاشم ، وهو الذي سيّر جعفراً وأصحابه إلى الحبشة ، وسلُّ السيف في الوقت الذي لم يؤمر المسلمون فيه بسلّ السيف غير جائز ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ ﴾ [1] ، فتبيّن أنّ التكليف له أوقات ، فمنها وقت لا يصلح فيه سلّ السيف ، ومنها وقت يصلُح فيه ويجب ، فأما قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ ﴾ ، فقد ذكرنا ماعددنا من دراهم لأبي بكر إنفاقَ المال . وأيضا فإنّ الله تعالى لم يذكر إنفاق المال مفردا ، وإنّما قرن به القتال ، ولم يكن أبو بكر صاحب قتال وحَرْب ، فلا تشمله الآية ، وكان علي عليه السلام صاحبَ قتال وإنفاق قبل الفتح ، أما قتاله فمعلومٌ بالضرورة ، وأمّا إنفاقه فقد كان على حَسَب حاله وفقره ، وهو الذي أطعم الطعام على حبّه مسكينا ويتيما وأسيرا ، وأنزلت فيه وفي زوجته وابنيه سورةٌ [2] كاملة من القرآن ، وهو الذي ملك أربعة دراهم فأخرج منها درهمًا سرًّا ودرهما علانية ليلا ، ثم أخرج منها في النهار درهما سرا ودرهما علانية ، فأنزل فيه قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [3] ، وهو الذي قدم بين يدي نجواه صدقة

---

(١) سورة النساء ٧٧

(٢) زعم بعض غلاة الشيعة ، أنه أنزلت فيهم سورة مختلقة ، وانظر فصل الخطاب لحسين بن محمد الطبرسي ١٥٦ ، وحواشي ملحق الثانية ٣١٩ .

(٣) سورة البقرة ٢٤٧

دون المسلمين كافة ، وهو الذى تصدق بخاتمه وهو راكع ، فأنزل الله فيه : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [١] .

• • •

قال الجاحظ : والحجة العظمى للقائلين بتفضيل علىّ عليه السلام قتلُه الأقران ، وخوضُه الحروبَ ، وليس له فى ذلك كبير فضيلة ؛ لأنَّ كثرة القتل والمشى بالسيف إلى الأقران ، لو كان من أشدّ المحن وأعظم الفضائل ، وكان دليلا على الرياسة والتقدّم ، لوجب أن يكون للزّبير وأبى دُجانة ومحمد بن مسلمة ، وابن عفراء ، والبراء بن مالك من الفضل ماليس لرسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه لم يقتل بيده إلا رجلاً واحدا ولم يحضر الحرب يوم بدر ، ولا خالط الصفوف ، وإنما كان معتزلا عنهم فى العريش ومعه أبو بكر ، وأنت ترى الرجل الشجاعَ قد يقتل الأقران ، ويجندل الأبطال ، وفوقه من العسكر مَنْ لا يقتل ولا يبارز ، وهو الرئيس أو ذو الرأى ، والمستشير فى الحرب ، لأنّ للرؤساء من الاكتراث والاهتمام وشغل البال والعناية والتفقّد ماليس لغيرهم ، ولأنّ الرئيس هو المخصوص بالمطالبة ، وعليه مدارُ الأمور ، وبه يستبصر المقاتل ، ويستنصر ، وباسمه ينهزم العدوّ ، ولو لم يكن له إلا أنّ الجيش لو ثبت وفرّ هو لم يغن ثبوت الجيش كلّه ، وكانت الدّبرة عليه ولو ضيّع القوم جميعا وحفظ هو لانتصر وكانت الدولة له ، ولهذا لا يضافُ النّصر والهزيمة إلا إليه ، ففضل أبى بكر بمقامه فى العريش مع رسول الله يوم بدر أعظمُ من جهاد علىّ عليه السلام ذلك اليوم ، وقتله أبطال قريش .

• • •

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : لقد أعطى أبو عثمان مقولا ، وحُرِم معقولا ، إن كان

---

(١) سورة المائدة ٥٥

يقول هذا على اعتقاد وجد ، ولم يذهب به مذهب القصص والهزل ، أو على طريق التفاصح والتشادق وإظهار القوة ، والسلاطة وذلاقة اللسان وحدة الخاطر والقوة على جدال الخصوم؟ ألم يعلم أبو عثمان أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان أشجع البشر ، وأنه خاض الحروب ، وثبت في المواقف التي طاشت فيها الألباب ، وبلغت القلوب الحناجر ؛ فمنها يوم أحد ، ووقوفه بعد أن فر المسلمون بأجمعهم ، ولم يبق معه إلا أربعة . علي ، والزبير ، وطلحة ، وأبو دجانة ، فقاتل ورمى بالنبل حتى فنيت نبله ، وانكسرت سية قوسه ، وانقطع وتره ، فأمر عكاشة بن محصن أن يوترها ، فقال : يا رسول الله : لا يبلغ الوتر ، فقال : أوتر ما بلغ . قال عكاشة : فوالذي بعثه بالحق لقد أوترت حتى بلغ ، وطويت منه شبراً على سية القوس ، ثم أخذها فما زال يرميهم ، حتى نظرت إلى قوسه قد تحطمت . وبارز أبي بن خلف ، فقال له أصحابه : إن شئت عطف عليه بعضنا ! فأبى ، وتناول الحربة من الحارث بن الصمة ثم انتفض بأصحابه ، كما ينتفض البعير ، قالوا : فتطايرنا عنه تطاير الشعارير(١) ، فطعنه بالحربة ، فجعل يخور كما يخور الثور ، ولو لم يدل على ثباته حين انهزم أصحابه وتركوه إلا قوله تعالى : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ﴾(٢) ، فكونه عليه السلام في أخراهم وهم يصعدون ولا يلوون ، هاربين ؛ دليل على أنه ثبت ولم يفر ، وثبت يوم حنين في تسعة من أهله ورهطه الأدنين ، وقد فر المسلمون كلهم والنفر التسعة محدقون به : العباس آخذ بحكمة بغلته ، وعلي بين يديه مصلت سيفه ، والباقون حول بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله يمنة ويسرة ، وقد انهزم المهاجرون والأنصار ، وكلما فروا أقدم هو صلى الله عليه وآله وسلم مستقدماً ، يلقى السيوف والنبال بنحره وصدره ، ثم أخذ كفاً من

(١) الشعارير : ما يجتمع على دبرة البعير من الذبان ، فإذا هيجت تطايرت عنها
(٢) سورة آل عمران ١٥٣

البَطْحاء ، وحَصَبَ المشركين ، وقال : شاهت الوجوه ! والخبر المشهور عن علىّ عليه السلام ، وهو أشجع البَشَر : « كنّا إذا اشتد البأس ، وحَمِيَ الوطيسُ ، اتّقينا برسول الله صلى الله عليه وآله ولُذْنا به » ، فكيف يقول الجاحظ : إنه ما خاضَ الحرب، ولا خالطَ الصُّفوف ! وأىّ فِرْية أعظمُ من فِرْية مَنْ نسب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الإحجام واعتزال الحرب ! ثم أىّ مناسبة بين أبى بكر ورسول الله صلى الله عليه وآله فى هذا المعنى ليقيسه ويشبّهه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله صاحب الجيش والدعوة ، ورئيس الإسلام والملّة، والملحوظ بين أصحابه وأعدائه بالسّيادة ، وإليه الإيماء والإشارة ، وهو الذى أحنق قريشاً والعرب ، وورى أكبادهم بالبراءة من آلهتهم ، وعيب دينهم وتضليل أسلافهم ، ثم وترهم فيما بعدُ بقتل رؤسائهم وأكابرهم ! وحقّ لمثله إذا تنحّى عن الحرب واعتزلها أن يتنحّى ويعتزل ، لأنّ ذلك شأن الملوك والرؤساء ، إذ كان الجيش منوطاً بهم وببقائهم ، فمتى هلك الملك هلك الجيش ، ومتى سلم الملك أمكن أن يبقى عليه ملكُه ، وإن عَطِب جيشُه فإنّه يستجدّ جيشاً آخر ؛ ولذلك نهى الحكماء أن يباشر الملك الحرب بنفسه ، وخطّئوا الإسكندر لما بارز فوسرا ملك الهند ، ونسبوه إلى مجانبة الحِكْمة ومفارقة الصواب والحزْم ، فليقلْ لنا الجاحظ : أىُّ مدخل لأبى بكر فى هذا المعنى ؟ ومَن الذى كان يعرفه من أعداء الإسلام ليقصده بالقتل ؟ وهل هو إلا واحدٌ من عُرْض المهاجرين ، حُكْمه حكم عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وغيرهما ! بل كان عثمانُ أكثر منه صيتاً ، وأشرفَ منه مركباً ، والعيون إليه أطمح ، والعدوّ إليه أحنق وأكلب ؛ ولو قتل أبو بكر فى بعض تلك المعارك ، هل كان يؤثر قتله فى الإسلام ضعفاً ، أو يحدث فيه وَهْنا ! أو يخاف على الملّة لو قتل أبو بكر فى بعض تلك الحروب أن تندرس وتعفو آثارُها ، وينطمس منارها ! ليقول الجاحظ إن أبا بكر كان حكمه حكم رسول الله صلى الله عليه وآله فى مجانبة الحروب واعتزالها ، نعوذ بالله من الخذلان ! وقد علم العقلاء كلّهم ممن له

بالسِّيَر معرفة، وبالآثار والأخبار ممارسة، حال حروب رسول الله صلى الله عليه وآله كيف كانت، وحاله عليه السلام فيها كيف كان، ووقوفه حيث وقف، وحربه حيث حارب، وجلوسه فى العريش يوم جَلَس، وإنّ وقوفه صلى الله عليه وآله وقوف رياسة وتدبير، ووقوف ظهر وسَنَد؛ يتعرّف أمور أصحابه، ويحرس صغيرَهم وكبيرَهم بوقوفه من ورائهم، وتخلّفه عن التقدّم فى أوائلهم، لأنّهم متى علموا أنّه فى أخراهم اطمأنّت قلوبهم، ولم تتعلّق بأمره نفوسهم، فيشتغلوا بالاهتمام به عن عدوّهم، ولا يكون لهم فئة يلجئون إليها، وظهر يرجعون إليه، ويعلمون أنّه متى كان خلفهم تفقّد أمورهم، وعلم مواقفهم، وآوى كلّ إنسان مكانه فى الحماية والنّكاية وعند المنازلة فى الكرّ والحملة، فكان وقوفه حيث وقف أصلحَ لأمرهم، وأحمى وأحرس لبيضتهم؛ ولأنه المطلوب من بينهم؛ إذهو مدبّر أمورهم، ووالى جماعتهم؛ ألا ترون أنّ موقف صاحب اللواء موقف شريف، وأنّ صلاح الحرب فى وقوفه، وأن فضيلته فى ترك التقدّم فى أكثر حالاته! فللرئيس حالات:

الأولى: حالة يتخلّف ويقف آخرا ليكونَ سَنَداً وقوّة، ورِدْءاً وعدّة، وليتولّى تدبير الحرب، ويعرف مواضع الخلل.

والحالة الثانية: يتقدّم فيها فى وسط الصفّ ليقوّى الضعيف، ويشجّع النا كص[1].

وحالة ثالثة: وهى إذا اصطدم الفيلقان، وتكافحَ السّيفان، اعتمد ما تقتضيه الحال من الوقوف حيث يستصلح، أو من مباشرة الحرب بنفسه؛ فإنها آخر المنازل؛ وفيها تظهر شجاعة الشّجاع النّجْد، وفسالة الجبان المموّه.

فأين مقام الرّياسة العظمى لرسول الله صلى الله عليه وآله! وأين منزلة أبى بكر ليسوّى بين المنزلتين، ويناسب بين الحالتين!

ولو كان أبو بكر شريكا لرسول الله صلى الله عليه وآله فى الرّسالة، وممنوحا من الله

---

(١) ب: «الناكس».

بفضيلة النبوّة ،وكانت قُرَيش والعرب تطلبه كما تطلب محمّداً صلى الله عليه وآله ، وكان يدبِّر من أمرِ الإسلام وتَسْرِيب العساكر وتجهيز السّرَايا ، وقتل الأعداء ، ما يدبّره محمّد صلى الله عليه وآله ، لكان للجاحظ أن يقول ذلك ، فأمّا وحاله حاله ، وهو أضعف المسلمين جنانا ، وأقلهم عند العرب ترةً ، لم يَرْمِ قطُّ بسَهْم ، ولا سلّ سيفا ، ولا أراق دما ؛ وهو أحد الأتباع ، غير مشهور ولا معروف ، ولا طالب ولا مطلوب ؛ فكيف يجوز أن يجعل مقامه ومنزلته مقام رسول الله صلى الله عليه وآله ومنزلته ! ولقد خرج ابنهُ عبدُ الرحمن مع المشركين يوم أُحُد فرآه أبو بكر ؛ فقام مغيظاً عليه ، فسلّ من السّيْف مقدار أصبع ؛ يريد البُرُوز إليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : «يا أبا بكر ، شِمْ سيفك[1] وأمتِعنا بنفسك » ، ولم يقل له : « وأمتعنا بنفسك » إلّا لعلمه بأنّه ليس أهلاً للحرب وملاقاة الرجال ، وأنّه لو بارز لقتل .

وكيف يقول الجاحظ : لا فضيلة لمباشرة الحرب، ولقاء الأقران، وقتل أبطال الشرك! وهل قامت عُمُد الإسلام إلّا على ذلك !وهل ثبت الدِّينُ واستقرّ إلا بذلك ! أتراه لم يسمع قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾[2] ! والمحبّة من الله تعالى هي إرادة الثواب ؛ فكلُّ مَنْ كان أشدّ ثبوتا في هذا الصفّ ، وأعظم قتالا ، كان أحبّ إلى الله ؛ ومعنى الأفضل هو الأكثر ثوابا ، فعليٌّ عليه السلام إذاً هو أحبُّ المسلمين إلى الله ، لأنّه أثبتُهم قدما في الصفّ المرصوص ، لم يفرّ قطُّ بإجماع الأمّة ، ولا بارزه قِرْن إلا قتله .

أتراه لم يسمع قول الله تعالى : ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[3] ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ

---

(١) شم سيفك ، أي أغمده ؛ وهو من الأضداد .

(٢) سورة الصف ٤ .

(٣) سورة النساء ٩٥ .

فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾(١)، ثم قال سبحانه مؤكدا لهذا البيع والشراء: ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(١)، وقال الله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾(٢).

فتفاوت النّاس في الجهاد على أحوال؛ وبعضهم في ذلك أفضلُ من بعض؛ فمن دَلَف إلى الأقران، واستقبل السُّيوف والأسِنّة؛ كان أثقلَ على أكتاف الأعداء، لشدّة نِسكايته فيهم، ممّن وقف في المعركة، وأعان ولم يُقدِم، وكذلك مَنْ وقف في المعركة، وأعان ولم يُقدِم؛ إلا أنه بحيث تناله السهام والنَّبل أعظم عَناء، وأفضل ممّن وقف حيث لا يناله ذلك، ولو كان الضّعيف والجبان يستحقّان الرياسة بقِلّة بَسْط الكفّ وترك الحرب؛ وأنّ ذلك يشاكل فِعْلَ النبيّ صلى الله عليه وآله، لكان أوفرَ النّاس حظًّا في الرياسة، وأشدّهم لها استحقاقا حسّان بن ثابت، وإن بَطَل فضلُ عليّ عليه السلام في الجهاد؛ لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان أقلّهم قتالا، كما زعم الجاحظ ليَبطُلَنّ على هذا القياس فضلُ أبي بكر في الإنفاق، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان أقلّهم مالا!

وأنت إذا تأمّلتَ أمرَ العرب وقريش، ونظرت السِّيَر، وقرأت الأخبار، عرفت أنها كانت تطلب محمداً صلى الله عليه وآله وتقصِدُ قَصْده، وتروم قتلَه، فإن أعجزها وفاتها طلبتْ عليًّا عليه السلام، وأرادت قتله، لأنه كان أشبَهَهم بالرسول حالاً، وأقربهم منه قرباً، وأشدّهم عنه دفعا، وأنهم متى قصدُوا عليًّا فقتلوه أضعفوا أمرَ محمد صلى الله عليه وآله وكسروا شوكته، إذ كان أعلى مَنْ ينصرُه في البأس والقوّة والشجاعة

(١) سورة التوبة ١١١ .
(٢) سورة التوبة ١٢٠ .

والنجدة والإقدام والبسالة . ألا ترى إلى قول عُتبة بن ربيعة يوم بدر ، وقد خرج هو وأخوه شَيْبة وابنه الوليد بن عتبة ، فأخرج إليه الرسولُ نفراً من الأنصار ، فاستنسبوهم فانتسبوا لهم ، فقالوا : ارجعوا إلى قومكم ثم نادوا : يامحمّد أخرِجْ إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله لأهله الأدنين : قومُوا يابني هاشم ، فانصرُوا حقَّكم الذى آتاكم الله على باطل هؤلاء ، قُمْ ياعليّ ، قم ياحمزة ، قمْ ياعبيدة ، ألا ترى ماجعلتْ هند بنت عتبة لمن قتله يوم أحد ؛ لأنه اشترك هو وحمزة فى قتل أبيها يوم بدر ؛ ألم تسمع قولَ هند ترثى أهلها :

ما كانَ عَنْ عُتبةَ لِى مِنْ صَبْرِ ... أبى وعمّى وشقيق صَدْرِى
أخى الذى كان كضوء البَدْرِ ... بِهِمْ كَسرتَ ياعلىُّ ظهْرِى

وذلك لأنه قتل أخاها الوليد بن عُتبة ، وشرك فى قتل أبيها عُتبة ، وأمّا عمّها شيبة فإنّ حمزة تفرّد بقتله .

وقال جُبير بن مطعِم لوحشيّ مولاه يوم أُحُد : إن قتلتَ محمّداً فأنت حرٌّ ، وإن قتلت عليًّا فأنت حرٌّ ، وإن قتلت حمزة فأنت حرّ ، فقال : أمّا محمد فسيمنعه أصحابه ، وأما علىٌّ فرجلٌ حذِر كثير الالتفات فى الحرب ، ولكنّى سأقتل حمزة ، فقعد له وزرقه بالحرْبة فقتله .

ولما قلنا من مقاربة حال علىّ عليه السلام فى هذا الباب لحالِ رسول الله صلى الله عليه وآله ومُناسبتها إيّاها ماوجدناه فى السِّيَر والأخبار ، من إشفاق رسول الله صلى الله عليه وآله وحذرِه عليه ، ودعائه له بالحفظ والسلامة ، قال صلى الله عليه وآله يوم الخندق ، وقد برز علىّ إلى عمرو ، ورفع يديه إلى السماء بمحضرمن أصحابه : « اللهمّ إنك أخذتَ منّى

حمزة يوم أُحُـد ، وعُبيدة يوم بدر ، فاحفظ اليوم عليّاً عنيًّا : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾[1] » ، ولذلك ضَنَّ به عن مبارزة عمرو حين دعا عمرو النّاس إلى نفسه مرارا ، فى كلّها يحجمون ويُقدِم عليّ ، فيسأل الإذنَ له فى البراز حتى قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنه عمرو ! » ، فقال : « وأنا عليّ » ، فأدناه وقبّله وعمّمه بعمامته ، وخرج معه خطوات كالمودّع له ، القلق لحاله ، المنتظر لما يكون منه ، ثم لم يزل صلّى الله عليه وآله رافعا يديه إلى السّماء ، مستقبلًا لها بوجهه ، والمسلمون صُموتٌ حولهُ ؛ كأنّما على رءوسهم الطّير، حتى ثارت الغَبَرة ، وسمعوا التّـكبير من تحتها ، فعلموا أنّ عليا قتلَ عمراً ، فـكبّر رسول الله صلى الله عليه وآله وكبّر المسلمون تـكبيرةً سمعها منْ وراء الخندق من عساكر المشركين ، ولذلك قال حُذَيفة بن اليمان : لو قُسِمت فضيلة عليّ عليه السلام بقتل عمرو يوم الخندق بَيْن المسلمين بأجمعهم لوسعتهم . وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ ؛ قال : بعليّ بن أبي طالب[2] .

* * *

قال الجاحظ : عَلَى أنّ مشيَ الشّجاع بالسيف إلى الأقران ، ليس على ماتوهّمه من لا يعلم باطن الأمر ، لأنّ معه فى حال مشيه إلى الأقران بالسيف أموراً أخرى لا يبصرُها النّاس ، وإنّما يقضون على ظاهر مايرون من إقدامه وشجاعته ، فربّما كان سبب ذلك الهوَج ، وربمـا كان الغرارةَ والحداثة ، وربّما كان الإحراج والحميّة ، وربما كان لمحبّـة النفخ والأحدوثة ، وربما كان طباعا كطباع القسي والرحيم والسخيّ والبخيل[3] .

* * *

(١) سورة الأنبياء ٨٩ . (٢) سورة الأحزاب ٢٥ .
(٣) العثمانية ٤٧ ، مع تصرف واختصار .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : فيقال للجاحظ : فعلى أيّها كان مشى علىّ بن أبى طالب إلى الأقران بالسيف ؟ فأيّما قلت من ذلك بانت عداوتك لله تعالى ولرسوله ، وإن كان مشيُه ليس على وجه مما ذكرت ، وإنما كان على وجه النُّصرة والقَصْد إلى المسابقة إلى ثواب الآخرة ، والجهاد فى سبيل الله ، وإعزاز الدّين ، كنتَ بجميع ماقلت معانداً ، وعن سبيل الإنصاف خارجا ، وفى إمام المسلمين طاعناً ، وإن تطرّق مثلُ هذا الوهم على علىّ عليه السلام ليتطرّقنّ مثله على أعيان المهاجرين والأنصار أرباب الجهاد والقتال ، الذين نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وآله بأنفسهم ووقوْه بمُهَجِهِم ، وفدوْه بأبنائهم وآبائهم ، فلعلّ ذلك كان لعلّة من العلل المذكورة ، وفى ذلك الطّعْنُ فى الدّين ، وفى جماعة المسلمين .

ولو جاز أن يتوهّم هذا فى علىّ عليه السلام وفى غيره ، لما قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله حكاية عن الله تعالى لأهل بدر : « اعْمَلُوا ما شِئتم فقَدْ غفرتُ لكُمْ » ، ولا قال لعلى عليه السلام : « برز الإيمان كلّه إلى الشرك كله » ، ولا قال : « أوجَب طلحة »[1] .

وقد علمنا ضرورةً من دين الرسول صلى الله عليه وآله تعظيمه لعلىّ عليه السلام تعظيماً دينيا ، لأجل جهاده ونُصرته ، فالطاعن فيه طاعن فى رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ إذ زعم أنه قد يمكن أن يكونَ جهاده لا لوجه الله تعالى ؛ بل لأمر آخر من الأمور التى عدّدها ، وبعثه على التهوّر بها إغواء الشيطان وكيدُه ، والإفراط فى عَداوة من أمر الله بمحبّته ، ونهى عن بغضه وعداوته .

---

(١) أوجب طلحة ، أى عمل عملا يدخله الجنة .

أترى رسول الله صلى الله عليه وآله خفِيَ عليه من أمر عليٍّ عليه السلام مالاح للجاحظ والعثمانية ، فمدحه وهو غير مستحقٍّ للمدح !

* * *

قال الجاحظ : فصاحبُ النفس المختارة المعتدلة يكون قتالُه طاعة ، وفراره معصية ، لأنّ نفسه معتدِلة ، كالميزان في استقامة لسانه وكِفّتيه ، فإذا لم يكن كذلك كان إقدامُه طباعاً ، وفراره طباعا[1] .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : فيقال له . فلعلّ إنفاق أبي بكر على ما تزعم أربعينَ ألف درهم لا ثوابَ له ، لأنّ نفسه ربّما تكون غير معتدلة ، لأنه يكون مطبوعا على الجود والسّخاء ، ولعلّ خروجه مع النبي صلى الله عليه وآله يوم المغفرة إلى الغار لا ثوابَ له فيه ، لأن أسبابه كانت له مهيِّجةً ، ودواعيه غالبة ، محبّة الخروج ، وبغض المقام ؛ ولعلّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله في دعائه إلى الإسلام وإكبابه على الصّلَوات الخمس في جوف الليل ، وتدبيره أمرَ الأمّة لا ثواب له فيه ، لأنه قد تكون نفسه غير معتدلة ، بل يكون في طباعه الرياسة وحبّها ، والسّيادة والالتذاذ بها ، ولقد كنّا نعجَب من مذهب أبي عثمان أنّ المعارف ضرورة ، وأنّها تقعُ طباعاً ؛ وفي قوله بالتولّد وحركة الحجَر بالطّبع ! حتى رأينا من قوله ما هو أعجب منه ، فزعم أنه ربما يكون جهادُ عليّ عليه السلام وقتلُه المشركين لا ثوابَ له فيه ؛ لأنه فعله طبْعاً ، وهذا أطرف من قوله في المعرفة وفي التولّد .

* * *

قال الجاحظ : ووجهٌ آخر أنّ عليا لو كان كما يزعمُ شيعتُه ، ما كان له بقتل الأقران كبير فضيلة ، ولا عظيم طاعة ، لأنه قد روى عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنه قال له :

---

(١) انظر العثمانية ٤٧ ، ٤٨ .

« ستقاتل بعدى النّاكثين والقاسطين والمارقين » ، فإذا كان قد وعدَه بالبقاء بعده فقد وثق بالسلامة من الأقران ، وعلم أنه منصور عليهم وقاتلهم ، فعلى هذا يكون جهاد طلحة والزبير أعظمَ طاعة منه [1] .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : هذا راجع على الجاحظ فى النبىّ صلى الله عليه وآله ، لأنّ الله تعالى قال له : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [2] ، فلم يكن له فى جهاده كبير طاعة، وكثير طاعة ، وكثير من الناس يروى عنه صلى الله عليه وآله : « اقتدوا باللَّذَيْن من بعدى أبى بكر وعمر » ، فوجب أن يبطل جهادهما ، وقد قال للزبير : « ستقاتل عليًّا ، وأنت ظالم له » ، فأشعره بذلك أنّه لا يموت فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال فى الكتاب العزيز لطلحة : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ قالوا : نزلت فى طلحة ، فأعلمه بذلك أنه يبقى بعده ، فوجب ألّا يكون لهما كبير ثواب فى الجهاد ، والذى صحّ عندنا من الخبر وهو قوله : « ستقاتل بعدى الناكثين » ، أنه قاله لمّا وضعت الحرب أوزارها ، ودخل النّاس فى دين الله أفواجا ، ووضعت الجزية ، ودانت العرب قاطبة .

* * *

قال الجاحظ : ثم قصد النّاصرون لعلىّ ، والقائلون بتفضيله إلى الأقران الّذين قتلهم فأطروهم وغلوا فيهم ، وليسوا هناك ! فمنهم عمرو بن عبد ود تركتموه أشجع من عامر ابن الطفيل وعتبة بن الحارث وبسطام بن قيس ، وقد سمعنا بأحاديث حُروب الفجار وما كان بين قريش ودَوْس وحِلْف الفُضُول ، فما سمعتُ لعمرو بن عبدودّ ذكرا فى ذلك [3] .

---

(١) انظر العثمانية ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) سورة المائدة ٦٧ .

(٣) انظر العثمانية ٤٩ ، ٥٠ .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمرُ عمرو بن عبدوَدّ أشهر وأكثر من أن يُحتجَّ له ، فلتتصفّح كتب المغازى والسِّيَر ، ولينظر مارثته به شعراء قريش لما قتل ، فمن ذلك ماذكره محمد بن إسحاق فى مغازيه ، قال : وقال مُسافع بن عبد مناف بن زهرة بن حُذافة بن جُمَح يبكى عمرو بن عبد الله بن عبد ود حين قتله على بن أبى طالب عليه السلام مبارزة لما جزع المذاد[1] أى قطع الخندق .

عمرو بن عبدٍ كان أول فارسٍ ... جزَعَ المذاد وكان فارس مَلْيَلِ[2]

سمحُ الخلائق ماجدٌ ذو مِرّةٍ ... يبغى القتالَ بشكّةٍ لم يَنْكُلِ[3]

ولقد علمتم حينَ ولّوا عنكمُ ... أنّ ابن عبدٍ منهمُ لم يَعجَل[4]

حتّى تكنّفهُ الكُماة وكلّهمْ ... يبغى القتال له وليس بمؤتَلِ[5]

ولقد تكنّفت الفوارسُ فارساً ... بجنوبِ سَلْعٍ غيرِ نِكسٍ أمْيلِ[6]

سال النزال هناك فارسُ غالبٍ ... بجنوب سَلْعٍ ليته لم ينزلَ

فاذهب علىُّ ماظفرتَ بمثلها ... فخراً ولو لاقيتَ مثل المعضَلِ[7]

نفسى الفداء لفارسٍ من غالبٍ ... لاقَى حِمام الموت لم يتحلحَلِ[8]

أعنى الذى جزَع المذاد ولم يكن ... فَشِلاً وليس لدَى الحروب بزُمّلِ[9]

وقال هُبيرة بن أبى وهب المخزومىّ ، يعتذر من فراره عن علىّ بن أبى طالب ، وتركه عمراً يوم الخندق ويبكيه :

---

(١) المذاد ، بالذال المعجمة : موضع بالمدينة حيث حفر الخندق ، وفى ط : « المزار » تصحيف ، وجزع ، أى قطع .

(٢) مليل ، واد بنجد .

(٣) المرة : القوة ، والشكة : السلاح .

(٤) ابن هشام : « فيهم » .

(٥) تكنفه الكماة : أحاطوا به واكتنفوا حوله . وليس بمؤتل ؛ أى ليس بمقصر .

(٦) سلع : جبل بالمدينة . والنكس : الدنىء من الرجال . والأميل : الذى لا رمح معه .

(٧) المعضل : الأمر الشديد .

(٨) لم يتحلحل : لم يبرح مكانه .

(٩) الزمل : الضعيف الجبان .

لعمرك ما وليت ظهري محمداً ... وأصحابه جبناً ولا خيفةَ القتلِ (١)

ولكنني قلبت أمري فلم أجِدْ ... لسيفي غناء إن وقفتُ ولا نَبْلِي

وقفتُ فلما لم أجد لي مقدّماً ... صدرتُ كضرغامٍ هزبرٍ أبي شِبْلِ (٢)

ثَنَى عِطفَه عن قِرْنِهِ حين لم يَجِد ... مجالا(٣) وكان الحزم والرأي من فِعْلِي

فلا تَبْعَدَنْ يا عَمْرُو حياً وهالكاً ... فقد مِتَّ محمودَ الثّنا ماجدَ الفعلِ (٤)

ولا تبعدنْ يا عمرو حياً وهالكا ... فقد كنتَ في حربِ العِدَا مُرهَفَ النَّصْلِ

فمن لِطرادِ الخيلِ تُقْدَعُ بالقَنَا ... وللبذل يوما عند قرقرة البُزْلِ (٥)

هنالك لو كان ابن عمرٍو لزارها ... وفَرَّجَهَا عنهم فتًى غير ما وغْلِ

كعتك عليَّ لن ترى مثل موقفٍ ... وقفتَ على شِلْوِ المقدَّم كالفحلِ (٦)

فما ظفرت كفاك يوماً بمثلها ... أمنتَ بها ما عشت من زلّةِ النّعلِ

وقال هُبيرة بن أبي وهب أيضا، يرثي عمرا ويبكيه:

لقد علمتْ عُليا لؤيِّ بنِ غالبٍ ... لفارسها عمرٌو، إذا ناب نائبُ (٧)

وفارسها عمرو إذا ما يسوقه ... عليٌّ وإن الموت لاشك طالبُ (٨)

عشيّة يدعوه عليٌّ وإنّه ... لفارسُها إذ خام عنه الكتائبُ (٩)

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٣٠١ ، ٣٠٢ .

(٢) مقدما ، أي لم أجد من يتقدمني . وصدرت : رجعت . الضرغام : الأسد . الهزبر : الشديد . والشبل : ابن الأسد

(٣) ابن هشام : « لم يجد مكرا » .

(٤) الثنا : الذكر الطيب . والماجد : الشريف .

(٥) تقدع : تكف . والقرقرة : أصوات هدير الإبل . والبزل : جمع بازل ؛ وهو في الأصل البعير الذي فطر نابه ، وذلك زمان اكتمال قوته .

(٦) ابن هشام : « ضك علي » .

(٧) إذا ناب نائب ، أي إذا عرض أمر مكروه .

(٨) ابن هشام : « لفارسها عمرو إذا ما يسومه » .

(٩) خام : جبن ورجع هيبة وخوفا .

فيالهف نفسى ، إنَّ عمرًا لكائنٌ ... بيثرب ، لا زالت هناك المصائبُ

لقد أحرزَ العَلْيا علىٌّ بقتله ... وللخير يوما لا محالة جالبُ

وقال حسان بن ثابت الأنصارى يذكر عمرا :

أمسى الفتى عمرو بن عبدٍ ناظرًا ... كيف القُبور وليتَه لم ينظُرِ [١]

ولقد وجدت سيوفنا مشهورةً ... ولقد وجدت جيادنا لم تُقْصَرِ [٢]

ولقد لقيتَ غداة بدرٍ عُصْبةً ... ضَرَبوك ضَرْبًا غير ضرب الحسّرِ

أصبحتَ لا تُدْعَى ليوم عظيمةٍ ... يا عمرُو أو لجسيم أمرٍ مُنْكَرِ [٣]

وقال حسان أيضا :

لقد شقيتْ بنو جُمَحِ بن عمرو ... ومخزوم وتَيْمٌ ما نُقيلُ

وعمرو كالحسام فتى قريش ... كأن جبينه سيف صقيلُ

فتى من نسل عامر أريحىٌّ ... تطاوله الأسنّةُ والنُّصُولُ

دعاه الفارس المقدام لمّا ... تكشّفتِ المقانبُ والخيولُ

أبو حسنٍ فقنّعه حُسامًا ... جُرازًا لا أفلُّ ولا نكولُ

فغادره مكبًّا مُسْلَحِبًّا ... على عفراء ، لا بَعِدَ القتيلُ

فهذه الأشعار فيه بل بعض [٤] ماقيل فيه .

وأمّا الآثار والأخبار ، فموجودة فى كتب السِّيَر وأيام الفرسان ووقائعهم ، وليس

---

(١) رواية البيت فى ابن هشام :

أمسى الفتى عمرو بن عبدٍ يبتغى ... بجنوب يثربَ ثأرَهُ لم يُنْظَرِ

(٢) مشهورة أى قد شهرها أصحابها . ولم تقصر : لم تكف ولم تحبس عن الجولان .

(٣) قال ابن هشام : « وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان » .

(٤) سيرة ابن هشام ٣ : ٢٩٨ — ٣٠٤ (نشرة المكتبة التجارية) .

أحدٌ من أرباب هذا العلم يذكر عمراً إلا قال : كان فارسَ قريش وشجاعها ، وإنما قال له حسان :

* ولقد لقيتَ غداةَ بدرٍ عصبة *

لأنه شهد مع المشركين بدراً ، وقتل قوماً من المسلمين . ثم فرّ مع مَنْ فرّ ، ولحق بمكّة ، وهو الذى كان قال وعاهدَ الله عند الكعبة ألا يدعوَهُ أحدٌ إلى واحدة من ثلاث إلا أجابه . وآثاره فى أيام الفِجار مشهورة تنطق بها كتُبُ الأيّام والوقائع ، ولكنه لم يذكر مع الفرسان الثلاثة وهم : عُتبة وبِسْطام وعامر ، لأنهم كانوا أصحابَ غاراتٍ ونَهْب ، وأهلَ بادية ، وقريش أهل مدينة وساكنو مَدَرٍ وحجر ، لا يرون الغارات ، ولا ينهبون غيرَهم من العرب ، وهم مقتصرون على المقام ببلدتهم وحماية حَرَمهم ؛ فلذلك لم يشتهر اسمه كاشتهار هؤلاء .

ويقال له : إذا كان عمرو كما تذكر ليس هناك ، فما باله لما جزع الخندق فى ستة فرسان هو أحدهم ، فصار مع أصحاب النبى صلى الله عليه وآله على أرض واحدة ، وهم ثلاثة آلاف ، ودعاهم إلى البراز مراراً لم ينتدب أحدٌ منهم للخروج إليه ، ولا سمح منهم أحدٌ بنفسه ، حتى وبّخهم وقرّعهم ، وناداهم : ألستم تزعمون أنه مَنْ قُتل منّا فإلى النار ، ومَنْ قُتِل منكم فإلى الجنة ! أفلا يشتاقُ أحدُكم إلى أنْ يذهب إلى الجنة ، أو يقدّم عدوّه إلى النار ! فجبنوا كلّهم ونكلوا ، وملكهم الرّعب والوَهَل ، فإمّا أن يكون هذا أشجع الناس كما قد قيل عنه ، أو يكون المسلمون كلّهم أجبنَ العرب وأذلّهم وأفشلهم ! وقد روى الناس كلّهم الشعر الذى أنشده لمّا نكل القوم بجمعهم عنه ، وأنه جالَ بفرسه واستدار وذهب يَمْنة ، ثم ذهب يَسْرة ، ثم وقف تُجاه القوم ، فقال :

ولقد بححتُ من النّدا   ءِ بجمعهم : هل من مبارز !

ووقفتُ إذْ جَبُنَ المشيَّــعُ وقفةَ القِرْنِ المناجزْ
وكذاك أنّى لم أزلْ   متسرِّعاً نحو الهزاهزْ
إن الشجاعة فى الفتى   والجودَ من خيرِ الغرائزْ

فلما برز إليه علىّ أجابه، فقال له:

لا تعجلنّ فقـــدْ أتا   كَ مجيب صوتِك غيرَ عاجزْ
ذُو نيّةٍ وبصـــيرةٍ   يرجُو الغـــداةَ نجاةَ فائزْ
إنى لأرجـــو أن أقِيـ   مَ عليك نائحةَ الجنائزْ
من ضربةٍ تفنى ويَبْـ   قَى ذكرُها عند الهزاهزْ

ولعمرى لقد سبق الجاحظ بما قاله بعضُ جُهّال الأنصارى، لمّا رجع رسول الله من بدر، وقال فتى من الأنصار شهد معه بدرا: إن قتلنا إلا عجائز صُلْعا! فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «لا تقل ذلك يابن أخى، أولئك الملأ!».

● ● ●

قال الجاحظ: وقد أكثروا فى الوليد بن عُتْبة بن ربيعة قتيله يوم بدر، وما علمنا الوليد حضر حرْباً قطّ قبلها، ولا ذُكِر فيها[1].

● ● ●

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: كلُّ مَنْ دوّن أخبارَ قريش وآثار رجالها، وصف الوليد بالشجَاعة والبَسالة، وكان مع شجاعته أنّه يصارع الفتيان فيصرعُهم، وليس لأنّه لم يشهد حرْباً قبلها مايجب أن يكون بطلاً شجاعا؛ فإنّ عليا عليه السلام لم يشهدْ قبل بدرٍ حربا، وقد رأى الناس آثاره فيها.

● ● ●

(١) العثمانية ٩٠.

قال الجاحظ: وقد ثبت أبو بكر مع النبي صلى الله عليه وآله يوم أُحُد، كما ثبت عليّ، فلا فخرَ لأحدهما على صاحبه في ذلك اليوم[1].

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أمّا ثباتُه يومَ أُحُد، فأكثر المؤرّخين وأربابُ السِّيَر ينكرُونه، وجمهورهم يروي أنّه لم يبقَ مع النبيّ صلى الله عليه وآله إلا عليّ وطلحة والزبير، وأبو دُجانة، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: ولهم خامسٌ وهو عبد الله بن مسعود، ومنهم مَنْ أثبت سادساً، وهو المقداد بن عمرو، وروى يحيى بن سلمة بن كُهَيل قال: قلت لأبي، كم ثبتَ مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أُحُد؟ فقال: اثنان، قلت: مَنْ هُما؟ قال: عليّ وأبو دُجانة.

وهب أنّ أبا بكر ثبت يوم أُحُد كما يدّعيه الجاحظ، أيجوز له أن يقول ثبت: كما ثبت عليّ، فلا فخر لأحدِهما على الآخر، وهو يعلم آثار عليّ عليه السلام ذلك اليوم، وأنّه قتل أصحاب الألوية من بني عبد الدّار، منهم طلحة بن أبي طلحة، الّذي رأى رسولَ الله صلّى الله عليه وآله في منامِه أنّه مُردِفٌ كبشاً، فأوّله وقال: كبش الكتيبة نقتلُه. فلما قتله عليّ عليه السلام مبارزةً ــ وهو أول قتيل قُتلَ من المشركين ذلك اليوم ــ كبّر رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال: «هذا كبش الكتيبة».

وما كان منه من المحاماة عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد فرّ الناس وأسلموه، فتصمد له كتيبة من قريش، فيقول: «يا عليّ، اكفني هذه» فيحمل عليها فيهزمها، ويقتل عميدَها، حتى سمع المسلمون والمشركون صوتاً من قِبَل السّماء:

لا سَيْفَ إلا ذو الفقا ... رِ ولا فتى إلا علي

وحتّى قال النبي صلى الله عليه وآله عن جبرائيل ماقال.

أتكون هذه آثاره وأفعاله، ثم يقول الجاحظ: لا فخر لأحدهما على صاحبه!

---

(١) العثمانية ٦٢.

﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾[1]

* * *

قال الجاحظ : ولأبى بكر فى ذلك اليوم مقام مشهور ، خرج ابنه عبد الرحمن فارساً مكفَّراً[2] فى الحديد ، يسأل المبارزة ، ويقول : أنا عبدُ الرحمن بن عتيق ! فنهض إليه أبو بكر يسْعَى بسيفه ، فقال له النبىّ صلى الله عليه وآله : « شِمْ سيفَك وارجع إلى مكانك ، ومتِّعنا بنفسك[3] » .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : ما كان أغناك يا أبا عثمان عن ذكر هذا المقام المشهور لأبى بكر ، فإنه لو تسمعُه الإمامية لأضافته إلى ما عندها من المثالب ، لأنّ قول النبى صلى الله عليه وآله : « ارجع » دليل على أنه لا يحتمل مبارزة أحد ، لأنه إذا لم يحتمل مبارزة ابنه ، وأنت تعلم حنوّ الابن على الأب وتبجيله له ، وإشفاقه عليه وكفّه عنه ، لم يحتمل مبارزة الغريب الأجنبىّ .

وقوله له : « ومتعنا بنفسك » ؛ إيذان له بأنه كان يقتَلُ لو خرج ، ورسول الله كان أعرفَ به من الجاحظ ، فأين حالُ هذا الرّجل من حال الرجل الذى صَلِيَ بالحرب ، ومشى إلى السيف بالسيف ، فقتل السادَة والقادَة والفُرسان والرّجّالة !

* * *

قال الجاحظ : على أن أبا بكر — وإن لم تكن آثاره فى الحرب كآثار غيره — فقد بذل الجهد ، وفعل ما يستطيعه وتبلغه قوّته ، وإذا بذل المجهودَ فلا حال أشرف من حاله[4] .

---

(١) سورة الأعراف ٨٩
(٢) أى مستترا .
(٣) العثمانية ٦٢ .
(٤) العثمانية ٦٣ .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أما قوله إنه بذل الجهد ، فقد صدق ، وأما قوله : « لا حال أشرف من حاله » ، فخطأ ، لأنّ حال من بلغت قوته فأعملها فى قتل المشركين أشرفُ من حال من نقصت قوته عن بلوغ الدية ؛ ألا ترى أن حال الرجل أشرفُ فى الجهاد من حال المرأة ، وحال البالغ الأيّد أشرف من حال الصبىّ الضعيف !

* * *

فهذه جملة ما ذكره الشيخ أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافى رحمه الله فى نقض العثمانية ، اقتصرنا عليها هاهنا ؛ وسنعود فيما بعد إلى ذكر جملة أخرى من كلامه ، إذا اقتضت الحال ذكره[1] .

(١) قام الأستاذ عبد السلام هارون بطبع كتاب العثمانية ، طبعة علمية محققة ، وألحق بها ما عثر عليه من نقضها للإسكافى ؛ وطبعت فى دار الكتاب العربى سنة ١٩٥٥ .

(٢٣٩)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

قاله لعبد الله بن عباس ، وقد جاءه برسالة من عثمان ، وهو محصور يسأله فيها الخروج إلى ماله بينبع ، ليقل هتف الناس باسمه للخلافة ، بعد أن كان سأله مثل ذلك من قبل .

فقال عليه السلام :

يَابْنَ عَبَّاسٍ ، مَا يُرِيدُ عُثْمانُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلاً نَاضِحاً بِالْغَرْبِ ، أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ ! بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدُمَ ، ثُمَّ هُوَ الْآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ ! وَاللهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِماً .

* * *

الشرح :

ينبُع على « يفعُل » مثل يجُم ويحكم : اسم موضع ، كان فيه نخل لعليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وينبُع الآن بلد صغير من أعمال المدينة .

وهتف الناس باسمه : نداؤهم ودعاؤهم ، وأصله الصوت ، يقال : هتف الحمام يهتِف هتْفاً ، وهتف زيد بعمرو هُتافا ، أى صاح به ، وقوس هتافة وهتفَى ، أى ذات صوت .

والناضح : البعير يستقَى عليه ، وقال معاوية لقيس بن سعد ـ وقد دخل عليه

فى رَهْطٍ من الأنصار — : مافعلت نواضحكم ! يهزأ به ، فقال : أنصبناها فى طلب أبيك يوم بدر .

والغَرْب : الدلو العظيمة .

قوله : أقبِلْ وأدبِر ، أى يقول لى ذلك ، كما يقال : للناضح ، وقد صرّح العبّاس بن مِرْداس بهذه الألفاظ فقال :

أرَاكَ إذا أصبحتَ للقوم ناضحاً　　يقال له بالغرب ادبر وأقبِـــل

قوله : « لقـد دفعتُ عنه حتى خشيتُ أن أكونَ آثمًا » ، يحتمل أن يريدَ بالغتُ واجتهدت فى الدِّفاع عنه ، حتى خشيت أن أكون آثمـا فى كثرة مبالغتى واجتهادى فى ذلك ، وإنّه لا يستحقّ الدفاع عنه لجرائمه وأحداثه ، وهذا تأويل مَنْ ينحرف عن عثمان ، ويحتمل أن يريد : لقد دفعتُ عنه حتى كدتُ أن ألقِيَ نفسى فى الهلكة ؛ وأن يقتلنى النّاس الذين ثاروا به ، فخفتُ الإثم فى تغريرى بنفسى وتوريطها فى تلك الورْطة العظيمة ، ويحتمل أن يريد : لقد جاهدت الناس دونَه ودفعتهم عنه ، حتى خشيت أن أكونَ آثما بما نلتُ منهم من الضّرب بالسَّوْط ، والدفع باليد ، والإهانة بالقول ، أى فعلت من ذلك أكثرَ مما يجب .

• • •

[وصيّة العباس قبل موته لعلىّ]

قرأتُ فى كتاب صنّفه أبو حيّان التوحيدىّ فى تقريظ الجاحظ ، قال : نقلت من خطّ الصُّولىّ : قال الجاحظ : إنّ العبّاس بن عبد المطلب أوصَى علىّ بن أبى طالب عليه السلام فى عِلّته التى مات فيها ، فقال : أى بنىّ إنى مُشْفٍ على الظّعن عن الدُّنيا إلى الله ، الذى فاقتى إلى عفوه وتجاوزه أكثرُ من حاجتى إلى ما أنصحك فيه ، وأشير عليك به ،

ولكنّ العِرق نَبُوض(1) ، والرَّحِم عَرُوض ، وإذا قضيتُ حقّ العمومة ، فلا أبالي بعدُ
إنّ هذا الرجل ـ يعني عثمان ـ قد جاءني مراراً بحديثك ، وناظرني ملايناً ومخاشناً في أمرك ؛
ولم أجِدْ عليك إلا مثل ما أجد منك عليه ، ولا رأيتُ منه لك إلا مثل ما أجدُ منك له ،
ولستَ تؤتَى من قلّة علم ، ولكن من قلّة قَبُول ، ومع هذا كلّه فالرأي الذي أودعك به
أن تمسك عنه لسانَك ويدك ، وهمزك وغمزك ، فإنّه لا يبدؤك ما لم تبدأه ، ولا يُجيبُك
عمّا لم يبلغه ، وأنت المتجنّي وهو المتأنّي ، وأنت العائب وهو الصامت . فإن قلت : كيف
هذا وقد جلَس مجلساً أنا به أحقّ ، فقد قاربتَ ! ولكنّ ذاك بما كسبتْ يداك ، ونكَص
عنه عَقِباك ، لأنك بالأمس الأدنى ، هرولت إليهم تظنّ أنهم يحلّون جيدَك ، ويختّمون
أصبعَك ، ويطئون عَقِبك ، ويرون الرُّشْد بك ، ويقولون : لابدّ لنا منك ، ولا معدَل
لنا عنك ، وكان هذا من هفواتك الكُبَر ، وهَنَاتك التي ليس لك منها عذر ، والآن بعد
ما ثَلَلت عرشَك بيدك ، ونبذتَ رأي عمّك في البيداء يتدهده(2) في السّافياء(3) ؛ خذ
بأحزم مما يتوضّح به وجهُ الأمر ، لا تشارِ(4) هذا الرجل ولا تماره(5) ، ولا يبلغنه عنك
ما يُحنِقه عليك ، فإنه إنْ كاشفك أصاب أنصارا ، وإن كاشفته لم تَرَ إلا ضرارا ، ولم تستلج(6)
إلا عثارا ، واعرِفْ مَنْ هو بالشام له ، ومن هاهنا حوله من يطيع أمرَه ، ويمتثل قوله ؛
لا تغترِرْ بناسٍ يُطيفون بك ، ويدّعون الحُنُوّ عليك والحبّ لك ، فإنهم بين مولًى جاهلٍ ،
وصاحبٍ متمنٍّ ، وجليس يرعى العين ويبتدر المحضَر ، ولو ظنّ الناس بك ما تظنّ بنفسك
لكان الأمر لك ، والزِّمام في يدك ، ولكنْ هذا حديثٌ يومَ مَرَض رسول الله صلى الله
عليه وآله فات ، ثم حَرُم الكلام فيه حين مات ، فعليك الآن بالعُزوف عن شيء عرّضك

---

(1) كذا في ا ، ونبوض : من نبض العرق ينبض نبوضاً ، وهو ضربانه وفي ب : «نبوس» .
(2) يتدهده : يتدحرج (3) السافياء : الريح التي تحمل التراب .
(4) يقال : شاراه مشاراة ، إذا لاحه . (5) تماره : تجادله . (6) تستلج : تدخل

له رسولُ الله صلى الله عليه وآله، فلم يتمّ، وتصدّيتَ له مرّة بعد مرّة فلم يستقمْ، ومن ساوَرَ الدّهرَ غُلب، ومَنْ حَرَص على ممنوع تَعِب، فعلى ذلك فقد أوصيتُ عبدَ الله بطاعتك، وبعثتُه على متابعتك، وأوجَرْتُه محبّتك، ووجدت عنده من ذلك ظنّي به لك. لا توترْ قوسَك إلا بعد الثّقة بها، وإذا أعجبتك فانظر إلى سِيَتِها، ثم لا تفوّق إلا بعد العلم ولا تغرق في النّزع إلا لتصيب الرميّة، وانظر لا تطرف يمينُك عينَك، ولا تجنِ شمالُك شينَك، ودَعْني بآياتٍ من آخر سورة الكهف، وقم إذا بدا لك.

قلت: النّاس يستحسنون رأيَ العبّاس لعليّ عليه السلام في ألّا يدخل في أصحاب الشورى؛ وأمّا أنا فإنّي استحسنه إن قصد به معنًى، ولا أستحسنه إن قصد به معنًى آخر، وذلك لأنّه إن أجرى بهذا الرّأي إلى ترفّعه عليهم، وعلوّ قدره عن أن يكون مماثلا لهم، أو أجرى به إلى زُهده في الإمارة، ورغبته عن الولاية، فكلّ هذا رأي حسنٌ وصواب، وإن كان منزعه في ذلك إلى أنّك إن تركت الدّخول معهم، وانفردت بنفسك في دارك، أو خرجت عن المدينة إلى بعض أموالك، فإنّهم يطلبونك، ويضربون إليك آباط الإبل، حتّى يولّوك الخلافة؛ وهذا هو الظاهر من كلامه، فليس هذا الرّأي عندي بمستحسَن، لأنّه لو فعل ذلك لولّوا عثمان أو واحداً منهم غيره، ولم يكن عندهم من الرغبة فيه عليه السلام ما يبعثهم على طلبه، بل كان تأخّره عنهم قرّة أعينهم، وواقعاً بإيثارهم، فإنّ قريشا كلّها كانت تُبغضه أشدّ البغض، ولو عمّر عمر نوح، وتوصّل إلى الخلافة بجميع أنواع التوصّل، كالزهد فيها تارة، والمناشدة بفضائله تارة، وبما فعله في ابتداء الأمر من إخراج زوجته وأطفاله ليلا إلى بيوت الأنصار، وبما اعتمده إذ ذاك من تخلّفه في بيته، وإظهار أنّه قد انعكف على جمع القرآن، وبسائر أنواع الحِيَل فيها، لم تحصل له إلّا بتجريد السيف، كما فعل في آخر الأمر، ولست ألوم العربَ، لا سيّما قريشا في بغضها له، وانحرافها عنه، فإنّه وَتَرها، وسفك دماءها، وكشفَ القناع في منابذتها، ونفوس العرب وأكبادها كما تعلم،

وليس الإسلام بمانع من بقاء الأحقاد فى النفوس ، كما نشاهده اليوم عيانا ، والناس كالناس الأول ، والطبائع واحدة ، فاحسب أنك كنت من سنتين أو ثلاث جاهلياً أو من بعض الروم ، وقد قتل واحد من المسلمين ابنك أو أخاك ، ثم أسلمت ، أكان إسلامك يذهب عنك ما تجده من بغض ذلك القاتل وشنآنه ؟ كلا إن ذلك لغير ذاهب ، هذا إذا كان الإسلام صحيحا ، والعقيدة محققة ، لا كإسلام كثير من العرب ، فبعضهم تقليدا ، وبعضهم للطمع والكسب ، وبعضهم خوفا من السيف ، وبعضهم على طريق الحمية والانتصار ، أو لعداوة قوم آخرين من أضداد الإسلام وأعدائه .

* * *

واعلم أن كل دم أراقه رسول الله صلى الله عليه وآله بسيف على عليه السلام وبسيف غيره ، فإن العرب بعد وفاته عليه السلام عصبت تلك الدماء بعلى بن أبى طالب عليه السلام وحده ، لأنه لم يكن فى رهطه من يستحق فى شرعهم وسنتهم وعادتهم أن يعصب به تلك الدماء إلا بعلى وحده ، وهذه عادة العرب إذا قتل منها قتلى طالبت بتلك الدماء القاتل ، فإن مات، أو تعذرت عليها مطالبته ، طالبت بها أمثل الناس من أهله .

لما قتل قوم من بنى تميم أخاً لعمرو بن هند ، قال بعض أعدائه يحرض عمرا عليهم [1] :

مَنْ مبلغٌ عمراً بأنْـ ـنَ المرءَ لَمْ يُخلَقْ صُبارَهْ [2]
وحوادثُ الأيام لا يَبْقَى لهـا إلا الحجارهْ
ها إنّ عجْزَةَ أمّـهِ بالسفْحِ أسفَل من أُوارَهْ [3]
تسفِى الرياح خلال كَشْـحَيْه وقد سلَبُوا إزارَهْ
فاقتـلْ زُرارةَ لا أرَى فى القوم أمثلَ من زُرارَهْ

(١) هو عمرو بن ملقط الطائى ، والأبيات فى تاريخ ابن الأثير ١ : ٣٣٥ ، ضمن خبره عن يوم أوارة الثانى ، وهى أيضا فى اللسان ٦ : ١١١ .
(٢) الصبارة : الحجارة الملس ، كأنه يقول : ليس الإنسان بحجر فيصبر على مثل هذا .
(٣) أول ولد المرأة يقال له زُكمة ، والآخر عجزة .

فاسمه أن يقتل زُرارة بن عُدَس رئيس بنى تميم ، ولم يكن قاتلا أخا الملك ولا حاضرا قتله .

ومَنْ نظر فى أيام العرب ووقائعها ومقاتِلها عرف ما ذكرناه .

* * *

سألت النقيبَ أبا جعفر يحيى بن أبى زيد رحمه الله ، فقلت له : إنّى لأعجبُ من علىّ عليه السلام كيف بَقِىَ تلك المدّة الطويلة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكيف ما اغتيل[1] وفُتِك به فى جَوْف منزله ، مع تلظّى الأكباد عليه !

فقال : لولا أنّه أرغَم أنفه بالتّراب ، ووضع خدّه فى حضيض الأرض لقتل ، ولكنه أخملَ نفسه ، واشتغل بالعبادة والصّلاة والنظر فى القرآن ، وخرج عن ذلك الزىّ الأوّل ؛ وذلك الشّعار ونسىَ السيف ، وصار كالفاتك يتوب ، ويصير سائحا فى الأرض ، أو راهباً فى الجبال ، ولما أطاع القوم الّذين ولّوا الأمر ، وصار أذلّ لهم من الحذاء ، تركوه وسكتوا عنه ، ولم تكن العرب لتقدُم عليه إلّا بمواطأةٍ من متولّى الأمر ، وباطنٍ فى السرّ منه ، فلمّا لم يكن لولاة الأمر باعثٌ وداعٍ إلى قتله وقع الإمساك عنه ، ولولا ذلك لقُتِلَ[2] ، ثم أجلٌ بعدُ معقل حصين .

فقلت له : أحقّ ما يقال فى حديث خالد ؟ فقال : إنّ قوما من العلويّة يذكرون ذلك .

ثم قال : وقد روى أنّ رجلًا جاء إلى زفر بن الهُذَيل ، صاحب أبى حنيفة ، فسأله عمّا يقول أبو حنيفة فى جواز الخروج من الصّلاة بأمرٍ غير التّسليم ، نحو الكلام والفعل الكثير أو الحدَث ؟ فقال : إنّه جائز ، قد قال أبو بكر فى تشهّده ما قال ، فقال الرجل :

---

(١) ب : « ما قتل » ، وأثبت ماق ا .

(٢) ب : « لقتله » .

وما الذي قاله أبو بكر ؟ قال : لا عليك ، فأعاد عليه السؤال ثانيةً وثالثةً ، فقال: أخرجوه أخرجوه ، قد كنت أحدّث أنه من أصحاب أبي الخطاب .

قلت له : فما الذي تقوله أنت ؟ قال : أنا استبعدُ ذلك وإن روته الإماميّة .

ثم قال : أمّا خالدٌ فلا استبعد منه الإقدام عليه بشجاعته في نفسه ، ولبغضه إيّاه ، ولكنّي أستبعده من أبي بكر ، فإنه كان ذا ورعٍ ، ولم يكن ليجمع بين أخذ الخلافة ومنع فَدَك ، وإغضاب فاطمة وقتل عليٍّ عليه السلام ؛ حاش لله من ذلك ! فقلت له : أكان خالدٌ يقدِرُ على قتله ؟ قال : نعم ؛ ولِمَ لا يقدر على ذلك ، والسيف في عنقه ، وعليٌّ أعزلُ غافل عمّا يراد به ، قد قتله ابن ملجم غيلةً ، وخالد أشجعُ من ابن ملجم !

فسألته عمّا ترويه الإمامية في ذلك ، كيف ألفاظه ؟ فضحك وقال :

* كم عالمٍ بالشيء وهو يسائلُ *

ثم قال : دعنا من هذا ، ما الذي تحفظُ في هذا المعنى ؟ قلت : قول أبي الطيّب :

نَحْنُ أَدْرَى وَقَدْ سَأَلْنَا بِنَجْدٍ   أطويلٌ طريقُنا أم يطُولُ[1]

وكثيرٌ من السُّؤالِ اشتياقٌ   وكثيرٌ من ردِّهِ تعليلُ

فاستحسن ذلك ، وقال : لمن عَجُزُ البيت الذي استشهدتَ به ؟ قلت : لمحمد بن هانئ المغربي ، وأوله :

في كلّ يوم أستزيدُ تجارباً   كم عالمٍ بالشيء وهو يسائلُ[2] !

فبارك عليّ مرارا ، ثم قال : نترك الآن هذا ونتمم ما كنّا فيه ، وكنت أقرأ عليه في ذلك الوقت " جمهرة النسب " لابن الكلبيّ ، فعدنا إلى القراءة ، وعدَلْنا عن الخوض عمّا كان اعترض الحديث فيه .

---

(١) ديوانه ٣ : ١٠١ ، ١٠٢   (٢) ديوانه ١١٤

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام اقتص فيه ذكر ما كان منه بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله ثم لحاقه به :

فَجَعَلْتُ أَتْبَعُ مَأْخَذَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَأَطَأُ ذِكْرَهُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرْجِ .

في كلام طويل

* * *

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « فَأَطَأُ ذِكْرَهُ » ، مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي رُمِيَ بِهِ إِلَى غَايَتَيِ الْإِيجَازِ وَالْفَصَاحَةِ ، أَرَادَ أَنِّي كُنْتُ أُعْطَى خَبَرَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ بَدْءِ خُرُوجِي إِلَى أَنِ انْتَهَيْتُ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ ، فَكَنَّى عَنْ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْكِنَايَةِ الْعَجِيبَةِ .

* * *

الشرح :

العَرْج : منزل بين مكّة والمدينة ، إليه ينسب العَرْجيّ الشاعر ، وهو عبد الله بن عمرو ابن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس .

قال محمد بن إسحاق في كتاب « المغازي » : قال لم يعلمْ رسولُ الله صلى الله عليه وآله أحداً من المسلمين ما كان عزم عليه من الهجرة إلّا عليّ بن أبي طالب وأبا بكرِ بن أبي قحافة ، أمّا عليّ ، فإنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله أخبره بخروجه ، وأمره أن يبيتَ على

فراشه ، يُخادع المشركين عنه ليروْا أنه لم يبرحْ فلا يطلبوه ، حتى تبعُد المسافة بينهم وبينه ، وأنْ يتخلّف بعده بمكّة حتى يؤدِّيَ عن رسول الله صلى الله عليه وآله الودائع الّتي عنده للناس ، وكان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله استودَعه رجالٌ من مكّة ودائعَ لهم ، لمايعرفونه من أمانته ، وأما أبو بكر فخرج معه .

* * *

وسألتُ النقيب أبا جعفر يحيى بن أبى زيد الحسنىّ ، رحمه الله فقلت : إذا كانتْ قُريش قد محصت رأيها ، وألقى إليها إبليس – كما رُوِى – ذلك الرأى ، وهو أن يضربوه بأسيافٍ من أيدي جماعة من بُطون مختلفة ، ليضيع دمُه فى بُطُون قريش فلا تطلبه بنو عبد مناف ، فلماذا انتظروا به تلك الليلة الصّبح ! فإنّ الرواية جاءت بأنّهم كانوا تسوّروا الدّار ، فعاينوا فيها شخصاً مسجّى بالبُرْد الحضرمىّ الأخضر ، فلم يشكّوا أنّه هو فرصدوه إلى أن أصبحوا ، فوجدوه عليّاً ، وهذا طريفٌ ، لأنّهم كانوا قد أجمعوا على قتله تلك الليلة ، فما بالهم لم يقتلوا ذلك الشخص المسجّى ، وانتظارهم به النّهار دليل على أنّهم لم يكونوا أرادوا قتله تلك الليلة ؟

فقال فى الجواب : لقد كانوا همّوا من النّهار بقتله تلك الليلة ، وكان إجماعهم على ذلك ، وعزمُهم فى حُفْنة من بنى عبد مناف ، لأنّ الذين محصوا هذا الرأى واتفقوا عليه : النّضْر بن الحارث من بنى عبد الدّار ، وأبو البختَرىّ بن هشام ، وحكيم بن حزام ، وزمْعة بن الأسود ابن المطلب ؛ هؤلاء الثلاثة من بنى أسد بن عبد العُزّى ، وأبو جهل بن هشام ، وأخوه الحارث ، وخالد بن الوليد بن المغيرة ، هؤلاء الثلاثة من بنى مخزوم ، ونبيه ومنبّه ابنا الحجّاج ، وعمرو بن العاص ؛ هؤلاء الثلاثة من بنى سَهْم ، وأميّة بن خلَف وأخوه أُبىّ بن خلَف ، هذان من بنى جُمَح ، فنَمَا هذا الخبرُ من الّليل إلى عُتْبة بن ربيعة بن عبد شمس ، فلقِىَ منهم قوماً ، فنهاهم عنه ، وقال : إنّ بنى عبد مناف لا تمسِك عَنْ دمِه ، ولكن صفّدُوه

فى الحديد ، واحبسوه فى دارٍ من دوركم ، وتربَّصُوا به أن يصيبه من الموت ما أصاب أمثاله من الشعراء . وكان عتبة بن ربيعة سيّد بنى عبد شمس ورئيسهم ، وهم من بنى عبد مناف ، وبنو عم الرجل ورهطه ، فأحجم أبو جهل وأصحابه تلك الليلة عن قتله إحجاماً ، ثم تسوّروا عليه ، وهم يظنونه فى الدّار ، فما رأوا إنساناً مسجًّى بالبُرْد الأخضر الحضرمىّ لم يشكّوا أنّه هُوَ؛ وائتمروا فى قتله ، فكان أبو جهل يذمُرهم [(١)] عليه فيهمّون ثم يحجمون . ثم قال بعضهم لبعض : ارمُوه بالحجارة ، فرموه ، فجعل علىّ يتصوّر منها ، ويتقلّب ويتأوّه تأوّهاً خفيفاً ، فلم يزالوا كذلك فى إقدامٍ عليه وإحجامٍ عنه ، لما يريده الله تعالى من سلامته ونجاته ، حتى أصبح وهو وقيذ [(٢)] من رَمْيِ الحجارة ، ولو لم يخرج رسولُ الله صلّى الله عليه وآله إلى المدينة ، وأقام بينهم بمكّة ، ولم يقتلوه تلك الليلة ، لقتلوه فى الليلة التى تليها ، وإنْ شبّت الحرب بينهم وبين عبد مناف ، فإنّ أبا جهل لم يكنْ بالذى ليمسك عن قتله ، وكان فاقدَ البصيرة ، شديدَ العزْم على الولوغ فى دمه .

قلت للنقيب : أفعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وعلىّ عليه السلام بما كان من عتبة لهم ؟ قال : لا ، إنّهما لم يعلما ذلك تلك الليلة ، وإنّما عرفاه من بعد ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، لمّا رأى عتبة وما كان منه : إن ويكنْ فى القوم خيرٌ ففى صاحب الجمل الأحمر ، ولو قدّرنا أن عليا عليه السلام علم ماقال لهم عُتْبة لم يسقط ذلك فضيلته فى المبيت ، لأنه لم يكن على ثقةٍ من أنّهم يقبلون قول عُتْبة ، بل كان ظنّ الهلاك والقتل أغلب .

وأما حالُ على عليه السلام ، فلمّا أدّى الودائع ، خرج بعد ثلاثٍ من هجرة النبى

---

(١) يذمرهم : يحضهم .
(٢) الوقيذ : المشرف على الهلاك .

صلى الله عليه وآله ، فجاء إلى المدينة راجلا قد تورّمت قدماه ، فصادف رسولَ الله صلى الله عليه وآله نازلا بقُباء على كُلثوم بن الهدم ، فنزل معه فى منزله ، وكان أبو بكر نازلا بقُباء أيضا فى منزل حبيب بن يساف ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وهما معه من قُباء ، حتى نزل بالمدينة على أبى أيّوب خالد بن يزيد الأنصارىّ ، وابتنى المسجد .

(٢٤١)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفَسِ الْبَقَاءِ ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ ، وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ ، وَالْمُدْبِرُ يُدْعَى ، وَالْمُسِيءُ يُرْجَى ، قَبْلَ أَنْ يَخْمُدَ الْعَمَلُ ، وَيَنْقَطِعَ الْمَهَلُ ، وَيَنْقَضِيَ الْأَجَلُ ، وَيُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ ، وَتَصْعَدَ الْمَلَائِكَةُ ؛ فَأَخَذَ امْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ ، وَأَخَذَ مِنْ حَيٍّ لِمَيِّتٍ ، وَمِنْ فَانٍ لِبَاقٍ ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ ، امْرُؤٌ خَافَ اللَّهَ . وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَى أَجَلِهِ ، وَمَنْظُورٌ إِلَى عَمَلِهِ ، امْرُؤٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا ، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا ، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا ، عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ ، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

في نَفَس البقاء ، بفتح الفاء ، أي في سعته ، تقول : أنت في نَفَسٍ من أمرك ، أي في سَعة .

والصحف منشورة ، أي وأنتم بعد أحياء ؛ لأنه لا تطوى صحيفة الإنسان إلا إذا مات . والتوبة مبسوطة لكم غير مقبوضة عنكم ، ولا مردودة عليكم إن فعلتم ، كما ترد على الإنسان توبته إذا احتضر .

والمدبِر يدعَى ، أي مَنْ يدبِر عنكم ، ويولِّى عن الخير يُدعَى إليه ، وينادَى : يافلان أقبل على ما يُصلِحك !

والمسوء يُرحّى ، أى يرجّى عوده وإقلاعه .

قبل أن يخمد العمل ، استعارتمليحة ،لأنّ الميت يخمد عمله ويقف . ويروى « يخمده » بالخاء ، من خمدت النار ، والأول أحسن .

وينقطع المهل ، أى العمر الذى أمهلتم فيه .

وتصعد للملائكة ، لأنّ الإنسان عندموته تصعد حفظته إلى السماء ، لأنه لم يبق لهم شغل فى الأرض .

قوله : « فأخذ امرؤ » ماض يقوم مقام الأمر ، وقد تقدّم شرحُ ذلك ، والمعنى أنّ مَنْ يصوم ويصلّى فإنّما يأخذ بعض قوة نفسه ممّا يلقَى من المشقة . لنفسه أى عدة وذخيرة لنفسه يوم القيامة ، وكذلك مَنْ يتصدّق ، فإنه يأخذ من ماله ، وهو جار مجرى نفسه لنفسه .

وأخذ من حى لميت ، أىْ من حال الحياة لحال الموت ، ولو قال : من ميّت لحىّ ، كان جيّدا أيضا ، لأنّ الحىّ فى الدّنيا ليس بحىّ على الحقيقة وإنّما الحياة حياة الآخرة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾[1] .

وروى : « أمسكها بلجامها » بغير فاء .

---

(١) سورة العنكبوت ٦٤ .

(٢٤٢)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام فى شأن الحكمين وذم أهل الشام :

جُفَاةٌ طَغَامٌ ، عَبِيدٌ أَقْزَامٌ ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ، وَتُلُقِّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ ، مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ ، وَيُعَلَّمَ وَيُدَرَّبَ ، وَيُوَلَّى عَلَيْهِ ، وَيُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْهِ ، لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ .

أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ ، وَإِنَّكُمْ اخْتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ . وَإِنَّمَا عَهْدُكُمْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ بِالْأَمْسِ ، يَقُولُ : إِنَّهَا فِتْنَةٌ فَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ ، وَشِيمُوا سُيُوفَكُمْ ، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهَمَةُ .

فَادْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ ، وَخُذُوا مَهَلَ الْأَيَّامِ ، وَحُوطُوا قَوَاصِيَ الْإِسْلَامِ .

أَلَا تَرَوْنَ إِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى ، وَإِلَى صَفَاتِكُمْ تُرْمَى !

• • •

الشَّرْحُ :

جفاة : جمع جافٍ ، أى هم أعراب أجلاف . والطّغام : أوغاد الناس ، الواحد والجمع فيه سواء .

ويقال للأشرار واللئام : عبيد ، وإن كانوا أحراراً .

والأقزام ، بالزاى : رذال الناس وسِفْلتهم ، والمسموع قزَم ، الذّكر والأنثى والواحد والجمع فيه سواء ، لأنه فى معنى المصدر قال الشاعر :

وهُمْ إذا الخيل جالُوا فى كتائبها فوارسُ الخيل لا مِيلٌ ولا قزَمُ(١)

ولكنه عليه السلام قال : « أقزام » ليوازن بها قوله : « طغام » ، وقد روى : « قِزّام » ، وهى رواية جيّدة ، وقد نطقت العرب بهذه اللفظة وقال الشاعر :

أحصَنُوا أمّهمُ من عَبْدِهِمْ تلك أفعال القِزام الوَكَعه(٢)

وجُمعوا من كلّ أوب ، أىْ من كلّ ناحية .

وتُلقطُوا من كلّ شوب ، أىْ من فِرَقٍ مختلطة .

ثم وصف جهلهم و بعدَهم عن العلم والدّين ، فقال : ممّن ينبغى أن يفقّه ويؤدّب ، أى يعلّم الفقه والأدب . ويدرّب ، أى يعوّد اعتياد الأفعال الحسنة والأخلاق الجميلة .

ويولّى عليه ، أى لا يستحقّون أن يولّوا أمراً ، بل ينبغى أن يحجَر عليهم كما يحجر على الصبىّ والسّفيه لعدم رُشْده .

وروى : « ويولَى عليه » بالتخفيف . ويؤخذ على يديه ، أى يمنع من التصرّف .

قوله عليه السلام : « ولا الذين تبوءوا الدّار والإيمان » ، ظاهر اللفظ يشعر بأنّ الأقسام ثلاثة وليست إلا اثنين ، لأنّ الّذين تبوءوا الدّار والإيمان الأنصار ، ولكنه عليه السلام كرر ذكرهم تأكيدا ، وأيضا فإنّ لفظة « الأنصار » واقعة على كلّ مَنْ كان من الأوس والخزرج ، الذين أسلَمُوا على عهدِ رسول الله صلى الله عليه وآله ، والذين تبوءوا الدار

---

(١) الصحاح ٥ : ٢٠١٠ ، ونسبه إلى زياد بن منقذ .
(٢) الصحاح ٥ : ٢٠١٠ ، من غير نسبة ، وأحصنوا ، أى زوّجوا .

والأيمان فى [1] الآية ، قوم مخصوصون منهم ، وهم أهل الإخلاص والإيمان التام فصار ذكرُ الخاصّ بعد العام ، كذكره تعالى جبريل وميكائيل ؛ ثم قال : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [2] ، وهما من الملائكة . ومعنى قوله : « تبوءوا الدار والإيمان » سكنوها ، وإن كان الإيمان لا يسكن كما نسكن المنازل ، لكنهم لما ثبتوا عليه ، واطمأنّوا سمّاه منزلا لهم ومتبوّأ ، ويجوز أن يكون مثل قوله :

وَرَأَيْتُ زَوْجَكِ فِي الوَغَى مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحاً

ثم ذكر عليه السلام أنّ أهل الشام اختارُوا لأنفسهم أقربَ القوم مما يحبّونه ، وهو عمرو بن العاص ، وكرّر لفظة « القوم » ، وكان الأصل أن يقول : ألا وإنّ القومَ اختاروا لأنفسهم أقربَهم مما يحبّون ، فأخرجه مخرج قول الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [3] . والذى يحبّه أهل الشام هو الانتصار على أهل العراق والظفر بهم ، وكان عمرو بن العاص أقربَهم إلى بلوغ ذلك ، والوصول إليه بمكره وحيلته وخداعه .

والقوم فى قوله ثانياه أقربُ القومِ » ، بمعنى الناس كأنّه قال : واخترتم لأنفسكم أقربَ الناس ، مما تكرهونه ، وهو أبو موسى الأشعرى ، واسمه عبد الله بن قيس ، والذى يكرهه أهلُ العراق هو ما يحبّه أهل الشام ، وهو خذلان عسكر العراق وانكسارهم ، واستيلاء أهل الشام عليهم ، وكان أبو موسى أقربَ الناس إلى وقوع ذلك ، وهكذا وقع لبلهه وغفلته وفساد رأيه ، وبغضه عليا عليه السلام من قبل .

ثم قال : أنتم بالأمس ، يعنى فى واقعة الجمل ، قد سمعتم أبا موسى ينهى أهل الكوفة

---

(١) وهو قوله تعالى فى سورة الحشر ٩ : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

(٢) سورة التحريم ٤ .

(٣) سورة المائدة ٧ .

عن نُصْرتى ، ويقول لهم : هذه هى الفتنة التى وعدنا بها ، فقطّعوا أوتار قِسيّكم ، وشيموا سيوفكم ، أى أغمدوها فإن كان صادقا فما باله سار إلىّ ، وصار معى فى الصفّ ، وحضر حرب صِفّين ، وكثّر سواد أهل العراق وإن لم يحارب ، ولم يسلّ السيف ، فإنّ مَنْ حضر فى إحدى الجهتين وإن لم يحارب كمن حارب ، وإن كان كاذبا فيما رواه من خَبَر الفتنة فقد لزمته التُّهمة وقُبّح الاختلاف إليه فى الحكومة ، وهذا يؤكّد صحة إحدى الروايتين فى أمرِ أبى موسى ، فإنه قد اختلفت الرواية : هل حضر حرب صِفّين مع أهل العراق أم لا ؟ فمن قال : حضر ، قال : حضرولم يحارب ، وماطلبه اليمانيّون من أصحاب على عليه السلام ليجعلوه حَكَماً كالأشعث بن قيس وغيره إلا وهو حاضرٌ معهم فى الصفّ ، ولم يكن منهم على مسافة ، ولو كان على مسافة لما طلبوه ، ولكان لهم فيمن حضر غَناء عنه ، ولو كان على مسافة لمَا وافق علىّ عليه السلام على تحكيمه ، ولا كان علىٌّ عليه السلام ممّن يحكّم من لم يحضر معه .

وقال الأكثرون، إنه كان معتزلا للحرب بعيداً عن أهل العراق وأهل الشام .

فإن قلت : لم لا يحمَلُ قوله عليه السلام : « فإن كان صادقا فقد أخطأ بسيره غير مستكرَه » على مسيره إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأهل العراق حيث طلبوه ليفوّضوا إليه أمرَ الحكومة ؟

قلت : لو حملنا كلامَه عليه السلام على هذا لم يكن لازماً لأبى موسى ، وكان الجواب عنه هيّناً ، وذلك لأنّ أبا موسى يقول : إنما أنكرت الحربَ وما سرت لأحارب ولا لأشهد الحرب ، ولا لأغرِى بالحرب ، وإنما سرتُ للإصلاح بين النّاس ، وإطفاء نائرة الفتنة ، فليس يناقض ذلك ماروَيتُه عن الرسول من خبر الفتنة ، ولا ماقلته فى الكوفة فى واقعة الجمل : « قطّعوا أوتار قِسيّكم » .

* * *

قوله عليه السلام : « فادفعوا فى صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن العباس » ، يقال لمن يرام كفّه عن أمر يتطاول له : ادفع فى صدره ، وذلك لأنّ من يقدم على أمر بيده فيدفع دافع فى صدره حقيقة فإنه يردّه أو يكاد ، فنقل ذلك إلى الدفع المعنوىّ .

قوله عليه السلام : « وخذوا مَهَل الأيّام » ، أى اغتنموا سعة الوقت ، وخذوه مناهَبةً قبل أن يضيق بكم أو يفوت .

قوله عليه السلام : « وحوطوا قواصىَ الإسلام » : ما بَعُد من الأطراف والنواحى .

ثم قال لهم : « ألا ترون إلى بلادكم تُغْزَى ! » ، هذا يدلّ على أن هـذه الخطبة بعد انقضاء أمرِ التحكيم ، لأن معاوية بعـد أن تمّ على أبى موسى من الخديعة ما تمّ استعجل أمرَه ، وبعث السّرايا إلى أعمال أمير المؤمنين علىّ عليه السلام .

وتقول : قد رمى فلان صَفاةَ فلان ، إذا دهاه بداهية قال الشاعر :

والدّهرُ يُوتِرُ قوسَـــه   يرمى صَفاتك بالمعاولْ

وأصل ذلك الصخرة الملساء ، لا يؤثّر فيها السهام ولا يرميها الرامى ، إلا بعد أن تَبلَى غيرها ، يقول : قد بلغتْ غاراتُ أهل الشام حدودَ الكوفة التى هى دار الملك وسرير الخلافة ، وذلك لا يكون إلا بعد الإثخان فى غيرها من الأطراف .

* * *

[فصل فى نسب أبى موسى والرأى فيه عند المعتزلة]

ونحن نذكر نسبأبى موسى وشيئا من سيرته وحاله نقلا من كتاب " الاستيعاب " لابن عبد البر المحدّث ، ونتبع ذلك بما نقلناه من غير الكتاب المذكور . قال ابن عبد البر : هو عبد الله بن قيس بن سُلَيم بن حضاره بن حَرْب بن عامر بن عَنز بن بكر بن عامر

ابن عذر بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر ، وهو نَبْت بن أدد بن زيد بن يشجُب بن عريب بن كَهْلان بن سبأ بن يشجُب بن يعرب بن قحطان ، وأمه امرأة من عكّ ، أسلمت وماتت بالمدينة ، واختلف في أنّه هل هو من مهاجرة الحبشة أم لا ؟ والصحيح أنّه ليس منهم ، ولكنه أسلم ثم رجع إلى بلاد قومه ، فلم يزل بها حتى قدم هو وناس من الأشعريّين على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فوافق قدومُهم قدومَ أهل السفينتين جعفر ابن أبي طالب وأصحابه من أرض الحبشة ، فوافَوْا رسول الله صلى الله عليه وآله بخيبر ، فظنّ قومٌ أنّ أبا موسى قدم من الحبشة مع جعفر .

وقيل إنه لم يهاجر إلى الحبشة ، وإنما أقبل في سفينة مع قوم من الأشعريّين ، فرمت الريح سفينتهم إلى أرض الحبشة ، وخرجوا منها مع جعفر وأصحابه ، فكان قدومهم معاً ، فظنّ قومٌ أنه كان من مهاجرة الحبشة .

قال : وولّاه رسولُ الله صلى الله عليه وآله من مخاليف اليمن زَبيد ، وولّاه عمر البصرة ، لمّا عزل المغيرة عنها ، فلم يزل عليها إلى صدر من خلافة عثمان فعزله عثمان عنها ، وولّاها عبدَ الله بن عامر بن كُريز ، فنزل أبو موسى الكوفة حينئذ ، وسكنها ، فلمّا كره أهلُ الكوفة سعيد بن العاص ودفعوه عنها ، ولّوْا أبا موسى ، وكتبوا إلى عثمان يسألونه أن يولّيه ، فأقرّه على الكوفة ، فلما قتل عثمان عزله عليٌّ عليه السلام عنها ، فلم يزل واجداً لذلك على عليّ عليه السلام ، حتى جاء منه ماقال حذيفة فيه ، فقد روى حُذَيفة فيه كلاما كرهت ذكرَه والله يغفر له [(١)]

قلت : الكلام الذي أشار إليه أبو عمر بن عبد البرّ ولم يذكره قوله فيه ، وقد ذكر عنده بالدّين ، أما أنتم فتقولون ذلك ، وأمّا أنا فأشهد أنّه عدوّ لله ولرسوله ، وحرب لهما في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللّعنة ولهم

---

(١) الاستيعاب ٣٨٠ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ .

سوء العاقبة . وكان حذيفة عارفاً بالمنافقين ، أسرّ إليه رسول الله صلى الله عليه وآله أمرهم ، وأعلمه أسماءهم .

وروى أن عماراً سئل عن أبى موسى ، فقال : لقد سمعتُ فيه من حُذَيفة قولاً عظيماً ، سمعته يقول : صاحب البُرْنس الأسود ، ثم كلَح كُلُوحاً علمت منه أنه كان ليلة العقبة بين ذلك الرهط .

وروى عن سويد بن غفلة : قال : كنت مع أبى موسى على شاطىء الفرات فى خلافة عثمان ، فروى لى خبراً عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : سمعته يقول : « إن بنى إسرائيل اختلفوا ؛ فلم يزل الاختلاف بينهم ، حتى بعثوا حَكَمين ضالّين ضلّا وأضلّا من اتبعهما ، ولا ينفكّ أمر أمتى حتى يبعثوا حكمين يضلّان ويُضلّان من تبعهما » ، فقلت له : احذر يا أبا موسى أن تكون أحدهما ! قال : فخلع قميصه ، وقال : أبرأ إلى الله من ذلك ، كما أبرأ من قميصى هذا .

* * *

فأما ما تعتقده المعتزلة فيه، فأنا أذكر ما قاله أبو محمد بن متويه فى كتاب " الكفاية " قال رحمه الله :

أما أبو موسى فإنه عظم جُرْمه بما فعله ، وأدّى ذلك إلى الضرر الذى لم يخف حاله ، وكان علىٌّ عليه السلام يقنتُ عليه وعلى غيره ، فيقول : اللهمّ العنْ معاوية أولا وعمراً ثانيا، وأبا الأعور السُّلمىّ ثالثا ، وأبا موسى الأشعرىّ رابعا .

روى عنه عليه السلام : أنه كان يقول فى أبى موسى : صبغ بالعلم صبغا وسلخ منه سلخا .

قال : وأبو موسى هو الذى روى عن النبىّ صلى الله عليه وآله أنه قال : كان فى

بنى إسرائيل حكمان ضالّان ، وسيكون فى أمّتى حكمان ضالّان ، ضالّ من اتبعهما ، وأنه قيل له : ألا يجوز أن تكون أحدهما ؟ فقال : لا أو كلاماً ، ماهذا معناه ، فلمّا بُلِيَ به ، قيل فيه : البلاء موكّل بالمنطق ، ولم يثبت فى توبته ما ثبت فى توبة غيره ، وإن كان الشيخ أبو علىّ قد ذكر فى آخر كتاب الحكمين أنّه جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فى مرض الحسن بن علىّ ، فقال له : أجئتنا عائداً أم شامتاً ؟ فقال : بل عائداً ، وحدّث بحديث فى فضل العيادة .

قال ابن متويه : وهذه أمارة ضعيفة فى توبته .

انتهى كلام ابن متويه ، وذكرته لك لتعلم أنّه عند المعتزلة من أرباب الكبائر ، وحكمه حكم أمثاله ممن واقع كبيرة ومات عليها .

* * *

قال أبو عمر بن عبد البرّ : واختلف فى تاريخ موته ، فقيل : سنة اثنتين وأربعين ، وقيل : سنة أربع وأربعين ، وقيل : سنة خمسين ، وقيل : سنة اثنتين وخمسين .

واختلف فى قبره ، فقيل : مات بمكّة ودفن بها ، وقيل مات بالكوفة ودفن بها[1] .

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها آل محمد صلى الله عليه وآله :

هُمْ عَيْشُ العِلْمِ، وَمَوْتُ الجَهْلِ، يُخبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ حِكَمِ مَنْطِقِهِمْ. لَا يُخَالِفُونَ الحَقَّ، وَلَا يَخْتَلِفُونَ عَلَيْهِ، وَهُمْ دَعَائِمُ الإِسْلَامِ، وَوَلَائِجُ الاعْتِصَامِ، بِهِمْ عَادَ الحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ، وانْزَاحَ البَاطِلُ عَنْ مقامه، وانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنْبِتِهِ، عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وِعَايَةٍ وَرِعَايَةٍ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ ورواية، فإنَّ رُوَاةَ العِلْمِ كثير، ورُعَاتَهُ قليل.

* * *

الشَّرْحُ :

يقول : بهم يحيا العلم ويموت الجهل : فسمّاهم حياة ذاك، وموت هذا، نظراً إلى السببيّة ؛ يدلّكم حلمهم وصفحهم عن الذنوب على علمهم وفضائلهم، ويدلّكم ما ظهر منهم من الأفعال الحسنة، على ما بطن من إخلاصهم، ويدلّكم صمتهم وسكوتهم عمّا لا يعنيهم، عن حكمة منطقهم.

ويروى : « ويدلّكم صمتهم على منطقهم » ؛ وليس في هذه الرواية لفظة « حكم ».

لا يخالفون الحق : لا يعدلون عنه، ولا يختلفون فيه كما يختلف غيرهم من الفرق وأرباب المذاهب ؛ فمنهم من له في المسألة قولان وأكثر، ومنهم من يقول قولاً ثم يرجع عنه، ومنهم من يرى في أصول الدين رأياً ثم ينفيه ويتركه.

ودعائم الإسلام : أركانه .

والولائج : جمع وَليجة ، وهى للموضع يدخل إليه ويستتر فيه ، ويعتصم به .

وعاد الحق إلى نصابه : رجع إلى مستقرّه وموضعه : وانزاح الباطل : زال . وانقطع لسانه : انقطعت حجّته .

عقلوا الدين عقل رعاية ، أى عرفوا الدين وعلموه معرفة مَن وعى الشىء وفهمه وأتقنه .

ووعاية ، أى وعوا الدين وحفظوه وحاطوه ، ليس كما يعقله غيرهم عن سماع ورواية ، فإن من يروى العلم ويسنده إلى الرجال ويأخذه من أفواه الناس كثير ، ومن يحفظ العلم حفظ فهم وإدراك ، أصالةً لا تقليداً قليل .

تم الجزء الثالث عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ؛

ويليه الجزء الرابع عشر

فهرس الموضوعات

صفحة